

مجلة شهرية تعنى بالدراسات
الاسلامية وبشؤون الثقافة
والفكر

تصدرها وزارة عموم الاوقاف
الرباط المغرب الأقصى



العدد الممتاز لنهاية السنة الثالثة
العدد العاشر
صفر 1380 - يوليوز سنة 1960

ثمن العدد ١٥٥ فرنك

العدد العاشر
السنة الثالثة
صفر الخير - 1380
يوليوز - 1960

دعوة الحق

مدير المجلة
المكي بادو
رئيس التحرير
محمد الطنجي

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف . الرباط - المغرب

صورة الغلاف



من بساتين فاس الرائعة

تمثل صورة الغلاف حدائق ابي الجنود باعالي فاس المدينة الاثرية العظيمة

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة «دعوة الحق» ــ قسم التحرير ــ وزارة عموم الاوقاف ــ الرباط ــ المغرب .

الاشتراك العادي عن سنة 1.000 فرنك ، والشرفي 2.000 فرنك فأكثر .

السنة عشرة اعداد . لايقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :
« دعوة الحق » الحوالة البريدية رقم 55 ــ 485 ــ الرباط ــ
DAOUAT AL HAK compte chèque postal 485-55 à RABAT

او تبعث راسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة «دعوة الحق» ــ قسم التوزيع ــ وزارة عموم الاوقاف ــ الرباط ــ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل مايتعلق بالاعلان يكتب الى :
« دعوة الحق » قسم التوزيع ــ وزارة عموم الاوقاف ــ الرباط
تليفون 308.10 ــ الرباط

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة العدد

حساب سنة

بهذا العدد تنهي مجلة « دعوة الحق » سنتها الثالثة لتدخل بعد عطلة شهرين في سنتها الرابعة ، ومن اللازم ان يحاسب المرء نفسه عما قطعه من اشواط وعما قام به في هذه الاشواط من اعمال .

ومشروع مجلة « دعوة الحق » الذي ترعاه وزارة عموم الاوقاف يعني بالشؤون الاسلامية التي يحرص صاحب الجلالة الملك المعظم على ان تظل قوية العماد ثابتة الاركان ، كما انه يعنى بشؤون الفكر والثقافة في جميع مظاهرها ، وان السنوات الثلاث التي سلختها هذه المجلة من عمرها لتشهد الاعداد الصادرة خلالها بان وزارة الاوقاف لم تال جهدا في المساهمة لازدهار الفكر والثقافة ، واعزاز شأن الاسلام بنشر تعاليمه الصحيحة ، وكانت « دعوة الحق » وما تزال وستظل بحول الله صلة وصل بين المغرب وغيره من الاقطار العربية والاسلامية ، وهي تحمد الله على هذه السمعة الطيبة التي تتمتع بها في تلك البلاد الشقيقة ، وهذه السمعة تعتبر تشريفا للمغرب واعلاء لشأنه ، ثم انها تحاول ان تعطي بواسطة الدراسات القيمة التي تنشرها صورة صحيحة عن تعاليم الاسلام ، وذلك في اسلوب علمي منظم يقدم للقارىء اصدق صورة عن آراء الاسلام في كثير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وتبذل ادارة هذه المجلة جهودا متواصلة تحتسب بها لله وللوطن ، وتحقق بها رغبة صاحب الجلالة الملك المعظم الحريص على تثبيت دعائم الدين ، ونشر الثقافة العربية على نطاق واسع ، وتشجيع الحركة الفكرية الرامية الى خلق جيل مثقف واع معتز بقوميته ومحافظ على شخصيته العربية المسلمة المغربية .

وحينما تستعرض « دعوة الحق » مع قرائها اعمال هذه السنة التي انصرمت ، فانها ستخرج بنتيجة سارة ، ذلك انها استطاعت مواصلة هذه الرسالة ، وكانت تحاول في كل عدد جديد يصدر منها ادخال تحسينات اضافية سواء من ناحية المادة او من ناحية الانتاج ، وان الملمين بشؤون الصحافة ليعلمون حق العلم ما يتطلبه اخراج مجلة مثل « دعوة الحق » من جهد ووقت ومال ، غير ان الرسالة التي تضطلع بها — وهي رسالة سامية — تجعل كل صعب يهون، مستعينة على تذليل العقبات التي تعترضها بعطف صاحب الجلالة الملك المعظم وبمؤازرة رجال الفكر الباحثين في المشرق وفي المغرب الذين سادت فيما بينهم وبين ادارة المجلة روح التعاون الصادق ، وتستعين كذلك على اداء هذه الرسالة برسائل التشجيع والثناء التي ترد عليها من داخل المغرب ومن خارجه ، كما انها ، تحرص على تسجيل الحوادث المهمة التي تقع في المغرب لتحتفظ بها كوثائق لها صلة باحداث المغرب من تاريخه المعاصر ، وهي الى ذلك وباختصار ، تمثل صورة حية وعملا ايجابيا بناء في عهد الاستقلال ، ذلك لانها اصبحت تمثل اداة قوية لتعزيز شان اللغة العربية وتركيز سلطتها ونشر آدابها ، وتلك رسالة لا يستهان بها في هذا العهد الذي يتطلع فيه المغرب الى سيادة لغته باعتبارها من المقومات الاساسية التي سيبقى كيانه ناقصا بدون هذه السيادة التي نعتقد انها جزء لا يتجزأ من السيادة السياسية .

واذا كانت مجلة « دعوة الحق » ستحتجب عن قرائها في شهر غشت وشتمبر فانها ستجعل من هذه العطلة فترة لدراسة وسائل اخرى تزيدها شفوفا واعتبارا في الداخل وفي الخارج .

والله نسال ان يبارك في عمر صاحب الجلالة الملك المعظم الذي يرعى هذا المشروع ويسبغ عليه من رضاه ما يعزز جانبه ، كما نسأله ان يلهمنا في السنة المقبلة السداد والتوفيق ويهيا لنا من امرنا رشدا .

دعوة الحق

شكر واعتذار

نشكر جميع الكتاب الذين شاركوا في هذا العدد الممتاز من مجلة دعوة الحق لاول مرة كما تشكر المجلة اعلام الكتاب والادباء الذين صاروا عمدة المجلة واقوى واسطة بينها وبين قرائها في المشرق والمغرب وفي الوقت نفسه نعتذر للذين وافونا بابحاثهم وقصائدهم بعد ما مثلت المجلة للطبع حيث لم نتمكن من ادراجها في هذا العدد فالى العدد المقبل بحول الله .

دراسات إسلامية

للتجديد في الدين مفهوم شرعي محدود

للاستاذ عبد الله كنون

كثرت دعوى التجديد فى العصر الحديث كثرة لا مزيد عليها ، فمن تجديد فى الدين الى تجديد فى الادب الى تجديد فى اساليب الحياة وربما فى الحياة نفسها ، والذي يهمنا منها فى هذه المقالة هو التجديد فى الدين لانه بقدر ما كان ضرورة لازمة لتدعيم كيان الوطن الاسلامي وبعث روح الحفاظ فى نفوس المسلمين ، بقدر ما تشعبت فيه الانظار واختلفت المذاهب حتى اصبح الامر فوضى وكل يدعى وصلا بليلى ؛ وكانت النتيجة ان تحطم السد الذي طالما حال بين المسلمين وبين طغيان التيارات الاجنبية – من فكرية واجتماعية وسياسية – عليهم ، فصاروا يتخبطون فى مشاكلها ويجنون ثمارها المرة وهم لا يهتدون الى طريق النجاة سبيلا .

والتجديد فى سائر مطالب الحياة ان كان فلسفة تطورية لا معدى عنها لضمان بقاء الحضارة الانسانية وازدهارها فانه فى الدين فكرة اصيلة من جملة تعاليم الاسلام التي جاء بها الرسول الاعظم (ص)، وهي تستند الى الحديث الشريف الذي رواه ابو داود وغيره عن ابي هريرة مرفوعا : ان الله يبعث لهذه الامة على راس كل مائة سنة من يجدد لها امر دينها ، فهو بمنطوق الحديث ومفهومه خطة من صميم امر الدين بحيث لو لم تقتضها طبيعة الحياة لكان الوضع الذي بني عليه الاسلام كفيلا بتحقيقها ، ولعل الحديث ان يكون دعوة الى القيام بهذه المهمة وتكليفا لمن فيه اهلية من المسلمين بتجديد الدين كلما مضى جيل واتى جيل يكون بحاجة الى هذا التجديد .

وقد حدد الحديث وقت ظهور المجدد بما لا مجال للتاويل فيه وهو راس كل مائة سنة اي عند انقراض الراسخين فى العلم بالسنن والاحكام من اهل القرن السابق ، وافتقار اهل القرن اللاحق الى من يؤدي لهم الامانة وياخذ بيدهم حتى لا يزيغوا عن دينهم القويم ، ومع هذا التوقيت الواضح فقد قال العلماء بظهور المجدد فى كل وقت وءان ، وان اتفقوا على ان المجدد الاول هو عمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي العادل ، وكان على راس المائة الثانية كما لا يخفى ، فلبقاء الحديث على ظاهره ينبغي حمله على المجدد الاعظم الذي لا يمتنع ان ياتي بعده علماء عاملون ناسجون على منواله ، كل فى ناحيته وفى باب من ابواب العمل الديني المفتقر الى التجديد ، وذلك تطبيقا لقوله (ص) فيما رواه جماعة من الائمة انه (ص) قال : لاتزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى ياتي امر الله ، وارى ان لو اصطلح على تسمية هؤلاء المجددين الفرعيين بالمصلحين مثلا وعملهم بالاصلاح تمييزا لهم من المجددين وعملهم لكان اولى .

واذا كان هذا ما قيل فى وقت ظهور المجدد ، وقد بينه الحديث اتم بيان ، فلا جرم ان تختلف الاقوال فى معنى التجديد والمراد به ، وهو ما لم يتعرض له الحديث تصريحا ولا تلويحا اتكالا على ما يفهم منه بالوعي الفطري والحس السليم . واغرب الاقوال فى ذلك ما يزعم انه يعم اهل كل فن حتى النحو واللغة مع ان موضوع الحديث انما هو التجديد فى الدين فلا ينبغي ان يتجاوز به عنه ، وان كانت الاعمال بالنيات .

ومن الاقوال خلافهم فى المجدد هل يشترط ان يكون مجتهدا ام لا ؟ والمشهور انه لا يشترط فيه ذلك ولكن . لان وظيفة المجتهد اعظم من وظيفة المجدد كما يشعر به كلامهم ، وانما لان المجدد لا يهمه استنباط

الاحكام وتفريع المسائل بقدر ما يهمه المحافظة على احوال الدين وتقرير شرائعه ، وهذا بطبيعة الحال لا يمنعه ان يكون مجتهدا ، وعلى كل فالمجتهد مهمته فقهية اكثر منها اصلاحية بعكس المجدد ، وايضا فالمجتهد غير مقيد بوقت من الاوقات بخلاف المجدد الذي لا يظهر الا على راس القرن ، والمجتهدون كثيرون والمجددون قليلون ولو على القول بتعددهم وعدم توقيتهم ، فبان بهذا ان الاجتهاد الذي هو مهمة كل فقيه غير التجديد الذي هو اوسع دائرة وابلغ اثرا في احياء معالم الدرس ، وان كانا يتلاقيان احيانا .

ومن اجمع العبارات في التجديد قول العلقمي في شرح الجامع الصغير : انه احياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والامر بمقتضاهما ، وهذا يعني ان يكون المجدد من اولي الامر كعمر بن عبد العزيز ليتاتى له حمل الناس على اتباع طريق الشرع وامتثال الاوامر واجتناب النواهي ، على ان ذلك ليس بلازم فالمجدد وهو داعية ديني من الطراز الاول لابد ان يكون معه من وسائل الاقناع وطرق التبليغ ما يغني عن النفوذ والسلطة وكم من مذاهب سياسية واجتماعية انتشرت في العالم قديما وحديثا بفضل تجند اصحابها للتبشير بها والدعاية لها، لذلك فنحن نرى ان احسن ما يفسر به التجديد هو ما جاء في حديث النبي (ص) : يحدد مهمة علماء الدين الاولى التي تجعل منهم حراسا امناء على ميراثه وميراث النبيئين من قبله وهو قوله : يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتاويل الجاهلين ، فهذا في نظرنا هو عمل المجدد وهو مفهوم التجديد الذي تلتقي عنده انظار العلماء كافة وان اختلفوا في التعبير عنه ، وقد حصره الحديث في غايات ثلاث :

الاولى : رد النصوص التي يحرفها الغلاة من اهل البدع الى اصلها ، وفي ذلك رجوع بالدين الى سماحته ونضارته ونفي لما الصق به من بدع واهواء .

الثانية : ابطال الدعاوي الكاذبة وفضح اصحابها الذين يلبسون الحق بالباطل وينتحلون اغراض المصلحين الدينين ، والاصلاح والدين بريئان منهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وفي هذا تنزيه لدعوة الاسلام واظهار لها بالمظهر اللائق بها من السمو والكمال

الثالثة : دحض التاويلات الفاسدة التي يتخذها الجهال بحكمة التشريع ذريعة الى نقض احكام الشرع الحنيف كقول بعضهم ان الخمر انما تحرم في المناطق الحارة حيث نزل القرءان ، وقول اخرين في الربا الحرام انما هو الفاحش منه ، وكقولهم في تقنين الزنا انه محافظة على الصحة العامة وفي اباحة بيع المحرمات انها تنمية لاقتصاد البلاد الى غير ذلك مما دحضه متافخة عن شريعة الاسلام وضمان لبقائها نورا وهدى للنـــاس .

فهذه الغايات الثلاث كلها تتمثل في عمل المجدد الذي يراد ان يعود الدين على يده غضا طريا كما انزل ، وهي كما ترى تتلاقى وجميع اقوال العلماء في التجديد ، ولذلك كان هذا الحديث خير شرح لمعناه وتحديد لمفهومه ، على حد قولهم خير ما يفسر به القرءان : الوارد ، وبكل اعتبار اذا نحن امعنا النظر في مهمة المجدد نجدها ترجع الى معنى واحد هو المحافظة على جوهر الدين من ان يطرا عليه تغيير ، ذلك لانه وضع الهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود الى ما هو خير لهم بالذات ، فكل زيادة فيه او نقص منه ينافي ما وضع له فضلا عن اقتضائه نسبة الجهل الواضعة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

واذن فان من يبدل شرع الاسلام بغيره من القوانين احرى ان يعد في الملحدين من ان يعد في المجددين ، ومن يتبجح باسم التجديد وهو اكثر الناس تنكرا حتى لاسم الدين تشبها بالحكومات العلمانية هو ممن غره الشيطان والهوى ان لم يكن يستغفل الناس ويستجهلهم ، وقلت الحكومات العلمانية ولم اقل الامم او الشعوب لانه ليس في الامم ولا في الشعوب علماني ، وانما العلمانية فلسفة مادية تفرضها الحكومات الماسونية على البلاد المستسلمة .

ولعل قائلا يقول اليس المجدد الاول هو الذي قال : تحدث للناس اقضية بقدر ما احدثوا من الفجور؟ ونحن نجيب نعم ! ولكنه لم يقل تبدل احكام الشرع كلما استثقلها قوم . . وقد غبر المسلمون مدى عصور وهم لا ينفذون حد القطع في السارق ولا حد الرجم في الزاني المحصن بل ولا حد الجلد في شارب الخمر ، ولكنهم لم يلغوا هذه الحدود قانونيا البتة ، والى الامس القريب كان القضاة الشرعيون فيما كان يسمى بالمنطقة الخليفية يحكمون بهذه الحدود على مستوجبيها ثم يحيلون الحكم على السلطة التنفيذية التي تحتفظ به لمانع الوقت ، وهو على كل حال ! اما ما يعنيه عمر بن عبد العزيز بكلمته تلك وهو وجوب استنباط الاحكام الجارية على قواعد الشرع لما يحدث من اقضية لم تكن في الزمن السابق ، فهذا ما لا ينازع فيه احد وهو مهمة الفقهاء المجتهدين مطلقا او

المجتهدين فى مذهب من المذاهب المتبوعة ، واين منه اقتباس الاحكام من قوانين الحكومات العلمانية التي تعارض على خط مستقيم السياسة الشرعية فى الدين الاسلامي ؟

ان من اعظم الظلم ان تحكم امة بشرع امة اخرى ولو كانت من جنبها و فىمستواها الثقافي والحضاري وعلى نفس العقيدة والدين وفى اقليم جغرافي مماثل فكيف اذا اختلفنا فى كل هذه المقومات ؟ وذلك لان قوانين الحكم فى اية امة يجب ان تستمد من عناصر نفسيتها وتاريخها ودينها وحياتها الاقتصادية ومركزها الجغرافي وثقافتها العامة ، ومهما خولف ذلك فان الانسجام ينعدم بين الحاكم والمحكوم ويعم الظالم والظلام .. وهذا باستثناء القانون السماوي الذي يصلح قطعا لكل زمان ومكان ، فيا اسفي لمن يستبدله او يستبدل منه بالقوانين الوضعية الخاصة والموقوتة طبعا .

هذا وقد ذكرنا عمر بن عبد العزيز مرارا وهو الخليفة الاموي الذي وقع الاجماع على انه المجدد الاول وعد من الخلفاء الراشدين وقيل فيه ثالث العمرين ، وذلك لما احيى من سنة وامات من بدعة واظهر من عدل بعد عموم الجور ورد من اعتبار الى المثل الاسلامية والاخلاق الدينية حتى قال فيه كثير الشاعر :

وليت فلم تشتم عليا ولم تخف
بريا ولم تتبع مقالة مجرم

وقلت فصدقت الذي قلت بالذي
فعلت ، فاضحى راضيا كل مسلم

ودرج العلماء على ذكر المجددين بعده فقلما اتفقوا على واحد مثلما اتفقوا عليه ، ويهمنا ان نعرف المجدد فى عصرنا الحديث ، وهو فى نظرنا السيد جمال الدين الافغاني ، فان هذا الرجل الذي بعثه الله على راس المائة الحالية وجد الامة الاسلامية تغط فى نوم عميق والعدو قد احاط بها من كل جهة ، وقد ضؤلت امامه واستخذت فسيطر على مقدراتها وحكم عليها بالاضمحلال ، فكنت لا ترى الا قطرا اسلاميا اثر آخر يقع فريسة للاستعمار الاوربي ولا من يحرك ساكنا من ملايين المسلمين الاربع او الخمس مائة حتى صدق فيهم قول النبي (ص) يوشك ان تتداعى عليكم الامم تداعي الاكلة على القصعة . قيل امن قلة بنا يومئذ يا رسول الله ؟ قال : لا ، انتم كثير ولكن غثاء كغثاء السيل ، الحديث . فلما راى جمال الدين المسلمين على هذه الحالة صاح فيهم صيحته المدوية التي ايقظت النائم ونبهت الغافل ، ولم يكن له هم الا الاتصال بملوك الاسلام وامرائه وزعمائه فى مصر وتركيا والهند داعيا لهم الى الاتحاد ومجابهة الخطر الداهم بقوة الايمان ، وكا ن يرى ان صلاح احوال المسلمين بصلاح حال حكامهم ، ومن كلامه المشهور فى ذلك " لا يصلح الشرق الا مستبد عادل وهو بذلك يدعو الى نظام الحكم الاسلامي الذي يعتمد السلطة والعدل مع شورى اهل الحل والعقد ، منابذا آراء الساسة الاتراك الذين كانوا مشغوفين بالنظم الغربية وخاصة منها الديموقراطية فلما تمكنوا من اصطناعها طاحت بهم وبدولتهم وهي ما زالت تشيل بدول الشرق الاسلامي التي انخدعت ببريقها الموهوم الى اليوم .

ومات السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله وترك البلاد الاسلامية تضطرم بالثورة على الاستعمار ، وقد خلفه فى الاصلاح الديني خاصة تلميذه الشيخ محمد عبده وان كان قد مال الى التاويل فى بعض المسائل ففتح فرجة لم تسد بعد ، وخلف الشيخ محمد عبده السيد محمد رشيد رضا .

واما فى الاصلاح السياسي فقد كان السيد عبد الرحمن الكواكبي يسير على اثر جمال الدين وان لم تقو قوته ، وكان الامير شكيب ارسلان خير خليفة له فى النهضة السياسية والتجول فى الاقطار ودعوة المسلمين الى التكتل وتوحيد الجهود لاسترجاع مجدهم الغابر .

وما دمنا نذكر العاملين فى حقل التجديد بعد المجدد الاعظم السيد جمال الدين كما فعل العلماء فى الكلام على المجددين الفرعيين فى القرون السابقة فلا ننس جنديا من جنود الدفاع عن الفكرة الدينية بعامة والدعوة الاسلامية بخاصة وهو الاستاذ محمد فريد وجدي الذي اهله ايمانه وتفهمه للثقافة الاسلامية لرئاسة تحرير مجلة الازهر ، وان كتابه الاسلام دين عام خالد ليعد من اهم الكتب التي وضعت فى العصر الحديث للتعريف بالاسلام وتمجيد رسالته السامية فضلا عن كتبه الاخرى كالاسلام فى عصر العلم ، والمراة المسلمة الذي صحح به اغلاط قاسم امين وغير هذه .

ولم نذكر احدا من مصلحي المغرب لقصور عملهم على بلادهم بخلاف هؤلاء فان تاثيرهم عم البلاد الاسلامية جمعاء ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .



كانت مجلة دعوة الحق قد نشرت في بعض اعدادها الصادرة موضوع توحيد الصوم والافطار في رمضان وتعميم الحكم فيه بين سائر الاقطار الاسلامية ، وهو موضوع عظيم يسترعي الانتباه ويستلفت انظار العالم الاسلامي باسره لانه يدخل في صميم عقيدته وحياته .

وكان من الاجدر ان تجري مناقشة في مؤتمر اسلامي عام للخروج بنتيجة حاسمة للخلافات المعروفة ، والاقوال الموروثة ، ثم توصية الحكومات المسلمة بالعمل على تحقيق الفكرة ، وتوثيق العروة بين امم الاسلام قاطبة .

وذلك بحول الله وقوته ما يضمن نجاح جميع القضايا التي تهم المسلمين في حياتهم . وقد يؤدي التوحيد في المظاهر الدينية الى التوحيد في مظاهر التشريع ــ والاقتصاد ــ والسياسة ــ وهو ما يتمناه كل مسلم خالص .

وبذلك تتحقق الوحدة الكاملة فتتأكد العلاقات الموجودة وتزداد العناية بمشاكل الاسلام .

ولئن كان المسلمون يعيشون من وراء البحار فانه من الواجب ان يركزوا قوتهم فيما بينهم بتوحيد اسباب دينهم ودنياهم ولا تحول بينهم الحدود لانهم امة واحدة بشهادة قول الله تبارك وتعالى : « وان هذه امتكم امة واحدة » .

وهناك ما يدعم هذا المعنى من مادة الاسلام ــ وقوة العلم ــ وحكم الواقع ــ اذ نحن في عالم تقارب بعضه من بعض بفضل الوسائل الحديثة ، وتطور في العلوم والصناعات الى ابعد حدود التطور ، وتوحد في اسباب عسكرية ، ومصالح اقتصادية ، وسياسية ، وسخر لذلك جميع امكانياته الادبية والمادية وربما يرتبط غدا في ابحاث قضائية فكيف بالذين تربطهم عقيدة الوحدة وتشملهم طبيعة الدين ، والذين لم يكن توزيعهم بالكرة الارضية توزيعا دينيا وانما كان توزيعا سياسيا .

وان خير ما يؤلف بين اسرة الاسلام ، ويجمعها في صعيد واحد ، ويجعلها في مأمن من الشر لهو الاعتصام بكتاب الله الذي يمنحها قوة هائلة في الحياة والانتاج ، ويمنعها ان تتفرق في دينها ، وتتنازع في امرها ، والاجتماع حول سياسته التي ترسم صراط الحياة المستقيم ، وتهدي من آمن الى سبيل السلام .

وان الغاية التي يتوخاها الوحي في توجيهات النفس وتشريعات العمل لا تتحقق الا بوحدة الصف واحكام الوسائل التي تكفل الوصول الى امتزاج العناصر الاسلامية بعضها ببعض .

ولا يكون ذلك الا بانتظام سياستهم ، والتجاوب مع مشاكلهم ، والرجوع الى الكتاب والسنة في منازعاتهم فذلك هو المنبع الصافي والمشرع الكافي وتلك هي حجة الله على عباده ، وهداية الله بين خلقه .

ولكن المسلمين ما زالوا يتباعدون بآرائهم ، ويتعصبون لمذاهبهم ، والاختلاف في الراي والتعصب للمذهب شيء مقبول اذا كان لا يفضي الى استحكام الهوى ، واستبداد الراي ، والوقوع في اللدد والشغب

وقد تخطىء بعض الآراء فيما يجب اعتماده من النصوص وفيما يعتبر لها من صفات واحكام ، وقد تغفل عن مغزى اخوة الدين ، ووحدة الاسلام ، وضرورة التعاون ، وقد تتشبث بما كان في ظروف خاصة وتتجاهل ما آل اليه الامر من جديد .

وعلى ضوء ما اشرنا اليه من الحقائق ، وما احدثه العلم من تسهيلات فى المواصلات والاخبار التي جعلت العالم يتصل بعضه ببعض ، وما نراه فى العالم الاسلامي من حركة نحو التوحيد والتضامن ـ نعالج المسألة ونوضح ان الاهلة جعلها الله مواقيت للدين والدنيا . كما قال سبحانه « يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج » .

والهلال واحد لا يتعدد بتعدد البلاد ـ والشهر ما كان بين هلالين ـ والمسلمون عدول بعضهم بعضا فى كل بلد ـ والله يامرهم بالتعاون على البر والتقوى ـ ومن البر والتقوى الصوم فى اول رمضان والفطر فى آخره ونبي المسلمين قد اناط الصوم بالرؤية المطلقة ـ وخطاب الشريعة شامل لكافة الامة الاسلامية ـ ورؤية البعض كافية بمستند الاجماع .

فمتى ثبتت رؤية الهلال بقطر من الاقطار المسلمة وجب الصوم على سائر الاقطار الاخرى اذا بلغها ذلك من طريق موجب للصوم بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته ، وبعموم قوله صلى الله عليه وسلم الصوم يوم يصوم الناس والفطر يوم يفطر الناس .

وفى ذلك تحقيق للوحدة المطلوبة واعتبار بالنصوص الواردة من دون اقامة وزن للاحتمالات البعيدة . واما اختلاف المطالع التابع لطبيعة الكرة الارضية والناتج عن نظام دورتها فى الآفاق فلا يحول بين المسلمين ان يتوحدوا مبدئيا فى الصوم والافطار وان فرقت بينهم ساعات معدودة . وان كان لكل بلد أوقات مخصوصة .

فاذا جاءنا ثبوت الهلال من اي بلد من البلدان بواسطة الهاتف او برسالة التلغراف وجاء وقت ظهور الهلال فى افقنا فان رأيناه فذلك وان لم نره لسبب من الاسباب فلا يمنع ذلك دخول الشهر ولزوم حكمه لنا لانه ثابت برؤية شرعية ولازم لسائر المسلمين كلزوم احكام اليوم لسائر اهل الارض من حلول الدين ، ووقوع الطلاق ، ووجوب النذر ، وغير ذلك .

ولا يستغنى عن الرؤية بالارصاد الفلكية ولا بتقدير منازل الشمس والقمر لانه خروج عن حكم الشريعة المعلق بامر ظاهر وذهاب الى حكم خفي دقيق يتعارفه بعض الناس وهو شيء اعفانا منه الشارع لصعوبة الطريق اليه ولاختلافه بين اهله .

فاختلاف المواقع والمطالع لا اثر له كبير فيما يرجع الى ثبوت الاهلة وان كان له اثر فيما يرجع الى المواقيت الخاصة بكل بلد فبعد الاتفاق على اول رمضان يكون فطر كل بلد بغروبها وصومها بطلوع فجرها ولذلك فالتفاوت لا يمنع من فكرة توحيد مبدا الصيام والاعياد اعتمادا على الرؤية اذا بلغت من وجه صحيح .

وحديث كريب عن ابن عباس رضي الله عنهما هكذا امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مراده بالامر ـ صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته ـ وقد فهمه عبد الله بن عباس على اعتبار الرؤية لكل بلد وهو راي مجتهد ومذهب صحابي فلا يلزمنا وانما يلزمنا ان ناخذ بما رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم .

واذا قال اهل الهيئة ان حالة البلاد الشرقية تختلف عن حالة البلاد الغربية فاننا نقول ان ذلك لا ينافي فكرة الاخذ بالتوحيد ابتداء ، ولذلك ذهب الى تعميم الرؤية من دون فرق بين القريب والبعيد كثير من قادة الفكر واصحاب المذاهب المدونة فى الاسلام .

وغاية الامر ان بعض ساعات الليلة الجديدة ستكون من تمام الشهر القديم عند الشرقيين ومن الشهر الجديد عند الغربيين وما وراء ذلك فانه من الشهر الجديد عندهم جميعا

فاذا تبين فجر اليوم الموالي للرؤية صامه كل قطر اشترك مع قطر الرؤية فى جزء من اجزاء الليلة الجديدة بادراك ما قبل طلوع الفجر .

اما الاقطار النائية التي لا تشارك قطر الرؤية فى اجزاء الليلة الجديدة فانهم سيكونون فى نهار من شعبان وعليهم ان يصوموا النهار التالي وان غامت سماؤهم وتحيرت ابصارهم .

وبعد

فاذا اعتصم المسلمون بوحدة الاسلام الكبرى وعنوا بهذه الدعوة عناية فائقة وتحروا كلهم رؤية الهلال اثر غروب التاسع والعشرين كما هو الواجب اذ مراقبة الهلال ليلة توقعه فرض على كل مكلف قادر لانها وسيلة للصيام والوسائل لها حكم المقاصد ، فاذا اعتصموا بالتوحيد وتعهدت حكوماتهم بالسهر عليه فانه لا تفوتهم الرؤية وبذلك يقضون على خلافاتهم ويقطعون السنة خصومهم ، معتمدين على قول الله تعالى « **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** » واول مراتب الشهادة العلم كما فى قوله تعالى « **شهد الله انه لا اله الا**

هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط »
فشهود الشهر معناه العلم به بمعنى ان كل من علم الشهر برؤية نفسه او برؤية غيره في مصره او في غير مصره وجب عليه الصوم الا من كان مريضا او مسافرا وعلى قوله صلى الله عليه وسلم صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته ، وهو عام في كل مخاطب وعمومه اظهر من غيره .

قال ابو بكر الرازي فان قيل قوله صلى الله عليه وسلم صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته يوجب اعتبار رؤية كل قوم في بلدهم دون اعتبار رؤية غيرهم في سائر البلدان ، ويدل على ذلك اتفاق الجميع على ان على اهل كل بلد ان يصوموا لرؤيتهم وان يفطروا لرؤيتهم وليس عليهم انتظار رؤية غيرهم فثبت ان كلا منهم مخاطب برؤية اهل بلده دون غيرهم ، قيل له معلوم ان قوله صلى الله عليه وسلم صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته عام في سائر اهل الآفاق وانه غير مخصوص باهل بلد دون غيرهم .

واذا كان كذلك فمن حيث وجب اعتبار رؤية اهل بلد في الصوم والافطار وجب اعتبار رؤية غيرهم ايضا .

واما الاحتجاج باتفاق الجميع على ان على اهل كل بلد اعتبار رؤيتهم دون انتظار رؤية غيرهم فانما ذلك عندنا بشرط ان لا تكون رؤية غيرهم مخالفة لرؤيتهم في حكم العدد فكلفوا في الحال ما امكنهم اعتباره ولم يكلفوا ما لا سبيل لهم الى معرفته في ذلك الوقت فمتى يتبين لهم غيره عملوا عليه كما لو حال بينهم وبين منظره سحاب او ضباب وشهد قوم من غيرهم انهم قد راوه قبل ذلك لزمهم العمل على ما اخبرهم به دون ما كان عندهم من الحكم بعدم الرؤية انتهى .

واذا رجعنا الى مذاهب الفقهاء المأثورة وجدنا ان الحنفية والحنابلة وجمهورا من المالكية وطائفة من الشافعية يعممون هذا الحكم في سائر اهل الارض ويجعلون رؤية الهلال في اي بلد من بلاد الاسلام سببا لوجوب الصوم على الجميع .

قال الامام النووي في شرح المهذب نقل ابن المنذر عن عكرمة والقاسم وسالم واسحاق بن راهوية انه لا يلزم غير بلد اهل الرؤية ، وعن الليث والشافعي واحمد يلزم الجميع قال ولا اعلمه الا قول المدني والكوفي يعني مالكا وابا حنيفة .

وهذا كان قبل ان تتقدم وسائل النقل وتتوافر في العالم واما الآن فان البلاد اصبحت في حكم البلد الواحد فلا مشقة اصلا في الحصول على الاخبار والتقاطها وقد قال عبد المالك بن الماجشون ان البلاد اذا كانت بامام واحد فهي كالبلد الواحد تعم فيها الرؤية .

فالتوحيد اقوى نظرا واوضح سبيلا وانفى للتفاقم بين المسلمين في اوقات الصيام والاعياد وفي ليلة القدر وفي يوم عرفة

وعلى ذلك فاذا كان الناس في آخر شعبان فيما يظنون فجاءهم الخبر الثابت ان اليوم من رمضان وجب عليهم الامساك عن جميع ما يمسك عنه الصائم سواء كانوا اكلوا او لم ياكلوا لانه انما جاز لهم الفطر وهم يظنون ان ذلك اليوم من غير رمضان .

فاذا علموا انه من رمضان كان عليهم الامساك

واذا كانوا في آخر رمضان فيما يظنون ففاجاهم خبر صحيح انه يوم الفطر لزمهم الافطار ساعة وصول الخبر بذلك كانوا في اول النهار او في آخره .

واما قياس الصوم على الصلاة فغير واضح اذ الصلاة تجب بمجرد دخول الوقت والصوم انما يجب بعد زمن واسع من وقت الرؤية ، وايضا المكلف مخير في اداء الصلاة في اول الوقت او في وسطه او في آخره بخلاف وقت الصوم فانه بمقدار العمل من طلوع الفجر الى غروب الشمس . والله ولي الهداية والتوفيق .

دواء الشاكين وقامع المشككين

- 7 -

للدكتور تقي الدين الهلالي



ما هو اصل الانسان ؟

تحت هذه الترجمة عقد المؤلف فصلا اورد فيه آراء علماء هذا الشان ، وهي متناقضة متضاربة ، سأترجمها كما هي وانا بريء من عهدتها ، والاطلاع عليها مفيد ، يدلنا على ان ما يتبجح به المقلدون للاجانب من انهم علموا حقيقة اصل الانسان وانه متطور عن القرد وقد وجدوا جميع الحلقات والاطوار الا حلقة واحدة هي الاخيرة التي تفصل بين القرد والانسان ، وبعضهم يزعم ان هذه الحلقة المفقودة وجدت في امريكا ، فتم لهم ما يريدون من الاتصال بنسب القردة ، كل ذلك مبني على شفا جرف هار ، قال المؤلف هناك طرق عديدة للنظر في اصل الانسان ، وان امتحان هذه الطرق سيسبب اضطرابا عند كثير من الذين اعتقدوا آراء ثابتة في هذه القضية ، فالراي الاول ان الانسان ارتقى الى ما هو عليه بعد ان مر بسلسلة من التطور والنشوء عن الذرة الاصلية التي هي اصل الحياة ، وعلى هذا الاصل تنبني نظرية النشوء باسرها ، والراي الثاني هو ان الله سبحانه خلق الحياة على وجه الارض بحكمته ثم خلق الانسان على ما هو — اي الانسان — عليه في الكمال .

الراي الثالث هو ان العناية الربانية اوجدت الحياة بجميع اطوارها بسلسلة من الخلق . الراي الرابع ان الحياة التي وصلت في نهاية تطورها الى الانسان كانت نتيجة على سبيل المصادفة لمزيج من المواد الكيميائية مع الماء ، ويمكن ان يقال ان الله خلق الانسان من عناصر الارض الاصلية ، ثم وهبه الحياة وتدرج حتى بلغ في نهاية تطوره الى ان اعطى دماغا يفكر به ، فصار بذلك سيدا حاكما على جميع الاشياء المتصفة بالحياة وعلى كثير من انواع الجماد ، واي ذلك كان ، نرى من الواضح ان الانسان لايمكن ان يكون قد حصل على كمال انسانيته منذ ابتداء الحياة ، ولكنه تطور حتى بلغ الى درجة الكمال في نهاية تطوره ، ولم يظهر الانسان حتى كانت جميع الاشياء المتصفة بالحياة غير صالحة ان يوجد فيها نظام ميكانكي في غاية التعقيد كالدماغ البشري ، واذا قدرنا ان الانسان قد وجد في اول ظهور الحياة يمكن ان يكون قد مضى على وجوده 400 مليون سنة او اكثر من ذلك بكثير ، واذا قبلنا النظرية الثانية وهي ان الانسان وجد نتيجة للمشيئة الالهية ، فاننا لا نستطيع ان نقدر الزمان الذي مضى على وجوده ، وعلى النظرية الثالثة لابد ان يكون قد مر على وجوده كثير من ملايين السنين ، وحسب استقراء العلماء وتتبعهم لتاريخ الانسان لا يمكن ان يقل زمن وجوده عن مليون من السنين ، اما قبل ذلك فان تطور الانسان الى ان وصل الى حاله الحاضر بقطع النظر عن نوع الحيوان الذي تطور منه بلغ في القدم الى حد يعجز العقل البشري عن تقديره .

نقف هنا وقفة قصيرة للتامل في هذه الآراء والتخمينات التي تبدو عليها الحيرة والعجز والجهل ، وقد ذابت امام النقد العلمي كل التبجحات التي يتشبع بها اذناب المستعمرين ومقلدوهم بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ورجع العلم بحقيقة خلق الانسان وزمان خلقه الى خالقه الحكيم العليم .

ثم نعود الى كلام المؤلف قال عقب ما تقدم ان في المتحف الامريكي للتاريخ الطبيعي في نيويورك فرسا يرجع الى زمن قديم له ثلاث اصابع صغير الجسم ، يرى العلماء انه كان سريع الجري بلا شك وهو فرس

يقينا لكن تطوره الى ان بلغ الى شكل الفرس الجميل الذي نراه في الوقت الحاضر يركض على ما نسميه حوافر نشأ عن ذلك الفرس القديم ذي الاصابع الثلاث واستغرق تطوره ملايين من السنين .

ولنتخذ تطور الحصان دليلا نقيس به الوقت الذي استغرقه تطور الانسان حتى صارت له يدان وعينان ودماغ مفكر فصار خلقا سويا ثم ارتقى الى حاله التي هو عليها ، ثم نعود فنقيس التقلبات التي مر بها هذا المخلوق الصغير الاعزل من كل سلاح يدافع به عن نفسه ، فهو وان كان قادرا على التنقل والحركة عرضة للخطر الآتي من كل حيوان مفترس ومن كل حيوان زاحف سام كالثعابين والحيات والعقارب ، كما هو عرضة لمصادمة الاجسام الصلبة والحادة التي تحدث له الجروح والامراض ، ومع ذلك عليه ان يحافظ على صغاره العاجزين زمانا طويلا ، هو زمان طفولتهم وعجزهم ، وذلك ان صغار الانسان يولدون عاجزين ويأتون متتابعين ، وبذلك يكون على الوالدين واجب العناية بعدة اطفال في وقت واحد ، يحتاجون الى الاهتمام الدائم بغذائهم وحمايتهم ، وبذلك يتضاعف العجب من بقاء الانسان على تعاقب الازمنة ، فانه عاش في عصور مختلفة متقلبة احوالها كالعصر الجليدي وغيره من الاطوار والاحوال التي كانت حياة الانسان فيها معرضة للاخطار لا واقي لها ولا ملجأ الا لطف الله ، وهذا صحيح بلا ريب بالنسبة الى سائر الحيوان وهو من عجائب العناية الربانية ان الحيوان امكن بقاؤه بعد ان مر بتلك الاحوال والاهوال ، ومن جهة أخرى يرى علماء الحيوان ان انواعا منه لا تعد ولا تحصى قد انقرضت وخلفها غيرها ولكن بقيت آثارها شاهدة على وجودها فيما مضى :

تلك آثارنا تدل علينا
فانظروا بعدنا الى الآثار

ومن شواهد تلك الانواع عظام الحيوان المعروف بالدينصور التي استدل بها علماء طبقات الارض على ان انواعا من الحيوان مضت وانقضت ولم يقدر لها البقاء فاختفى عليها الدهر ولم يبق لها ذكر الا في كتب علم طبقات الارض ، وكذلك كان مصير ملايين من انواع الحشرات والحيتان والطير وكثير من الانواع الاخرى . وقد كان في الزمان الماضي نوع من الحمام يسمى بالحمام المسافر ، ويرجح انه كان اكثر عددا من البشر ، لكنه انقرض واصبح كامس الدابر ، وكذلك الطائر المسمى بالبطريق الذي كان يعيش في بحر الشمال ونوع الحمام المعروف بالدودو .

ان علماء الآثار عند بحثهم في تطور الانسان استدلوا بقوة الدماغ الذي اودع في جمجمته على تفوقه وقالوا ان هذا الدماغ هو مفتاح سر تقدمه ، ولم تزل اجناس البشر يفضل بعضها بعضا فيبقى الفاضل وينقرض المفضول ، ويظهر ان الجنس الابيض في الوقت الحاضر هو الذي يتربع على القمة ، فهل يجيء الزمان بالنوع الفاضل المتفوق على انسان هذا الزمان (سوبرمان) ثم يتناسل ويتغلب على انسان هذا الزمان حتى ينقرض من على وجه الارض ويخلفه فيها ذلك الانسان الفاضل ؟ قد لوحظ ان في جماجم الاطفال غضروفا يفرق بينها ، وبذلك يتاح للدماغ ان يزداد نموا ، ويمكن ان يستمر ذلك في زمان شبابهم ، ان الانسان في حاجة الى مثل هذه القوة ، ولكن ان حدث ذلك فستصير ادمغة البشر صلبة قبل الاوان بقليل ، ويحسن بنا ان لا نسد عقولنا عن ادراك الحقيقة متى ظهرت .

تعليقـــات :

1 — غاية ما وجده المصنف ومن قبله من علماء هذا الشان حصان قديم له ثلاث اصابع في يديه بدل الحافر فاستدل بذلك على تطور انواع الحيوان ونشوءها وارتقائها وبقاء الافضل وانقراض غيره وقاس الانسان على ذلك الفرس ، وان لم يوجد هيكل عظمي للانسان له حافر بدل الاصابع ، والذي يخيل الي انه كان ينبغي ان يكون الامر بالعكس ، لان اليد ذات الاصابع الثلاث افضل من اليد ذات الحافر ، الا ان يقال ان احوال المعيشة بالنسبة الى الخيل في الزمان السحيق كانت تحوجها الى وجود الاصابع لتتناول بها ما تحتاج اليه من غذاء وغيره بخلاف الخيل في هذا الزمان فانها ترعى الكلأ بافواهها او تعلق برؤسها المخالي مملوءة بالشعير النظيف ان كانت من الجياد المطهمة التي كان يركبها الملوك والامراء وذوو الجد والثرى قبل ان توجد السيارات ، او كانت معدة للسباق من خيل الرهان التي يتفرج على سباقها الجماهير ويقامر عليها المقامرون ، واذا كان الحصان قد تطور من اليد ذات الاصابع الى الحافر الاصم فمم تطور الانسان ؟ ايكون قد تطور بالعكس من الحافر الى اليد ؟ ما احوجنا الى معرفة الجواب ؟ ولكن الجواب عن هذا السؤال ليس من الهنات الهينات تنقطع دونه لا اعناق الابل فقط بل اعناق الصواريخ والاقمار الطائرات فسبحان الذي لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء وهو الخلاق العليم .

2 ـ ذكر المصنف فى تقدير الزمان الذي مر على تطور الانسان ثلاثة آراء احدها اربعمائة مليون سنة ، وثانيها مليون سنة على الاقل ، وثالثها لا ادري والله اعلم بالصواب .

3 ـ ما هو الجنس الابيض انا لا أعرف معنى هذا اللفظ ، ولعله من الاسرار التي لا يحيط بها علما الا الاوربيون فى امريكا والاوربيون فى اوربا والذين حازوا قصب السبق فى معرفة هذا المعنى هم المستعمرون من هولانديين وبريطانيين مستوطنين فى جنوب افريقية ، يضربون ويحبسون ويقتلون اهل البلاد المالكين لها ملكا شرعيا من قبل ان يعرف التاريخ . وقد تذكرت الآن حكاية اتحف بها القراء تتعلق بهذا المعنى ، كنت جالسا اشتغل مع الاستاذ الدكتور (باول كالي) فى مكتبه بترجمة كتاب البلدان فى الجغرافية العالمية تاليف محمد ابن الفقيه البغدادي المتوفى فى اواخر القرن الثالث الهجري كان ذلك فى المعهد الشرقي فى جامعة بون سنة 1937 فجاءته امراة المانية وقالت له انها عثرت فى جامعة بو آمنة من مدينة فاس على تاريخ للقوط الذين غزوا اسبانية والمغرب مكتوبا على رق غزال وما منعها من اقتنائه الا قلة المال، ثم قالت له انهذا التاريخ لم تقع عليه عين شخص ابيض قبلها ، فان كانت الجامعة مستعدة ان تزودها بنفقات السفر فانها متاهبة لتسافر مرة اخرى الى فاس وتشتري ذلك الكتاب على نفقة الجامعة ، فقال لها ان هذا الرجل ، ـ واشار الي ـ مغربي ، وهو يعرف فاس ، فاخبرتني باللغة الانكليزية بما اخبرته به باللغة الالمانية ، ولم اكن اعرفها اذ ذاك ، فقلت لها لا توجد فى فاس جامعة بهذا الاسم ، فهل تعنين المدرسة العنانية ؟ فقالت نعم فقلت للاستاذ كالي لا حاجة الى سفر هذه المراة ، يمكننا ان نعلم الخبر اليقين بالمكاتبة ، فكتبت الى الامير شكيب رحمه الله وكتب هو الى احد اصدقائه بفاس فاخبره ان لا وجود لمثل هذا الكتاب ، وقلت للاستاذ كالي ان هذه المراة محتالة كاذبة بدليل قولها لم تقع عليه عين شخص ابيض قبلها ، مع ان اهل فاس الاصليين كلهم بيض ، فقال لي انما هو اصطلاح يجري على السنة الاوربيين ، وانما قال ذلك تلطفا لقطع النزاع ، والا فانه كان يعتقد هو ايضا ان اهل المغرب لا يوجد فيهم شخص ابيض ، ثم جاء محمد بن عبد الجليل الفاسي المتنصر من باريس الى بون فاخذته الى الاستاذ كالي واخبره انه مغربي من مدينة فاس ، فلما راى عليه ثياب الرهبان وقد سمى نفسه يوحنا ظن انه فرنسي استوطن فاسا ، فلم اقدر على اقناعه ، ثم عزم الاستاذ الدكتور كرن على زيارة المغرب ليدرس فن البناء المغربي وطلب مني توصية الى صديق يرشده فى المغرب ، فكتبت له توصية الى الاستاذ السيد احمد سكيرج فقام بارشاده خير قيام وكان رحمه الله من اهل المروءة والشهامة ، فلما رجع الاستاذ كرن الى بون ، قلت للاستاذ كالي اساله عن لون اهل المغرب وخصوصا اهل فاس ، فساله وقص عليه قصة المراة فضحك وقال ذلك حديث خرافة ، ليس فى فاس ولا فى المغرب اعني سكانه الاصليين سواد ، ثم قال الاستاذ كرن : وازيدك على ذلك اني كنت الفت كتابا فى خصائص الجنس الشمالي فى اوربا ، وما كنت اظن اني اجد فى المغرب شخصا واحدا تنطبق عليه تلك الخصائص ، فلما وصلت الى المغرب وجدت خلقا كثيرا من الناس لا يختلفون فى جماجمهم وسائر ملامحهم عن سكان شمالي اوربا ، وقد عزمت ان آخذ اجازة اخرى من الجامعة فاسافر الى المغرب لادرس الاجسام البشرية المطابقة لاجسام اهل الشمال تكملة لذلك الكتاب .

ولا ينبغي ان يظن ظان ان ذلك الجهد الذي بذلته فى اقناع الاستاذ كالي ان اهل المغرب بيض الالوان او سمر اعتقادا مني ان اللون الابيض او الاسمر افضل من الاسود . معاذ الله ! قد ضللت اذا وما انا من المهتدين . وانما اردت ان اثبت له ان اهل اوربة يجهلون كل شيء من احوال اهل افريقية مع انها اقرب القارات الى بلادهم فان الذي وقف على سطح من بيوت طنجة يرى مدينة طريفة وقلعة جبل طارق بوضوح ، وهما من القارة الاوربية ، ولو كان هذا الجهل خاصا بعامتهم لهان الامر، ولكنه عام حتى فى اساتذة الجامعة .

ثم نقول ما معنى الجنس الابيض ؟ وما هي الطوائف من البشر التي ينطبق عليها انها من الجنس الابيض ؟ وما هي علامتها التي تميزها عن غيرها ؟ اهي لون ؟ اهي ذكاء ؟ اهي علم ؟ اهي اخلاق ؟ نرجيء جواب هذه الاسئلة الى الجزء التالي لان هذا المقال قد بلغ حده، فموعدنا الجزء التالي ان شاء الله .

الاجتهاد والتقليد

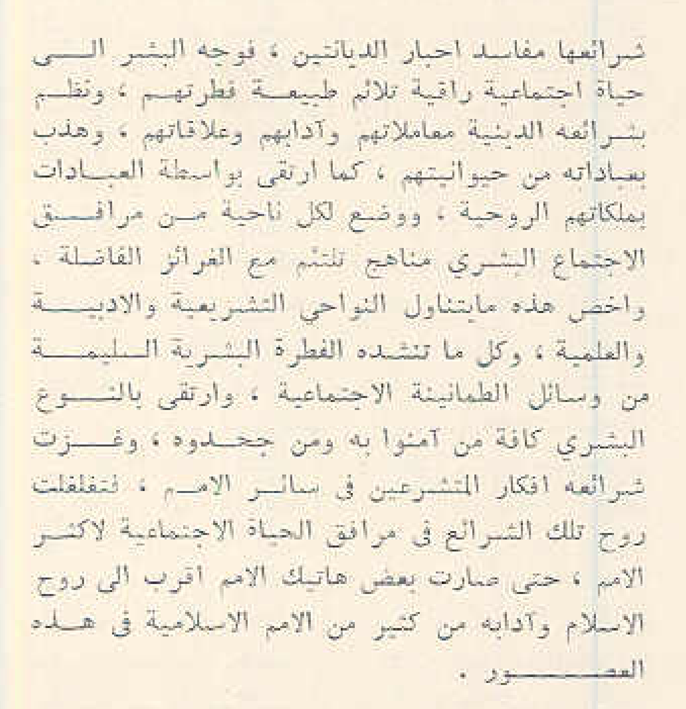
للاستاذ : راغب العثماني
من فلسطين



لو اننا امعنا النظر فيما نصت عليه مبادىء الاسلام فى الاجتهاد والتقليد لراينا ان الاسلام اعلن استقلال الفكر والحرية والراي بشرط ان لايخرج كل منهما عن دائرته المشروعة ـ اذ كل ما زاد على حده انعكس الى ضده ـ وهذا المبدا احترم العقل وقرر اعتباره والرضوخ لاحكامه الصحيحة ـ كما دعا الى استقلال الفهم وحرية الراي بعد احكام النظر ، واعمال الروية ، واجادة التفكير ، ونفاذ البصيرة ، مع البعد عن الطيش والهوى ، وسلطان الوهم ، والانقياد الاعمى لحكم الهوى والخيال .



جاء الاسلام والفطرة البشرية لا منظم لها ولا مهذب لنزعاتها : اذ ان الرسالات السابقة على رسالة سيدنا محمد (ص) قد ضاعت نصوصها الصحيحة ، ودخل عليها ما ليس منها بفعل الاحبار والرهبان مما كان مدعاة الى سيادة مذهب التسليم وسيطرة رجال الدين على نفوس البشر ، فلم تكن المسيحية ولا اليهودية فى الارض الا مذاهب مستضعفة تضطهدها الوثنية العربية واليونانية والرومانية والفارسية ، وتمحق



شرائعها مفاسد احبار الديانتين ، فوجه البشر الى حياة اجتماعية راقية تلائم طبيعة فطرتهم ، ونظم بشرائعه الدينية معاملاتهم وآدابهم وعلاقاتهم ، وهذب بعباداته من حيوانيتهم ، كما ارتقى بواسطة العبادات بملكاتهم الروحية ، ووضع لكل ناحية من مرافق الاجتماع البشري مناهج تلتئم مع الغرائز الفاضلة ، واخص هذه مايتناول النواحي التشريعية والادبية والعلمية ، وكل ما تنشده الفطرة البشرية السليمة من وسائل الطمانينة الاجتماعية ، وارتقى بالنوع البشري كافة من آمنوا به ومن جحدوه ، وغزت شرائعه افكار المتشرعين فى سائر الامم ، لتغلغلت روح تلك الشرائع فى مرافق الحياة الاجتماعية لاكثر الامم ، حتى صارت بعض هاتيك الامم اقرب الى روح الاسلام وآدابه من كثير من الامم الاسلامية فى هذه العصور .

ولم تكن غاية الاسلام من ترقية الملكات الروحية غاية تعبدية فحسب : وانما هي اجدى من هذا : انها غاية انشاء مجتمع فاضل اركانه الاساسية هي الالفة والمحبة والايثار والبر والتقوى ، ولن تجد بدا من كمالات اخلاقية تحصل بغير هذه المبادىء المثالية ، ومتى قامت هذه الاخلاق الروحية ابتنى عليها كمال الخلق الاجتماعي ، ومتى تحقق هذا الكمال قامت المعاملات والعلاقات والآداب والحياة الاقتصادية على نهج كفيل باسعاد الذين يعيشون فى ظله .

واضاف الاسلام الى هذه العوامل عاملا اكبر . هو : وحدة التعاليم والقوانين ، فشرع من الاحكام

ما لا يمكن ان يعيش المجتمع فى ظل المدنية الواعية الا باتباعها والتزام العمل بها ، فهي قوام سعادته ، وهي الكفيلة باجتلاب المصالح له ودرء المفاسد عنه .

وشرع احكام الرخص دفعا للحرج والمشقة فى حالات الضرورة عملا بقوله تعالى « **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** » وقوله « **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** » .

وهذا النوع من الاحكام من باب التشريع الاستثنائي الذي لايسوغ التوسع فيه .

وليس فى تعاليم الاسلام ما يشق ويرهق ، وفيها من المقاصد والمبادىء والمقومات ما يرقى بالنوع الانساني الى ذروة الكمال ، حيث افسح له المجال فى التفكير والحريات الطبيعية ، والعلاقات بين الافراد والجماعات فى النطاق الذي تتحقق فيه الفائدة ، ويندريء معه الضرر والعدوان .

وحارب الاسلام الشهوات الباغية ، والعادات الذميمة التي يأباها الخلق والفضيلة والمصلحة الظاهرة .

وحقق الاسلام لبني الانسان الحرية فى مختلف صورها وتباين الوانها ، وعنى بتكوين الجماعة ورعايتها والعمل على كل ما يكفل لها الترابط القوي والمحبة الاكيدة والمودة الصادقة والالفة الحميدة لتستطيع الاحساس بالسعادة والادراك لمعنى الحياة الصحيحة . فالفرد فى نظره وحدة تتكرر فى الجماعة ، او بعبارة اخرى لايهتم بامره ولا يوص بشانه ، ولا يشغل بتربيته وتهذيبه الا ليكون لبنة صالحة فى بناء المجتمع المثالي المنشود ، ولهذا جرى القرآن الكريم فى خطابه له واجرائه للحديث معه ان يناديه بكلمة انسان ليفهمه انه لايقدره الا بهذا العنوان ، ولا يعتبره الا بتلك الصفة

والانسان كما يؤذن الاشتقاق ينتسب الى الانسانية ويمت لها باقدم الصلات ، فهو ان لم يكن هذا فى معاملته للناس ، وسلوكه فى الحياة ، ومعاشرته لمن يعرف ومن لايعرف يكون عيشه معهم من قبيل المصادفات التي لاتسره والفرص التي تتحول الى غصص يؤذي بوجوده ، ويؤلم بمجرد حضوره ، ويشيع التنقيص والاوجاع ظله المتنقل ، وطيفه الذي يخطر بالخيال ويمر بالذهن .

ولا يكفي ان يظهر الانسان بمظهر العابد الناسك، ولا الورع المتعفف ، ولا المتبتل الخاشع ، ولا الزاهد العيوف ، ما دام لايضفي على الناس من عدله الشامل، وظله الوارف ، وبره السابغ ، وبركته الملموسة .

وجعل الاسلام للعقائد المستكنة فى القلوب تاثيرا على الاعمال ، وهي وان كانت شيئا معنويا غير محسوس فتاثر الحواس بها امر مشاهد ملموس ، فهذه الاعضاء الظاهرة من لسان ناطق ، وعين مبصرة ، واذن واعية ، ويد باطشة ، وغيرها ، تتأثر بالعقيدة القلبية ، ولن يصدر عن الانسان فعل من افعاله الا وفقا لعقيدته ، وبدافع من يقينه ، وباعث من داخله ، فالحواس مسيرة بالعقائد ، ومسخرة لها ، ومعلنة عنها ، فاذا رايت امة متماسكة البنيان ، متحدة على الخير ، قوية فى الحق ، سلاحها العدل ، ومبداها الرحمة ، وامرها شورى بينها ، فاعلم أن سر نجاحها هو عقائدها السليمة من الضعف ، الخالصة من الخرافات والاوهام .

واذا رايت امة مفككة مبعثرة ، مختلفة ، متنافرة ، جبانة فى الحق ، جريئة فى الباطل ، شجاعة فى الاثم ، سلاحها الملق والظلم ، وعدتها التذلل والعبودية ، امرها لغيرها ، الغرم فيها على ابنائها ، والغنم للدخيل عليها ، فاعلم ان سبب انحطاط هذه الامة عقائدها الضعيفة ، وعلة تأخرها فساد عقائدها المزوجة بعبادة الحياة والشهوات الصارفة لها عن صفاء الدين ، والحاجبة لها عن نور العلم ، والمبعدة لها عن هداية العقل ، ولهذا كانت دعوة الرسل كلهم الى الله منصبة على العقائد اولا ، وما من رسول ولا نبي الا وبدا دعوته بالعقيدة الخالصة ، يدعو اليها ويشقى فى سبيلها ، ويحارب من اجلها .

ولو ان العقائد الاسلامية تمكنت من قلوب المسلمين لنهضوا فى كل فن ، ولتقدموا فى كل علم ، ولصلحت الادارة والنظم والقوانين والمعاملات ، ولعمت الرحمة وانتشر الدين والسلام .

❋

ولعل ابرز ما كفله الاسلام لكافة الناس من ضمانات هو تلك الحرية الطليقة التي تعترف بالقيود والحدود وهذه الحرية تنتظم صورا متعددة ، وانواعا شتى ، وقد عنى بها الاسلام جميعا فكفلها للفرد ،

وقررها للجماعة قبل ان تخلق الديموقراطيات الحديثة بأجيال واجيال واجيال ، واعلن انه لايحارب الحرية ، ولا يضطهد اصحابها والداعين اليها ، بل انه على النقيض من ذلك يتيحها للناس ويندبهم ان يكونوا احرارا طلقاء في تفكيرهم وعقائدهم وفي كل ما يتصل بهم من اسباب الحياة ، وذهب بالاخذ بها كمبدا من مبادئه ، فقررها اصلا من اصول الحكم فاقام امر المسلمين على اساس الشورى وتبادل وجوه الراي ، يرشد الى ذلك قوله تعالى ((**وأمرهم شورى بينهم**)) وقوله ((**وشاورهم في الأمر**)) وهذا ما جعل خلفاء المسلمين وامراءهم اذا حز بهم امر او عرض لهم حادث يتصل بأمن الدولة وسلامتها ، ولم تكن ثمة شواهد يمكن الاخذ بها ، او سوابق يرجع اليها ، او قواعد يمكن تطبيقها عليه ، فانهم كانوا حينئذ يفزعون الى الاستفتاء العام ، فعلى هذه الاسس الديموقراطية ولي الحكم جميع الخلفاء الراشدين ، وعلى هذه السياسة الرشيدة مضى خلفاء المسلمين وحكامهم لايبرمون امرا ذا بال ، ولا يقررون حكما ذا خطر الا اذا رجعوا فيه الى المسلمين يسالونهم الراي ويبادلونهم المشورة .

❋

وجاء التوحيد فحرر العقل من ربقة التقليد الاعمى وسلطان الاوهام ، واطلق الفكر من عقاله يجول في ملكوت السموات والارض ، وما خلق الله من شيء ، ويطارد بنوره الساطع ظلام الجهل ، ويبدد باشعته الوهاجة سحب التضليل والخرافات والسخافات .

وقد جنى العالم من غرس هذه المبادىء القويمة ثمار الحكمة والاتزان واعتدال الراي ، وسلامة الفكر ، وعلو الهمة ، وكمال الايمان ، وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه لمن فيه اهلية الاجتهاد وتصريف المواهب والقوى لما خلقت لاجله .

ولهذا فان الاسلام دين الفطرة السليمة والحرية الكاملة والعقل الصحيح والمدنية الفاضلة والمبادىء السامية والاحكام العادلة الصالحة لكل زمان ومكان ، واذا وعينا هذا ادركنا عناية الاسلام بشخصية كل فرد وكيف طالب كل انسان بابرازها وتنميتها والمحافظة عليها ، لانها مظهر الكرامة الانسانية وعنوان ما في الانسان من حيوية ورجولة وقوة ارادة .

وشخصية كل فرد هي مجموع ما فيه من استعداد وقوة واخلاق ، وهي وليدة ما لديه من ثقافة وعلوم وتجارب ، فمن الجناية على الانسانية ان يتنازل اي فرد عن شخصيته ويفنى في شخصية غيره ، بل من الاجرام ان يمسخها بالتقليد الأعمى لسواه ، وبتعطيل ملكة التفكير فيه ، ويشل ارادته وخاصته التي ميزته عن الحيوان الاعجم ، ومن الاساءة الى الدين ان يكون المرء امعة ورجلا لا راي له ولا استقلال عنده فيما يجري بين يديه ، وفيما يقع تحت سمعه وبصره وحسه ، وفيما يعرض له من شؤون الحياة وحوادث الوجود ، ومظاهر الكون بحيث يتابع كل واحد على رايه ، ويلغي وجوده ، ويرضى ان يكون صدى لغيره .

فرسول الله (ص) حين يقول (لاتكونوا امعة) ينهى كل فرد مكلف عن ان يكون تابعا لكل ناعق ، وذيلا لكل راس ، ومتلونا بلون المجتمع .

واذن فقد نهى النبي (ص) عن ذلك وامر كل مكلف ان يثبت وجوده وان يكون مستقلا في ابداء رأيه ، وان يحافظ على شخصيته ويظهر ارادته ، ويستعمل عقله ، وان يصبح احد رجلين فقط ولا يكون الثالث فيهلك ، كما جاء في الاثر : (اغد عالما او متعلما ولا تكن امعة) فهل رايت ابلغ في الزجر واروع في النهي على التقليد ومحو الشخصية من هذه الجملة الذهبية .

❋

ولا ريب اذن في ان موضوع الاجتهاد من الموضوعات الجديرة بالعناية ، والتي ينبغي ان يكثر العلماء من بحثها وتقليب النظر فيها للوصول الى نتيجة صحيحة ، ذلك لان الشريعة الاسلامية لم تصب بالعقم ، ولم يلحقها هذا الذي يسميه الناس جمودا ، ولم يشع الاعتقاد بين الخصوم بعدم لياقتها للعصر الحاضر ، وعدم كفايتها لحاجات الناس ، ولم يصبها كل هذا الا عند ما شاع الاعتقاد بين العلماء باغلاق باب الاجتهاد ، وعدم تيسير اسبابه لاحد مهما حاول في هذه العصور ، فاوجدت هذه العقيدة يأسا من تحصيل هذه الفضيلة .

ومن الغريب ان يكون الراي الشائع ، والاعتقاد الراسخ هو استحالة الاجتهاد في فروع الشريعة

الاسلامية مع النص فى كتب الاعتقاد على وجـوب الاجتهاد فى العقيدة ، ومع الاختلاف فى صحة ايمـان المقلـد .

وقد نص الامام الغـزالي فى بعض كتبـه على ان الشخص عند ما يصل الى سن البلوغ يجب عليه وجوبا شرعيا ان يجدد ايمانه اذ كان ايمانه الاول ايمان تقليد، وهو مكلف ان يومن ايمان نظر واجتهاد .

ولعمري كيف يكون الاجتهاد فى الايمان مع ماله من الشان العظيم ومع خطر الزلل اليسير منه لازما ، وفى الصلاة والصوم وغيرهما من الفروع حراما .

بل كيف يكون فى الاول ممكنا حتى لعامة الناس وفى الثاني غير ممكن ولو لخاصتهم .

وليس من حجة يصح ان يحتج بها هـذا الزعم سوى ان شرائط الاجتهاد ووسائل الوصول اليه لم تتوفر لاحد من الناس فى هذه العصور المتاخرة، ولم ار حجة اوهى من هذه الحجة ، ولا ابعد بينها وبين نتيجتها ، فان عدم توافر هذه المسائل ، وتلك الشروط لاحد من الناس عرضا لايفيد عدم امكانها لمن يطلبها من الناس ، بل استطيع ان ازعـم ان شرائط الاجتهاد اقرب منالا ، والوصول اليـه ايسر سبيلا فى هـذا العصر ، ومعلومات البشر فى الكون قد تضاعفت ، وقد اصبحت فلسفة الفلاسفة الماضين وحكمة حكمائهم من بدائه العلوم ، فمن غير المعقول ان يكون العقل البشري الذي حل كثيرا من الغاز الكون ، واجتاز كثيرا مـن صعاب الحياة ، وابتدع مايعد فى عرف الاولين سحرا ، فمن غير المعقول ان يكون هذا العقل غير مستعد لما استعد له عقل الاولين ، او ان يعجزه الوصـول الـى ما وصل اليه احد السابقين .

ثم ما هذه الشروط التي يعدها انصار التقليد معجـزة الزمـان ؟

هي التبحـر فى علـوم اللغة ومعرفـة الناسـخ والمنسوخ ، واسباب النزول ، والاحاطة بعلوم السـنة ، وغير ذلك من العلوم التي تجعـل المرء قـادرا علـى الاستنباط ، عارفا باخذ الفروع من الاصول .

❋

ولا نكران ان هذه العلوم ما زالت حية ، وسبيل تحصيلها ممهدة ، حتى لقد يدهشنا ما نسمعه عـن بعض المستشرقين من علمهم الجم واطلاعهم الواسـع على علوم لغتنا ، واحاطتهم باسرار شريعتنا ، فاية عقبة بين انسان اتاه الله من حسن الاستعداد ، وذكاء الفطرة ، ونور البصيرة ما يكفل له الوصول بهذه العلوم الـى مرتبـة الاجتهـاد .



حقيقة واقعة لابد من الاعتراف بها ، وهي ندره وجود المجتهد فى زماننا هذا ، بل ربما نقول فقدانـه بتاتا ، ومرد ذلك الى فتور الهمم وضعف العزائـم . وشيوع الاعتقاد الذي اشرنا اليه ، والذي لم يحـاول احد من العلماء بسببه ان يطرق هذا الباب العظيـم ، باب الرحمة الواسعة والفضل العميم ، مع ما وراء هذا الباب من خير لو اتيح لاحد الوصول اليه لتباهت بـه الشريعة الاسلامية المطهرة ، ولما كانت هناك ضـرورة الالتجاء الى الشرائع الاجنبية تطبقها بعض الحكومات الاسلامية على شعوبها ، وترفض شريعتها ياسا مـن صلاحيتها فى بعض الشؤون .



فانصار التقليد فى حقيقـة الامـر يجنـون على الشريعة ، ويجعلون الشك فى لباقتها يقينا ، والشـريعة لاينقصها سوى المجتهدين الذين يفهمون اسرارهـا ، ويزنون احكامها بميزان العقل والتدبير كما كان السلف الصالـح بارزا بهـا .

وفضلا عن ان التقليـد جنايـة على الشريعـة الاسلامية فهو جناية على العالم نفسه اذ يميت فيـه قوة الاعتماد على النفس ، وشعور الاستقلال بالرأي ، ويوحي اليه العجز عن التفكير ، وعـدم القـدرة على الاحتجاج حتى فى ابسط الاشياء ، فيكون اقوى حججه ان يقول : وهذا هو المنصوص ، وهكذا قالوا .



ومما لاريب فيـه ان الشريعة الاسلامية هي أوقى سياج لمجتمعات البشـر ، وقانون الاسلام اسمى من ان تتناول مثله العقول بدليل استيفائه لحاجة البشر فى امور المعاش والمعاد ، واشتماله من احكـام الحقـوق والسياسة والعقوبة والقصاص على ما يضمن راحـة

الامم ، ويحفظ كيان الدول ، هذا باعتبار الاصول التي تفرعت عنها تلك الاحكام ، اذ ليس من شان الشارع البسط في كل علم افادنا اياه من العلوم ، بل ذلك موكول الى افهامنا في ارجاعها عند الحاجة الى مآخذ تلك العلوم من الكتاب والسنة ، ولما كان من الضروري وجود الاحكام بازاء الحوادث التي لاتتناهى في جانب الترقي والاجتماع ، ولما اراد الشارع من تمام الخير والتيسير للمسلمين كما يشير اليه قوله تعالى **« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »** فقد وسع عليهم باستباط الاحكام من اصول الشريعة وتطبيقها على الحوادث التي تحدث للبشر بمقتضى سنة الترقي والانتقال ، وذلك بتجويز القياس والاجتهاد في المسائل التي لايكون بازائها نص صريح على شروط مقررة عند اهل العلم .

❋

وجواز الاجتهاد كما ذكره علماء الاصول ماخوذ من قوله تعالى **« فاعتبروا يا اولي الالباب »** ومن قول رسول الله (ص) حين ارسل معاذا الى اليمن : بماذا تحكم يامعاذ .. ؟ قال بكتاب الله ، قال : فان لم تجد.. قال بسنة رسول الله ... قال : فان لم تجد ، قال اجتهد برايي .. فقال عليه الصلاة والسلام : الحمد لله الذي وفق رسول رسوله لما يرضى به رسوله .

❋

ولهذا توسع الائمة في استنباط الاحكام السياسية والقوانين الاجتماعية من اصول الشريعة الاسلامية ، فاحاطوا بسائر لوازم الدول في حياتها السياسية ، فوضعوا كتبا مخصوصة تشتمل على القوانين الشرعية والقيود المرعية للوزارة والاحتساب، وكتابة الجيش ، والخراج ، ودواوين العطاء والترجمة ونحو ذلك مما تحتاجه الدول الاسلامية في قيامها وبتكفل بسلامة كيانها ، ولهذا لما بسط الاسلام جناحيه على الشرق والغرب لم يدع لارباب الأثرة من الرؤساء وسيلة لتنويع السلطة بحكم قوم بما لم يحكم به آخرون ، فشمل العدل سائر الخاضعين لسلطان المسلمين ، فاقبل الناس افواجا للدخول في هذا الدين والتناصر على المصالح العامة مع المؤمنين ، والعدل بين الناس اساس التحابب ، وقوام الملك والعمران ، وداعية التناصر بين اصناف الانسان الخاضعين لأية حكومة وسلطان .

وكان للراي والاجتهاد عند الفاروق رضي عنه اعتبار كبير ، ويشبهه في ذلك عبد الله بن مسعود الذي كان يسلك طريقته ، ويتعصب لمذهبه ، حتى قال : (لو سلك الناس واديا وشعبا ، وسلك عمر واديا وشعبا لسلكت وادي عمر وشعبه) .



ويظهر لمتبعي التاريخ الاسلامي ان الاسلام كان في ناحيته الشرعية اقوى منه في نواحيه الاخرى ، فقد خلقت الشريعة الجديدة من القبائل العربية مجتمعا متماسكا ، واستبدلت العرف وحكم الاهواء بقوانين حكيمة تستند في روحها الى اقوى مباديء الطبيعة البشرية ومشاعرها ، فكانت الشريعة الاسلامية مصدرا من مصادر القانون لوفرة ابحاثها ، وغنى افكارها ، وليس بخاف على الناس عامة وعلى رجال القانون خاصة ما اوردته هذه الشريعة خاصا بالمعاملات والتصرفات من بيع وايجار ، وهبة ، وميراث ، واثبات .

ولو رجعت الى قوله تعالى **« يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا ياب كاتب ان يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئا فان كان الذي عليه الحق سفيها او ضعيفا او لايستطيع ان يمل هو فليملل وليه بالعدل »** لرايت وجوب اثبات الدين ولخرجت من الآية بكل ما يتعلق بالقوام والوصاية من قواعد وحكمة في التشريع ، ثم قوله تعالى **« واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى »** فنظم الشهادة واوجب في آية اخرى اداءها ورتب الجزاء على كتمانها فقال **« ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه »**

وكانت الشرائع التي تحكم العالم المعنوي اشد ما تكون اثرا ، واعظم ما تكون فوزا اذا الت في احكامها بنواحي التفكير ، ووجهات العواطف في المجتمع الذي تسن له ، وهذا ما روعي في احكام الشريعة الاسلامية مراعاة شديدة ، وما جعلها مدى القرون قانونا سياسيا واجتماعيا لكثير من الدول والمجتمعات الاسلامية ، بل هذا هو السر في كثير من المجتمعات الاسلامية المتمدنة

ما زالت فى عصرنا تحتكم الى الاحكام والنصوص التي وضعت منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا .

❊

وكان التشريع فى عهد النبي (ص) يقوم على الوحي من الكتاب والسنة ، وعلى الراي من النبي ومن اهل النظر والاجتهاد من اصحابه بدون تدقيق فى تحديد معنى الراي وتفصيل وجوهه ، وبدون تنازع ولا شقاق بينهم .

❊

ومضى عهد النبي عليه الصلاة والسلام وجاء بعده عهد الخلفاء الراشدين فاتفق الصحابة فى هذا العهد على استعمال القياس فى الوقائع التي لا نص فيها من غير نكير من احد منهم ، وفى هذا العهد اخذت تبدو الصورة الاولى من صور الاجماع بما كان يركن اليه الائمة من مشاورة اهل الفتوى من الصحابة ، وكان اهل الفتوى من الصحابة يومئذ وهم المعتبرون فى الاجماع قلة لايتعذر تعرف الاتفاق بينهم فى حكم من الاحكام ، ولم يكن يفتي من الصحابة الا حملة القرآن الذين كتبوه وقراوه وفهموا وجوه دلالته وناسخه ومنسوخه ، وكانوا يسمون (القراء) لذلك ، تميزا لهم عن سائر الصحابة بهذا الوصف الغريب فى امة امية لاتقرا ولا تكتب .

❊

ثم كان عهد بني امية ، فتكاثر الممارسون للقراءة والكتابة من العرب ودخلت فى دين الله امم ليست امية فلم يعد لفظ القراء نعتا غريبا يصلح لتميز اهل الفتوى ومن يوخذ عنهم الدين ، وهنالك استعمل لفظ العلم للدلالة على حفظ القرآن ورواية السنن والآثار ، وسمي استنباط الاحكام الشرعية بالنظر العقلي فيما لم يرد فيه نص كتاب ولا سنة ، وسمي اهل هذا الشان الفقهاء فاذا جمع امرؤ بين الصنفين جمع له اللفظان او ما يرادفهما

❊

وقد توصل علماء الاسلام الى ان يستخرجوا من مجموع نصوص الشريعة الاسلامية واحكامها قواعد عامة ، فاستخراجهم قاعدة ــ الضرر يزال ــ من مثل قوله عليه الصلاة والسلام (لا ضرر ولا ضرار) .

ويتفرع على ذلك احكام لاتحصى فى الفقه والقضاء ، وان القواعد شانها ان تؤخذ من موارد متعددة فى الشريعة الاسلامية ، ولهذا كانت فى نفسها قطعية .

وقد يرى واضع القانون الضرر الصغير فى الواقعة فيمنعه ، ويبيحه الشارع لانه وقاية من ضرر كبير ، ومن هذا نشات قاعدة ــ ارتكاب اخف الضررين ــ ومن اصولها « **اما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فاردت ان اعيبها وكان وراءهم ملك ياخذ كل سفينة غصبا** » فان عيب السفينة ضرر اخف من اخذها غصبا

ومن قواعد التشريع الاسلامي قاعدة (العادة محكمة) اي انها تجعل حكما فى اثبات الاحكام اذا لم يعارضها نص ، وابتنى قولهم (الممتنع عادة كالممتنع حقيقة) وقولهم (المعروف عرفا كالمشروط شرطا) وقولهم (التعيين بالعرف كالتعيين بالنص) وقولهم (لاينكر تغيير الاحكام بتغيير الزمان) اي ان الاحكام التي كانت مبنية على عرف طرا عليه التغيير تتغير بتغير ذلك العرف ، فتبنى دائما على العرف الذي لا يخالفه نص .

فالقواعد كما قلنا ماخوذة من النصوص ، والنصوص لاتاتي الا للمصلحة العامة ، والمصلحة العامة تتمشى دائما مع الفطرة الانسانية وسعادتها .

وعلى ما تقدم من هذه الاسس قام الاسلام على نوعين من الاحكام ، احدهما احكام ثابتة يجب الايمان بها ، ولا يسوغ الاختلاف فيها ، وليس من شانها ان تتغير بتغير الزمان والمكان ، وتلك هي القطعية في روايتها ودلالتها وهي الاساس الذي اوجب الله على المسلمين ان يبنوا عليه صرح وحدتهم غير متنازعين ، وربط به عزهم وهيبتهم في اعين خصومهم والمتربصين بهم .

والنوع الثاني احكام اجتهادية نظرية مرتبطة بالمصالح التي تختلف باختلاف ظروفها واحوالها ، وراجعة الى الفهم والاستنباط اللذين يختلفان باختلاف العقول والافهام ، او واردة بطريق لايرقى الى درجة العلم واليقين ، ولا يتجاوز مرتبة الظن والرجحان .

والاختلاف في هذا النوع امر طبيعي ، لان العقول تتفاوت ، والمصالح تختلف ، والروايات تتعارض ، ولا يعقل في هذا النوع ان يخلو مجتمع من الاختلاف ، ويكون افراده جميعا على راي واحد في جميع شؤونه ، وهذا النوع من الاختلاف غير مذموم في الاسلام ما دام المختلفون مخلصين في بحثهم باذلين وسعهم في تعرف الحق واستبانته ، بل انه ليترتب عليه كثير من المصالح وتتسع به دائرة الفكر ، ويندفع به كثير من الحرج والعسر ، وليس من شانه ان يفضي بالمسلمين الى التنازع والتفرق ، ويدفع بهم الى التقاطع والتنابذ .

مبلغ زهد النبي في الدنيا والتقلل منها

عن ابي هريرة (ر ض) قال جاء رجل الى النبي (ص) فقال اني مجهود فارسل الى نسائه قلن كلهن : لا والذي بعثك بالحق ما عندي الا ماء ؟ قال (من يضيفه الليلة رحمه الله ؟) فقام رجل من الانصار فقال انا يا رسول الله ، فانطلق به الى رحله فقال لامراته هل عندك شيء ؟ قالت لا الا قوت صبياننا ، قال فعلليهم بشيء فاذا دخل ضيفنا فاطفئي السراج واريه انا ناكل فاذا اهوى لياكل فقومي الى السراج حتى تطفئيه قال فقعدوا فاكل الضيف فلما اصبح غدا على رسول الله (ص) فقال (قد عجب الله من صنعكما بضيفكما الليلة) متفق عليهما . وفيهما وقربى للضيف ما عندك قال فنزلت الآية (ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة) وفي البخاري : ضيف رسول الله (ص) لا ندخر به شيئا ، وفيه اذا اراد الضيف العشاء فنوميهم . فيه ان من سئل شيئا قام به ان امكنه والا سأل له لكن ليس في الخبر سؤال معين ، وفيه ما كان عليه النبي (ص) من الزهد في الدنيا والتقلل منها ، وفيه الاحتيال والتلطف باكرام الضيف على احسن الوجوه ، والخبر محمول على انه لم يكن بالانصاري واولاده حاجة الى الاكل بحيث يحصل الضرر بتركه والا لوجب تقديمهم شرعا على حق الضيف وفيه الايثار ممن لم يتضرر بامور الدنيا .

الدعوة الاسلامية في لبنان

«إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى»

بقلم الاستاذ: عبد السلام الهراس

اذا كانت النكبات تخلف من ورائها الدموع والاحزان والخرائب والاشلاء ، فانه قد يكون لها احيانا نتائج ايجابية في صالح من حلت بهم تلك النكبات ، وذلك عند ما تصادف ارواحا خاصة هيأتها العناية الالهية لتتحمل رسالة البعث والاحياء ، رسالة اليقظة والقضاء على اسباب الكارثة للنهوض بالامة عن طريق تزويد ضميرها بالحيوية والشعور العميق بالعزة والكرامة .

وفي فلسطين حيث كانت النكبة العربية الاسلامية تترعرع وتصنع بايدي الخيانة المزدوجة ، كان يعيش « أبو عمر محمد الداعوق » الذي نزح اليها من لبنان ليدير بها معملا كمهندس مكانيكي ، ولم يكن يفكر في المشاكل التي يتخبط فيها المسلمون تفكير المصلح المتقد ، وان كان يعطف عليهم ، ويشاركهم آلامهم ، غير ان شعوره باقتراب النكبة كان يفجر في اعماقه طاقات روحية جبارة فيندفع نحو كتاب « الاحياء » للغزالي ، ليروي ظمأه الروحي وليستلهم منه ما يحقق له هدفه في نفسه اولا ، وفي المجتمع ثانيا ، حتى اذا وعى الكتاب وعي المتجاوب الصادق ، اندفع نحو كتاب الله ليدرسه على نحو جديد ، وليجدد الميثاق مع الله على خدمة المسلمين الذين فقدوا تلك الروح المبدعة التي امدتهم باسمى واخلد واقوى رباط ، غير انهم اصبحوا اليوم في فقر روحي ، وافلاس اجتماعي ، مما جعل التفكك ظاهرة طبيعية .

وحلت الكارثة بفلسطين نتيجة ذلك الانحلال الروحي ، والتفكك الاجتماعي ، وخيانة بعض رؤساء العرب ، وتواطىء ارباب المصالح العاجلة مع الصهيونية والمؤيدين لها من القوى الاستعمارية العالمية ، ومست الكارثة ابا عمر الداعوق في المصنع الضخم الذي كان يدر عليه ارباحا ، كما مسته في روحه ، ورجع الى لبنان يحمل في نفسه الشعور بالنكبة والخيبة ، وقد تعمق في اسبابهما الى ان وصل الى النفسية العربية التي تحمل في جوهرها اسباب الكارثة ، واسباب الخيبة ، وابتدأ أبو عمر يدعو اقرب الناس اليه فاستجاب له بعضهم ونأى عنه البعض الآخر ، وبحث في كتاب الله عن اسم يختاره للجماعة الاسلامية الناشئة ليكون عنوانا عليها وعلى سيرها واخلاقها ، فاستوقفته هذه الآيات « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما ، انها ساءت مستقرا ومقاما ، والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ، والذين لا يدعون مع الله الها آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق اثاما » الى قوله تعالى اولئك يجزون الغرفة ، بما صبروا ... الخ الآية . وشهد العالم الاسلامي ميلاد جماعة اسلامية في لبنان تحاول تهذيب نفسها باخلاق القرآن ، وسنة محمد عليه السلام ، لتكون اهلا للقيادة والتوجيه .

وقد وجدت الدعوة نفسها امام تيارات سياسية ودينية وطائفية وعصبية ، ولذلك كان على الدعوة ان تسلك طريقا خاصا بها ، مستوحى من الظروف الخاصة التي يعيشها هذا البلد العجيب ، وكان بودي ان اشرح هذه الظروف شرحا وافيا ، غير ان ذلك سيجرنا الى التصريح بحقائق عن السياسة والطائفية ، وهذا ما لا نريد الخوض فيه .

وقد استطاعت الدعوة ان تظفر بشباب درسوا بالمدارس الاجنبية كالاستاذ توفيق موري خريج الجامعة الامريكية ببيروت ، وجامعة اكسفورد بلندن ،

واحمد صقر ، المهندس الزراعي ، وخريج الجامعة الامريكية، وآخرين في مستويات مختلفة، كما استطاعت ان تكون من الشعبيين البسطاء طبقة مثقفة ثقافة اسلامية ، واعني بالثقافة هنا السلوك المنبثق عن وعي واقتناع ، فكان من الفريقين دعاة اهلتهم تربيتهم واخلاقهم للقيام بجولات عبر البلاد اللبنانية ، لهداية الناس ، والاخذ بيدهم نحو اقرب واقوم طريق للعزة والكرامة ، وتكره جماعة « عباد الرحمن » في دعوتها النقاش والمجادلة ، واللف والدوران ، وتهدف الى الاقناع بالسلوك الخلقي ، لانها تؤمن بان عمل رجل اقوى من كلام الف رجل ، ومن اجل ذلك، فانها لاتسلك في سبيل نشر الدعوة الاساليب السياسية والحزبية المعروفة ، لانها تؤمن بوجوب اشتقاق الوسيلة من الغاية ، غير انها لم تغفل على استعمال وسائل عملية حديثة كالطب والتعليم ، والنشرات ، والسينما المتنقلة ، فهناك يرى الانسان اشرطة سينمائية تعرض افلاما اخلاقية ودينية ورياضية على انظار المسلمين ، وبالاخص الاطفال منهم الذين تترك فيهم هذه الافلام اثرا حسنا .

وللعباد اقسام اهمها : قسم الطلاب ، وقسم الاشبال ، وقسم الزهرات ، وقسم العابدات ، واروع ما يعجب الانسان هنا قسما : الاشبال والزهرات ، اذ يرى اطفال المسلمين ينشأون تنشئة اسلامية في جو طاهر ، مفعم بالاخلاق ، والحب ، والعواطف الانسانية النبيلة ، ويدربون في المخيمات الصيفية بالجبال والشواطيء على الحياة وشؤونها ، ويسهر على تدريبهم شباب تربوا في احضان الدعوة سنين ، اثبتت اخلاقهم وسلوكهم صلاحيتهم للقيام بمثل هذه المهمة ، ولو كان جميع المسلمين في اقطار العالم الاسلامي يهتمون بتربية اطفالهم مثل ما يفعل « العباد » لضمنوا لبلادهم جيلا اسلاميا فكرا واخلاقا .

اما قسم الطلاب ، فمن مهمته اصدار الكتب والمجلات ، لتوزيعها في الداخل والخارج ، ويقوم بالوعظ والارشاد في المساجد في اوقات مختلفة .

اما قسم الاخوات ، فيعتني بتربية الفتاة اللبنانية المسلمة تربية اسلامية ، واعدادها اعدادا خاصا لتصبح اما يوثق باخلاقها ، ويطمان لسلوكها داخل الاسرة وخارجها ، فتكون اهلا لتزويد المجتمع بنسل سليم ، صالح مصلح .

وللدعوة عموما دعاة ينطلقون كل يوم الاحاد والجمعة للقرى النائية الجاهلة ليعلموا اهلها امور دينهم ويقوم بمهمة التوفيق بين الاسر المتطاحنة التي مزقتها السياسة ، واشقاها التضليل ، فالقرى اللبنانية موبوءة بالسياسة ، ولا تكاد تدخل بيتا الا وتجده مختلفا بين جاره بسبب « الزعامة » و « الزعماء » . وتلك ماساة خطيرة يعيشها المسلمون في لبنان ، وكم يعاني الانسان وهو يحاول اصلاح ذات البين بين اخوين تختلف نزعتهما السياسية (1) . ولكن « العباد » يسيرون في دعوتهم سير العاقل المتبصر فلا يهاجمون احدا ولا ينتقصون من احد ولا يحاولون الدخول في معارك سياسية ضد الاحزاب وانما يصادقون الجميع او على الاصح يمثلون الحياد الايجابي بالنسبة للنزعات السياسية المختلفة في لبنان. وهذه الدعوة لا تستهدف الحكم كما نرى ذلك عند حزب « التحرير الاسلامي » (2) وان كان منهم افراد منبثين في مختلف الوزارات ، ولكن لا يمثلون هيئة سياسية وانما افرادا مسلمين يقومون بواجبهم كباقي المواطنين .

اما رائد الجماعة فيكره التوظف ولذلك فانه يعمل حرا كمهندس مكانيكي ليعيش من كد يده ومن طريق شريف والاموال التي تاتيه من الداخل او الخارج يحولها للصندوق الذي يشرف عليه السيد راشد الحوري المعروف في بيروت بغيرته القوية على الاسلام والمسلمين

وللجماعة مطبعة مجهزة مهمتها الاساسية طبع النشرات والكتب الاسلامية ، ومن اهم ما اخرجت هذه المطبعة كتاب «روح الدين الاسلامي» للاخ الاستاذ عفيف طبارة وكتاب الجزائر الثائرة للاخ المرحوم الداعية الاستاذ الفضيل الورتلاني وعشرات الكتيبات التي تشرح الفكرة الاسلامية .

وللدعوة جريدة اسمها « المجتمع » تصدر بطرابلس الشام ، وعلى الرغم من موقف الدعوة من السياسة فان هذه الجريدة تحوم حول الشؤون

---

1) مدلول الحزبية والسياسة في البلاد العربية متصل بالاشخاص اكثر من اتصاله بالفكرة .
2) مركز هذا الحزب في الاردن ويمتاز باعتماده على الفكر والنقاش والبرهان وله عدة كتب تشرح فكرته ويكتنفه بعض الغموض .

السياسية وتحرر مقالات سياسية عنيفة وصريحة ، غير ان الذي يفسر لنا هذا الاتجاه هو اختلاف وجهة النظر بين فرع طرابلس ومركز بيروت بالنسبة للسياسة والسياسيين فشبان طرابلس يرون وجوب النزول للمعترك السياسي والعمل على انتزاع قيادة الشعب من يد السياسيين ولا يرون صوابا الاهتمام فقط بالنواحي الخلقية وقد تأثروا في وجهة نظرهم تلك بالاخوان المسلمين بمصر وسوريا وان كانوا — اي العباد — بطرابلس لم يستطيعوا ان يحرزوا نصرا سياسيا لان الظروف في بلادهم لا تساعد على ذلك .

ومهما يكن من شيء ، فان اعظم ما يعجبك في هذه الدعوة انها تضم شبابا متعلمين واميين ببساطة يبادلون بعضهم حبا واخلاصا لان رابطتهم نسجتها تعاليم الاسلام واخلاق الاسلام ، وتراهم مرتين في الاسبوع تنطلق بهم سياراتهم الخاصة من بيروت وطرابلس الى انحاء لبنان للتبشير بالدعوة الى الله فيقطعون الجبال والوهاد في سبيل الوصول الى قرية نائية حتى يعلموا اهلها اصول دينهم ، وقد يظل الواحد منهم في منطقته اياما منقطعا لتنظيم شؤون الدعوة وللبحث عن شباب محليين ليواصلوا المجهودات التبشيرية ، ويتخذ الدعاة المسجد مستقرهم ومكانا للوعظ والتربية .

وعلى الرغم من سلامة دعوة « عباد الرحمن » واستقامة افرادها واخلاصهم في الدعوة فانها منتشرة انتشارا كبيرا وان كانت تحوز ثقة معظم المسلمين وعطفهم .

وفي لبنان ايضا جمعيات اسلامية تقوم بمهمات مختلفة كجمعية « مكارم الاخلاق » الاسلامية التي تهتم ببناء المساجد في القرى وجمعية « المقاصد الاسلامية » التي تعد من اغنى الجمعيات الاسلامية وتمتلك ممتلكات ضخمة وعديدة ولها مؤسسات مدرسية في بيروت وفي مختلف انحاء لبنان كما لها مستشفى ضخم في بيروت ، وقد كان تاسيس هذه الجمعية نتيجة لرد الفعل من انتشار المدارس التبشيرية ونتيجة شعور المسلمين بالخطر الذي يهدد عقيدتهم غير ان مدارس هذه الجمعية قد اهتمت بالناحية التعليمية واهملت الى حد كبير الاهداف التي من اجلها اسسها المحسن الكبير المرحوم محمد الداعوق (3) وهناك جمعية « المحافظة على القرآن الكريم » التي تهتم بتعليم المسلمين وابنائهم قراءة القرآن قراءة سليمة ، والحق ان هذه الجمعية ادت رسالتها احسن تادية .

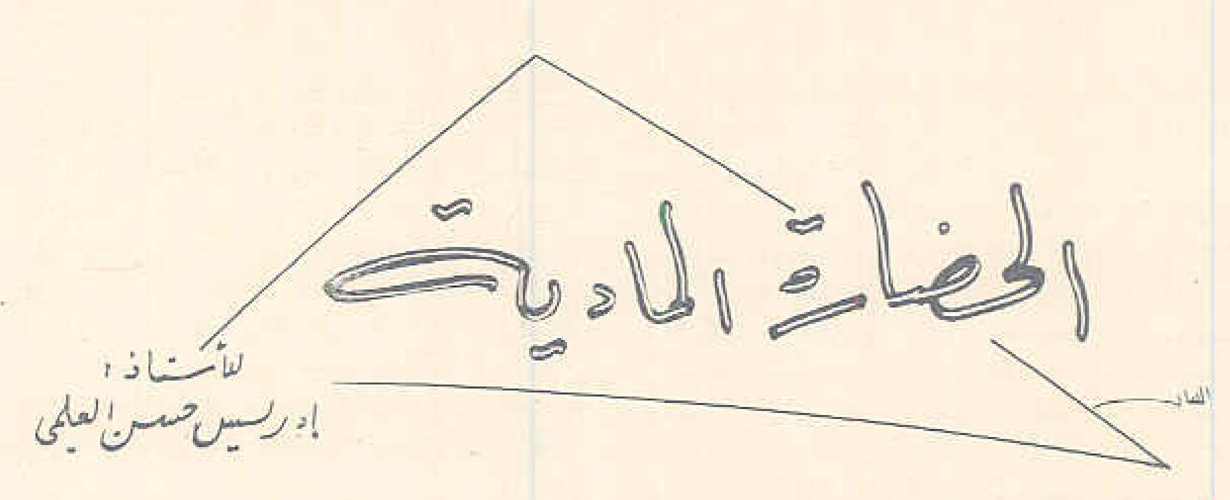
هذه نظرة عامة عن الدعوة الاسلامية في لبنان اسوقها للمغاربة الذين هم احق الناس بتبني الدعوة الاسلامية راجيا ان يكون لها بعض الاثر والتشجيع لمن كان يسمع القول فيتبع احسنه .

---

(3) هذا الرجل الفاضل له فضل كبير على مسلمي لبنان وهو غير ابي عمر الداعوق رائد « عباد الرحمن »

اصـــول الشـــر

ذكر ابن عبد البر وغيره عن الحسن انه كان يقول اصول الشر الشر ثلاثة : الحرص ، والحسد ، والكبر ، فالكبر منع ابليس من السجود لآدم ، وبالحرص اخرج آدم من الجنة ، والحسد حمل ابن آدم على قتل اخيه) .



للأستاذ :
إدريس حسن العلمي

لم تدع فلسفة ارسطو لاتباعها مجالا للايمان بالغيب بعد ما قررت فناء الروح بفناء الجسم ونفت صيرورة هذا العالم الى الفناء وبعث الانسان بعد الممات مقررة خلود الحياة البشرية على وجه الارض باعتقادها « ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » وعلى هذا الاساس وضع ارسطو علم المنطق الذي يفضي بالانسان الى انكار كل حقيقة عجز فكره عن اثباتها او تعليلها والى ابطال شعوره واهمال هداه . والى وقف ايمانه بالوجود على عالم الشهادة يعني على الكائنات الواقعة مباشرة تحت ادراكه .

وكانت فلسفة ارسطو النواة التي نشأت عنها فلسفة ديكارت ولم يستطع هذا الاخير التخلص من تاثيرها رغم محاولته التجرد من سائر العقائد والمسلمات. وعن فلسفة ديكارت تفرعت المذاهب الفكرية والنظريات الفلسفية والاجتماعية التي قامت على قواعدها الحضارة الانسانية العصرية على اختلاف انظمتها ومظاهرها والوانها والتي تبعث الفرد والجماعة على البحث عن السعادة في ارضاء الشهوات والمطامع الانانية بدلا من التماسها في التصرف بالجمال .

وهكذا رغم ايمان ارسطو وديكارت بوجود الله انشأ كلاهما فلسفة كانت مصدرا لمذاهب مادية ملحدة تتجاهل وجود الله وتهمل روح الانسان وتقصيه عن الايمان بالمثل العليا انتشرت في شعوب اوروبا وامريكا وبعض شعوب آسيا وكيفت حضارة امها وصبغتها حتى أصبح من المستحيل على الشعوب الافريقية خاصة والشعوب الاسلامية بصفة عامة أن تاخذ بهذه الحضارة المتصلة بها اتصالا وثيقا من دون أن تتخلى عن جانب كبير من جمالها الخلقي ومن دون أن تضحي عاجلا او آجلا بقيمها الروحية التي كانت في وقت من الاوقات منشأ عزتها ورفعتها ومنبع قوتها وسيادتها والتي اكسبتها شخصية مستقلة ثم صانت هذه الشخصية من الاندماج في شخصية المحتل .

لكن هل حققت هذه الحضارة للانسان غايته منها بل وغايته من الحياة كلها الا وهي السعادة ؟ لا اخال انسانا واحدا سليم الفطرة يستطيع ان يزعم ان مجموع سكان احدى البلدان المتحضرة ينعمون بحياة سعيدة بل ولا نصفهم ولا حتى ثلثهم ولا أن ثمة ما يبشر بوقوع ذلك في مستقبل قريب او بعيد .

ولماذا لم تنجح هذه الحضارة في اسعاد اقوامها ؟ اتراها عدمت الاسباب المادية اللازمة ؟ ان الفرد البسيط اصبح بفضل هذه الحضارة يملك من وسائل الراحة وادوات الرفاهية ما لم يتوفر على بعضه جل الملوك والمترفين في العصور السابقة ، انه باشارة خفيفة من بنانه او يده او رجله يستطيع ان يقضي جل مآربه في ايسر وقت وبغير ما كلفة وأن يطلع على ما جريات الحوادث في سائر بلاد العالم ويتتبعها وان يتصل باخوانه من الجنس البشري في مختلف انحاء الارض اتصالا شخصيا مباشرا وبواسطة البريد والاثير . وباختصار فان هذه الحضارة اتاحت للانسان ان يكون اكثر قوة وأكثر قدرة واوفر علما منه في أي وقت مضى.

فاذا ما ظل هذا الانسان رغم ذلك كله بعيدا عن الشعور بالسعادة وبالراحة النفسية فلأن كسبه من هذه الحضارة كادأن يكون ماديا صرفا ولان طاقته المادية هاته قد اكتسبها على حساب طاقته الروحية . ولانه تبعا لذلك اسلس قياده للعامل الاقتصادي في

المستوى الفردي والجماعي وتركه يتحكم في طريقة حياته وتفكيره وعلاقاته ومعاملاته الانسانية ، فلا غرو اذن أن يعيش هذا الانسان أثرا أنانيا خائفا مترقبا متوليا كبره في حيرة دائمة وفي شك مريب من جداية ما يأتي وما يذر يهدم اليوم ما بناه بالامس ، ويبني اليوم ما يعود غدا الى هدمه .

وسيبقى الفرد بعيدا عن السعادة ضالا عن سبيلها ما دام رائده في الحياة هو الكسب المادي وما دام العامل الاقتصادي يوجه سياسة دولته ويكيف الحياة العامة في بلاده مهيمنا على مختلف مرافقها وانظمتها . وسيظل القلق والاضطراب يسودان العلاقات الدولية وسيلبث الخوف مستوليا على الشعوب وسيمكث شبح الحرب يهدد الامن في كل حين ما دامت مختلف دول العالم تنصاع لحكم العامل الاقتصادي تستوحيه سياستها الخارجية ويحدد علاقاتها الدولية ويملي عليها جميع مواقفها وتصرفاتها .

وانا لم ازد على التذكير بحقيقة نادى بها بعض قادة الفكر الاسلامي الحديث أخص منهم بالذكر المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه « حياة محمد » الذي اورد منه مقتطفا هو ابلغ تعبيرا في الموضوع واوفى بالمقصود .

قال الدكتور رحمه الله :

« في اعتقادي ان حضارة تجعل الحياة الاقتصادية اساسها ، وتقيم قواعد الخلق على اساس هذه الحياة الاقتصادية ، ولا تقيم للعقيدة وزنا في الحياة العامة ، تقصر عن ان تمهد للانسانية سبيل سعادتها المنشودة .

بل ان هذا التصوير للحياة لجدير ان يجر على الانسانية ما تعانيه من محن في هذه العصور الاخيرة ، جدير أن يجعل كل تفكير في منع الحرب وفي توطيد اركان السلام في العالم قليل الجدوى غير مرجو الثمرة . فما دامت صلتي بك اساسها الرغيف الذي آكل انا وتاكل انت وتنازعنا عليه ونضالنا في سبيله ، قائمة بذلك على اساس القوة الحيوانية في كل منا ، فسيظل كل منا يرقب الفرصة التي يحسن فيها الاحتيال للحصول على رغيف صاحبه ، وسيظل كل منا ينظر الى الآخر على انه خصمه لا على انه اخوه ، وسيظل الاساس الخلقي الكمين في النفس اساسا حيوانيا بحتا ، وان بقي كمينا حتى تدفع الحاجة الى ظهوره ، وستظل المنفعة وحدها قوام هذا الاساس الخلقي ، على حين تنزلق عليه المعاني الانسانية السامية والمبادىء الخلقية الكريمة ، مبادىء الايثار والمحبة والاخوة ، فلا يكاد يمسكها ولا تكاد تعلق به .

« وما هو واقع في العالم اليوم خير مصداق عملي لما اذكر . فالتنافس والنضال هما المظهر الاول للنظام الاقتصادي ، وهما لذلك اول مظهر لحضارة الغرب . وهما كذلك في المذهب الفردي وفي المذهب الاشتراكي على سواء . في المذهب الفردي يتنافس العامل العامل . ويتنافس رب المال رب المال ، والعامل ورب المال فيه خصمان يتناقسان . وارباب هذا المذهب يرون في هذا التنافس وهذا النضال كل خير للانسانية ولتقدمها . فهما عندهم الحافز للاتقان والحافز لتقسيم العمل ، وهما المعيار العادل لتوزيع الثروة . اما المذهب الاشتراكي فيرى في نضال الطوائف ، نضالا يفنيها جميعا حتى يرد الامر كله للعمال ، بعض ما تحتمه الطبيعة . وما دام التنافس والنضال على المال هما جوهر الحياة ، وما دام النضال بين الطوائف طبيعيا ، فالنضال بين الامم طبيعي كذلك ، وللغاية التي يقع من اجلها نضال الطوائف . من ثم كانت فكرة القوميات اثرا محتوما بحكم الطبيعة لهذا النظام الاقتصادي . اما ونضال الامم في سبيل المال طبيعي ، اما والاستعمار لذلك طبيعي ايضا ، فكيف يمكن ان تمتنع الحرب ويستقر السلام في العالم ؟ ! لقد شهدنا في هذا القرن المتم للعشرين المسيحي وما نزال تشهد البينات على ان السلام في عالم هذا اساس حضارته حلم لا سبيل الى تحقيقه ، وأمنية معسولة ولكنها سراب مكذوب .

« تقوم الحضارة الاسلامية على اساس هو النقيض من اساس الحضارة الغربية فهي تقوم على اساس روحي يدعو الانسان الى حسن ادراك صلته بالوجود ومكانه منه قبل كل شيء . فاذا بلغ من هذا الادراك حد الايمان ، دعاه ايمانه الى ادامة تهذيب نفسه وتطهير فؤاده ، والى تغذية قلبه وعقله بالمبادىء السامية : مبادىء الاباء والانفة والاخوة والمحبة والبر والتقوى . وعلى اساس هذه المبادىء ينظم الانسان حياته الاقتصادية . هذا التدرج هو اساس الحضارة الاسلامية كما نزل بها الوحي على محمد . فهي حضارة روحية اولا . والنظام الروحي فيها هو اساس النظام التهذيبي واساس قواعد الخلق . والمبادىء الخلقية هي اساس النظام الاقتصادي ، فلا يجوز ان يضحي بشيء من مبادىء الخلق في سبيل التنظيم الاقتصادي .

« هذا التصوير الاسلامي للحضارة هو في يقيني التصوير الجدير بالانسانية الكفيل بسعادتها ولو أنه استقر في النفوس وانتظم الحياة انتظام الحضارة الغربية اليوم اياها ؛ لتبدلت الانسانية غير الانسانية ، ولانهارت مبادىء يؤمن الناس اليوم بها ، ولقامت مبادىء سامية تكفل معالجة ازمات العالم الحاضر على هدى نورها . »

« والناس اليوم في الغرب والشرق يحاولون حل هذه الازمات دون أن يتنبه احد منهم ، ودون ان يتنبه المسلمون انفسهم ، الى ان الاسلام كفيل بحلها ، فاهل الغرب يتلمسون اليوم جدة روحية تنقذهم من وثنية تورطوا فيها ، وكانت سبب شقائهم وعلة ما ينشب من الحروب بينهم ، تلك عبادة المال . واهل الغرب يتلمسون هذه الجدة في مذاهب الهند والشرق الاقصى على حين هي قريبة منهم ، يجدونها مقررة في القرآن ، مصورة خير صورة فيما ضربه النبي العربي للناس من مثل أثناء حياته » .

ذلك ما كتبه الدكتور هيكل رحمه الله منذ ما يزيد على خمس وعشرين سنة ولم يزد مرور الايام والاعوام كلامه الا رجاحة وصدقا ، فما من يوم يمضي الا وتثبت فيه الوقائع وهن هذه الحضارة القائمة على أساس اقتصادي ويقوم الدليل على فشلها في تمهيد سبيل السعادة للانسانية بل وعلى سوقها الانسان الى هاوية الشقاء الابدي ثم انه ليتجلى بوضوح يوما عن يوم ان خلاص الانسانية من مشاكلها القائمة وتحقيق سعادتها هو في تطبيق تعاليم الاسلام الروحية والعمل بمبادئه الخلقية السامية .

لكن دعوة الانسانية الى تنظيم حياتها الاقتصادية على مبادىء خلقية باسم الدين محكوم عليها سلفا بان تكون صيحة في واد سواء كانت الدعوة باسم الديانة الاسلامية او المسيحية او الموسوية ذلك للسببين الآتيين :

1 — ان الدين صار بفعل عوامل كثيرة ومختلفة من ضعف السلطان وقلة النفوذ والتأثير بحيث لا يقوى على تصحيح المعوج من الاوضاع القائمة فبالاحرى على تغيير الاسس التي يقوم عليها المجتمع العصري وتوجيه علاقات الشعوب وتكييف الحياة الدولية .

2 — على فرض نجاح الدعوة باسم دين من الاديان الثلاثة فان الاستجابة ستنحصر بطبيعة الحال في الشعوب المنتمية الى الدين الذي قامت باسمه الدعوة اذ لا يحتمل ان تنقاد لاحكام دين ما غير اتباعه ، اما بقية البشر فسيبقون بعيدين عن هذه الاحكام .

ولذلك ارى ان الدعوة الى الاخذ بتعاليم الاسلام في نطاق عالمي تكون ادنى من النجاح واحرى بالانتشار اذا قامت باسم الجمال مجردة عن كل صبغة دينية تقليدية .

ثم ان العقيدة الجمالية هي الصعيد الوحيد الذي يمكن أن تتحقق عليه الوحدة في الشعور والنزوع والعمل بين من يسمون اتباع الديانات السماوية الثلاث ، وعلى صعيدها كذلك يمكن ان يرجى تحقيق نوع من الوحدة في الانظمة والحياة الاجتماعية لمختلف شعوب العالم .

ينبغي ان تساند الدعوة الجمالية العالمية حركة اسلامية اقليمية شعبية وحكومية تستهدف احياء العمل بتعاليم الاسلام واحكامه في كل شعب اسلامي بالروح التي كانت تطبق بها هذه التعاليم والاحكام على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين .

فلا يخفى على احد ان المسلمين ظلوا يبتعدون عن جوهر الدين الاسلامي في حياتهم الخاصة والعامة شيئا فشيئا على ممر الاجيال والقرون حتى لم يعد لكلمة « مسلم » من مدلول عملي غير تعريف جنسي اذ اتسع مفهومها فشمل المارقين من الاسلام المعرضين عن اقامة اركانه وحدوده بل وشمل حتى الملحدين الذين لا يومنون بوجود الله ولا بالبعث وتراهم « من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الى اهلهم انقلبوا فاكهين واذا راوهم قالوا ان هؤلاء لضالون » .

ان كلمة « مسلم » تطلق اليوم على كل متنسل من سلالة المسلمين بقطع النظر عن ادائه لفرائض الاسلام فاصبح معظم المسلمين لا يقيمون الصلاة التي لا يتم اسلام المرء بدونها ولا يصومون رمضان وان كان الكثير منهم يمسكون عن الطعام في النهار وفشت فيهم فاحشة الزنى وشرب الخمر وتعددت المناكر على اختلاف الاشكال والالوان .

هذه حالة المسلمين عموما في سائر العالم الاسلامي ، ومما ساعد على وجودها وتفاقمها تسلط الاستعمار على معظم البلاد الاسلامية وحيلولته بين المسلمين وقوام دينهم بشتى الاساليب المادية والفكرية، فلقد نجح الى حد بعيد الاستعمار الاوربي في رسم صورة شوهاء نكراء للدين الاسلامي في عقول الكثير من المسلمين واقناعهم بان لا مكان للدين الاسلامي في هيكل الحضارة العصرية .

هذا من جهة ، كما نجح من جهة اخرى في فصل شباب مستعمراته الاسلامية عن روح الاسلام وثقافته وهكذا تسنى له ان يضرب على عقولهم حصارا يحول بينها وبين معرفة حقيقة دينها وتراثها القومي النفيس وان يغزوها بمبادىء فلسفته المادية الضالة عن سبيل الحق والخير الضالة عن سبيل كمال الجمال .

ولم ينسحب المستعمر من البلاد الاسلامية المستقلة حتى خلف فيها من أهل البلاد جيشا يناصر فلسفته المادية بكل ما اوتي من قوة فكرية وعتاد مادي لا يومن الا بما آمن به المستعمر ويكفر بما وراءه فنتج عن ذلك ان البلاد الاسلامية المتحررة اخذت تعتمد في نهضتها على دعائم الحضارة الاوروبية الامريكية وتبني هيكل دولتها ونظامها على نفس الاسس وتقيم حياة مجتمعها على قواعد الحياة الاجتماعيةفي بلاد المستعمرين ولو كره الاسلام وانكر الدين .

فما هي وسائل الاصلاح ؟ وما هي الطريقة العملية الكفيلة بفصل بلاد الاسلام عن ركب الحضارة المادية وتوجيهها وجهة الحضارة الاسلامية الروحية .

ارى ان نقطة الابتداء هي في ان ينهج كل بلد اسلامي في الميدان الاقتصادي سياسة الاكتفاء الذاتي وذلك بان يكتفي كل قطر من هذه الاقطار بمحصوله الوطني مهما كان انتاجه ضئيلا وامكانياته ضعيفة فيقتصر باديء ذي بدء في مطعمه وملبسه ومسكنه على استهلاك محصولاته المحلية فلا يستورد من مواد الغذاء واللباس والاثاث والسكنى والزينة والرفاهية شيئا بتاتا ولو ادى به الحال الى خصاصة وحرمان ثم يسعى ويجد في التصنيع حتى يتمكن من كفالة نفسه بصناعة كل ما تتوقف عليه حياة انسانية كريمة راقية فيستغني حينئذ عن استيراد عتاده الفلاحي واجهزته الصناعية ومختلف الالات والادوات الضرورية .

اما وسائل الاصلاح والاسس والقواعد التي تقوم عليها حضارة روحية جديدة مغايرة للحضارة المادية الحالية ففي القرآن ذكرها وبيانها ، وقد اسهبنا فيها ضمن الفصول السابقة من هذا الكتاب اما خطة العمل فتتلخص في اخذ كتاب الله بقوة والعمل بأحكامه وتعاليمه بغض النظر عن كل اعتبار ومع الاعتقاد الجازم باستحالة وجود اي مبرر او مسوغ لما يخالف هذه الاحكام والتعاليم وبانها ليست غير مناقضة للحضارة فحسب بل وانها هي دعائم الحضارة الصحيحة .

وتنفيذا لهذه الخطة يتعين اولا واخيرا على رجال الدولة والسلطة في البلاد الاسلامية أن يقيموا حدود الله باقامة الحد على الزاني والزانية عملا بقوله تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تومنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المومنين »

ولا يحق لهم تغيير عقوبة الجلد التي فرضها الله ولا احلال عقوبة السجن او الذعيرة او غيرها من العقوبات مكانها لان ذلك حكم الله القائل سبحانه وتعالى : « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون» . كما يتعين عليهم اقامة الحد على كل شارب خمر مثلما كان يقيمه رسول الله صلى الله عليه وسلم واقامة الحد على السارق عملا بقوله تعالى : «والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله» ولا يحق لهم احلال عقوبة السجن على السارق بدلا من تنفيذ حكم الله فيه كما لا يحق لهم التغاضي عن انتهاك حرمات الله ولا اعفاء أي وجيه من الحد فالزاني مثلا يجب ان يجلد على مشهد من الناس مهما كان كبيرا وزيرا او اميرا او رئيس حكومة او دولة .

ثم انه يجب ان لا يتولى منصبا من مناصب الدولة ولا شأنا من الشؤون العامة غير مسلم يقيم الصلاة ويؤدي فرائض الاسلام ويخاف مقام ربه بعد ان يكون بقدر الامكان كفؤا للمامورية المعهودة اليه اذ انه لا يحل للمسلم ان يولي اموره الا مسلما مقيما لحدود الله فقد قال تعالى : « انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويوتون الزكاة وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون » .

وكل رجل من رجال السلطة وكل موظف من موظفي الدولة ينبغي ان يكون حقيقة مسؤولا امام رؤسائه عن كل انتهاك لحرمات الله يقع في نطاق نفوذه وحدود ماموريته وأن يحاسب على تقصيره في منع الخروج عن الآداب والاخلاق الاسلامية وعن تهاونه في زجر كل مخل بالتعاليم الدينية ولو كان باسم التطور

والرقي والموضة ويلزمه ان يجعل نصب عينيه دائما انه سيسأل امام الله عن ذلك كله .

وعلى الدولة يقع واجب تصحيح مفهوم الحضارة والرقي لدى الشعب ، وتعديل الصورة المرتسمة في عقول رعاياها للانسان المتمدين والتي تجعلهم يرون في الاوروبي والامريكي المثال الاوحد للرجل الراقي ويعتقدون كل خروج عن سنة الحياة الاوروبية او الامريكية وكل مخالفة لسلوكهما الفردي وتصرفهما الاجتماعي انما هو ابتعاد عن المدنية والرقي ، فيلزم رجال الدولة ان يسخروا جميع الوسائل والامكانيات لابراز محاسن ومساوىء الحضارة المادية ومظاهر الفشل الذي منيت به هذه الحضارة وسوء المصير الذي ينتظرها والمقارنة بينها وبين الحضارة الاسلامية والكشف عن جمال هذه الحضارة ومجالي سموها ورفعتها فيتعين عليهم ان يعبئوا اجهزة الاذاعة والصحافة والسينما والمسرح للتبشير بهذه الحقائق ولافهام المواطنين واقناعهم بان الرجل الراقي ليس هو كل من يسكن مسكنا فاخرا ويلبس لباسا انيقا ويمتلك سيارة من آخر طراز ويرتاد السينما والمراقص والمحافل والملاهي فان هذه الاشياء كلها تتيسر لكل ذي مال وان المال قد يؤتاه السافل والمجرم والخائن ومن يفسدون في الارض ولا يصلحون ، كما يتعين عليهم ان يبينوا لهم بكامل الوضوح أن الانسان الراقي هو الكثير الاحسان الى غيره على اختلاف صور الاحسان وتعدد وجوهه التي تجمعها عبارة التصرف بالجمال ولا يجزىء الدولة أن تقتصر على تسخير وسائلها وامكانياتها بل انه لمن واجبها ايضا أن تفرض رقابة صارمة على الصحافة والافلام والكتب وجميع النشرات المحلية والاجنبية متوخية منع رواج كل ما يتنافى مع حركتها الاصلاحية هاته .

فيوم يتم ذلك كله للدول الاسلامية يومئذ تسترجع البلاد الاسلامية حريتها في العمل والتقرير ولا تبقى مجرورة خلف البلاد الاوروبية والامريكية ، وبدلا من أن تظل مجرد حلقات في السلسلة التي تدور على عجلات مدفعية الحضارة المادية المخربة تتمكن يومئذ من ان تكون فيما بينها سلسلة تدير عجلات محراث يحرث سعادة الانسان الخالدة محراث يحسن « حرث الآخرة » .

هذه دعوة اوجهها الى كافة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها والى رؤساء الدول الاسلامية بكيفية خاصة مهيبا بكل ذي نفوذ وسلطان وبكل موظف مسلم في البلاد الاسلامية أن يتبع تعاليم الدين الاسلامي وان يعمل على اقامة حدود الله في دائرة اختصاصه واخاطب ضمائر أرباب الاقلام ان لا ينحوا منحى كتاب الحضارة المادية المستهترين بالاخلاق متوجها على الاخص الى كتاب القصص والى الشعراء والادباء ومنتجي الافلام السينمائية ان لا يزينوا الفاحشة مذكرا اياهم بانهم يحملون أوفر نصيب من الوزر المترتب على الانحلال الخلقي في البلاد العربية . انه لايجمل باحدهم أن يثير الغريزة البهيمية ولا ان يغري باقتراف الزنى تحت قناع الحب والغرام ولا ان يسعى في حمل المحصنة على أن تصبح عشيقة رجل ثان فهو عند ما يفعل شيئا من ذلك يخون الامانة وينقض العهد فان رسالته على عكس ذلك تقتضيه أن يجعل من العشيقة خطيبة ومن الخطيبة زوجة صالحة وان يستدرج الزانية الى ان تصير محصنة كريمة واما رؤوما .

وما كان ليصرفني عن توجيه هذه الدعوة ولا ليصدني عن الجهر بها وتكرارها ما قد يجد فيها بعض الناس من بساطة وسذاجة أو رجعية فما كان الحق الا بسيطا وان كانت الرجعية تعني الرجوع الى الله فانا أول الرجعيين .

هذا علاوة على انني لا ابتغي بهذه الدعوة جاها ولا مالا ولا سمعة ولا شيئا من عرض هذه الحياة الدنيا حتى اهتم قليلا او كثيرا لآراء الناس فيها او اتملق بها حكمهم علي ، فغايتي الاولى والاخيرة من هذا الكتاب كله هي توجيه هذه الدعوة استكمالا لديني ولن يردني عنها بحول الله لا وعد ولا وعيد بعد ان تبين لي ان اسلامي لا يتم الا بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهل يسوغ لمن يغض طرفه عن المناكر التي يخم بها وسطه وعصره أن يعد نفسه مومنا وهو يقرا تعريف المومنين ضمن قوله تعالى في سورة التوبة: « والمومنون والمومنات بعضهم أولياء بعض يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويوتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم » . ويتلو تعريفا آخر للمومنين ضمن قوله تعالى في نفس السورة : « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المومنين » ثم يتلو قوله تعالى : « كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله » ثم اخيرا يتلقى امره تعالى : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون » .

الايمان والاسلام

للأستاذ الرحالي الفاروقي

الايمـــــان بالله وحده هو قـوام الحيـاة الدينية ، واساس الوحدة العملية ، وكل عمل صالـح فهو مبني عليه وجار على مقتضاه ، فلا حقيقة للطاعـة بدونه ولا فائدة فيها عند عدم اعتباره .

الا ترى ان معنى العبادات والتقربات التوجه الى المعبود بالخضوع والتعظيم بالقلب والجوارح وهـذا فرع عن وجود هداية الايمان الذي هو نور يقذفه الله في القلوب ويحيي به ما مات من النفوس ، فتـومـن بقوة الله عن يقين ، وتذعن لاحكام الله عن اختيار ثم تتجه في الحياة اتجاها عمليـا صحيحـا يترتب عليـه نهضة واستقامة وثقافة ، وذلك ما يسمى حقـا باسم الاسلام ويصدق عليه حكم الايمان .

ولا تقبل همة المومن الصادقة ان ترتد عن طبيعة الايمان ولا ان تتاخر عن مسئولياته ارضاء لله ولرسوله **« والله ورسوله احق ان يرضوه ان كانوا مومنين »**

فالايمان عامل مهم في تركيز الوحـدة الفكريـة والعملية ، ووازع قوي يصون المجتمع من بدائع التفرقة ويقيه من متاعب الظلم ولا يدع المنكر يتسرب اليه الا قليلا تهتز له الضمائر ويتوجس صاحبه خيفة . وهذا ماكان في صدر الدعوة الاسلامية ، فقد آمـن بها رجال اخلصوا دينهم لله وجاهـدوا بعزيزهم ونفيسهـم في سبيل الله ولم يبخلوا بمادتهم ولم يستسلموا لعدوهم وظلوا في الميدان حتى ظهرت معالم الايمـان واختفت معاهد الكفر والطغيـان **« ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز »** ، فلـو تحرك المومنـون في اطـراف الارض كما يامرهم ايمانهم وقويت في امر الله عقائدهم وعزائمهم لما كان الفساد متراكما على وجه الارض ولما كان التمرد والتحلل متعارفا بين الناس .

ولكنهم تواكلوا وتكاسلوا وكفروا بمفهوم الايمان **(ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الآخـــرة من الخاسرين)**

وحياة الاسلام تتسم بالعزة والكرامة ، وتعـرف بالعلـم والاستقامـة ، وليسـت حيـاة اللهـو واللعب والغرور ، ولا حياة التبعية والتقليـد ، فان الاسـلام يحذر من الوقوع في مثلها ، ويصرف المسلمين عـن ساحتها ، ويعلق هممهم بما هو خير وابقى .

ونهضة الاسلام تقوم على متانة الايمان وصحـة الاخلاق وصراحة الدعوة وتلك خطة المرسلين ، ودعوة المتقين ، فقد امر النبي صلى الله عليه وسلم بالتبليـغ عنه ولو آية ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثـا ولا يتصدى لهذا الامر الا مومن صادق وصريح .

وتبليغ السـنن الى المومنين خير من تبليغ السـهام الى نحور المعتدين ، فان تبليـغ السهام يفعله كثير من الناس ، واما تبليغ السـنن فلا يقوم به الا ورثة الانبياء وخلفاء الرسل وقليل ما هم .

ومن اجل ذلك اوحى صلى الله عليه وسلم الـى علي رضي الله عنه بقوله (لان يهدي بك الله رجـلا واحدا خير لك من حمر النعم) واكد عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا المعنى في الخطبة التي ذكرها ابـن وضاح في كتاب الحوادث والبدع (الحمد للـه الـذي امتـن على العبـاد بان جعل في كـل زمـان بقـايـا من اهل العلم يدعون من ضل الى الهدى ، ويصبرون منهم على الاذى ، ويبصرون بكتاب الله اهـل العمى ، كم من قتيـل لابليـس قد احيوه وضال قـد هـدوه ، بذلوا دماءهم واموالهم دون هلكة العبـاد فما احسن اثرهم على الناس وما اقبح اثر الناس عليهم .

ان كل صلاح وسداد اصله متابعة التوجيه الالاهي ومواطاة التشريع السماوي وكل ضلال وفساد فسببه الشرك بالله والالحاد فى آياته ، والاستهزاء بكلماته .

فاما توحيد العقيدة والملة فيترتب عليه طبعا تقارب القلوب وترابط الصفوف ، وتناسب الحياة والعيش ، وتناسق الفكر والعمل ، واما اذا تعددت الآلهة وتكاثرت الارباب او اختلفت الاسماء ، واتبعت الاهواء ، فان الاتجاهات تختلف والمصالح تتعارض والقوى تتقاسم وينشأ عن ذلك اللدد والخلل وابتسامة النفاق ويتبعها اراقة الدماء واكتساح الاموال واستباحة الاعراض والاستهانة بالمقدسات والحرمات كما هو جار فى نزاع اهل الاهواء المستبدين ، وادعياء الاصلاح المبتدعين ، وكان لتحقيق دعوة الاسلام مرحلتان : مرحلة الايمان وهي مرحلة النظر الممكن فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء حتى يكون ايمان المرء عن علم وبينة بحيث لايساوره شك ولا يداخله ريب فيما يأتيه من الحياة العلمية والعملية ، واذا حل هذا الايمان فى القلب وثبت نوره فى النفس استلذ صاحبه كل محنة فى سبيله ، واحتمل كل مكروه من اجله ــ وبعد قطع المرحلة النظرية يأتي دور التجربة العملية اي دور العمل الصالح الدائم ولها اطوار يأخذ بعضها ببعض : طور التصميم والانشاء ــ انما الاعمال بالنيات ــ وطور الانجاز والبناء « **ولا تبطلوا اعمالكم** » وطور التكييف والانماء ــ ولكل امرىء مانوى ــ وعلى هذا المساق جاء جواب الرسول المسلم صلوات الله عليه وسلامه لمن قال له قل لي فى الاسلام قولا لا أسأل عنه احدا بعدك فقال : قل آمنت بالله ثم استقم واصله قول الكتاب الحكيم « **ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون** » فأما الايمان من غير ممارسة عمل ففكرة عقيمة ، لاوزن لها ولا قيمة ، واما العمل بدون ايمان وبدون علم فلا يوثق به ولا يعتمد عليه لانه معرض لأخطار الشك والشرك والفساد .....

هذا وان القرآن دستور الاسلام ، وقانونه العام ، وكتابه المحفوظ ، يستمد المسلمون منه كل قوة وسياسة فى حياتهم ، ويرجعون اليه فى حل مشاكلهم ومعاضلهم ، فهو شارع النجاة ومحجة الفوز والمامن من كل فزع وخوف ، وهو قانون لا يشتبه بغيره ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، اساسه ان الانسان لايتقدم الا بسعيه واجتهاده ، ولا ينال الدرجات العلا الا بصالح اعماله ، ولا يستوي عالمه وجاهله ، وقد فصله الله للعباد تفصيلا ، وبينه الرسول للناس تبيينا ، وكان خلقه ودينه يعرضه على حياته ويثبت وصاياه فى نفوس اصحابه ، حتى تمتزج بلحومهم ودمائهم ، وتدخل فى اقوالهم وافعالهم ، وقد قسا كفار قريش فهجروه وعارضوه حتى قال الرسول ــ **يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا** ــ والمسلمون فى اوائل عهدهم ساروا على منهاج هذا الكتاب فطاعت لهم الدنيا ولاح لهم فجر الفلاح ونصروا الله به فنصرهم ، واقاموا حدوده وعهوده فاستخلفهم، وعرفوا المعروف وانكروا المنكر فرفعهم ، وحفه الاولون بجهادهم وصدق ايمانهم ، فكان كلما تلقى صدمة من الكائدين له هب الحماة لنجدته ، واسرعوا لرد الهجوم عن ساحته ، بحججهم القاطعة ، وسيوفهم القارعة ، من دون تردد ولا تلعثم ، وما نشأت حروب الردة بعد موت الرسول الا لشح الاقوياء على الضعفاء ، والا للتفرقة بين حكم الصلاة وحكم الزكاة ، والقرآن لايفرق بينهما ولا يعترف بشح الأخ على اخيه فتراه فى نصوصه يربط بين الطبقتين برباط الود والولاء ، ويقيم بينهما ميزان العدل والاخاء ، وتضمن كل وسيلة من وسائل التقرب والتفضل كما قال تعالى « **ولا تنسوا الفضل بينكم ان الله بما تعلمون بصير** » .

ومن شأن ذلك ان يؤكد دعائم الحياة الناعمة ، ويوفر اسباب السعادة الدائمة ، وانما ينصر الله هذه الامة بضعفائها بصلاتهم ودعائهم واخلاصهم ، ــ وما نشبت حروب الشراة الا لتركهم طاعة الامام وجرءتهم على الدين ، واستحلالهم قتال المسلمين ، ــ وقد اخبر عنهم النبي بقوله ــ لاترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ــ هاكذا كان الاسلام له انصار واشياع يدفعون عنه كل مايعرض مما يخبث وجهه ويلطخ سمعته او يطيحه ويودى بحياته والله مؤيدهم وناصرهم . . .

ولم يكن المومن المسلم يتصور فى اي وقت مضى نكبة الاسلام الحاضر بين اهله وذويه ، ولا كان يتوقع ما فوجيء به من صفع وصفق وقساوة وتاويل والحاد ولا ما اصاب اولياءه على قلتهم وغربتهم من سوء وضرر ومعاكسة ، فالدعائم الروحية والاخلاق المستوية تنهار قصدا وتتهاوى يوما فيوما « **واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يومنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون** »

والخطايا الرئيسية كالدعارة والخمرة والشره قد استفحل امرها واستحكم داؤها وسرى مفعولها في الناس سريان الماء في العود أو النار في الوقود ، والحانات تتفتح ابوابها ، وتتعدد مواقعها ، والناس احرار فيما يشتهون ويشربون لادين يمنعهم ولا قانون يزجرهم — والطموح الى اعتناق مذاهب تتزعمها الشيوعية الغادرة ، او الراسمالية الفاجرة ، يزداد ويتوسع في حين ان مذهب الاسلام اسلم ، ومدخله اقوى واحكم ، والكتاب مهجور ومنبوذ لاتستشار احكامه ، ولا تعتمد حدوده ، ومعانيه نابية عن الافهام بعيدة من القلوب ، ومساجد القرآن اغلقت ابوابها واخمدت انفاسها وهي التي تعلم كتاب الله وتحفظ نور الايمان وتشد أزر الدين ، والقضاء آمن ببعض الكتاب وكفر بالبعض الآخر فالأحوال الشخصية شرعية وما سواها من القضايا عصرية ، ونحن متمادون في غينا مستمرون في عوجنا لانعبأ بالأمر والنهي ولا نسمع الى النصح والرشد ولا نرى الفضيحة عيبا والرذيلة عارا ، — والداخل في الشيء لايرى عيبا ولا خطأ وانما يرى العيب والخطا من دخل في الشيء ثم خرج منه ومن اجل ذلك كان الصحابة الذين دخلوا في الاسلام بعد الكفر خيرا من الذين ولدوا في الاسلام كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه — انما تنتقض عرى الاسلام عروة عروة اذا ولد في الاسلام من لم يعرف الجاهلية — فعلى المربوطين بعهد الاسلام والمومنين بدعوة الحق ان ينهضوا ويعملوا على الاخذ بسياسة التعريب في جميع المدارس والمصالح ويستردوا الحكم العربي المنزل من السماء الى اصله ونصابه ، ونعم السند الذي لايضيق عن المقتضيات الحضارية والسعادة البشرية بما يملكه من القوة الروحية ، والمقومات الطبيعية ، والخصائص الاصلاحية ، ويكفي ان تكون قابلية لدراسة الاسلام وسهر على فهمه وتطبيقه ، والمام بما تقلب فيه عن اطوار سياسية وحضارات ذهبية وان يروض المرء نفسه على قبول الحق ومعرفة الاشياء من طرقها الطبيعية ولا يركب الجهل والعناد ، ولا يركن الى الظلم والفساد ، ولو ان قومنا كانوا على ابلغ حجة واقوى سلطان ما تعلقوا بالعلائق الاجنبية ، ولا تخلقوا بالاخلاق البعيدة ، التي كادت تقضي على سلطتهم المعنوية ومميزاتهم الشخصية ، ولثبتوا على امرهم ولو احاط بهم ما احاط من جواذب الشهوات واكاذيب الشبهات ، ولكنهم ابتعدوا عن طريق الحق وخرجوا عن حد الاعتدال ، فاللهم كن حفيا بنا ووليا لنا واهدنا الى ما يعتمد ، وارنا ما يقتصد .

التعلم قبل الرئاسة

عن عمر رضي الله عنه قال تفقهوا قبل ان تسودوا قال الخطابي يريد من لم يخدم العلم في صغره استحي ان يخدمه بعد كبر السن وادراك السؤدد ، قال وبلغني عن سفيان الثوري قال من تراس في حداثته كان ادنى عقوبته ان يفوته حظ كبير من العلم .

وعن ابي حنيفة رضي الله عنه قال : من طلب الرياسة بالعلم قبل اوانه لم يزل في ذل ما بقي ، وقيل للمبرد لم صار ابو العباس يعني ثعلب احفظ منك للغريب والشعر لا قال لانى تراست وانا حدث . وتراس وهو شيخ .



بيت اولاد يعقوب ما بيتوا للفتك باخيهم يوسف وما دروا ان تصميمهم يقابله تصميم الاهي يقضي بان تصميمهم سيكون السلم الذي يعرج بيوسف الى عز لم يكن يحلم به وفي مثله يقول المثل (يدبر المدبر والقضاء يضحك) هذا ما كان من امر التصميم البشري ازاء التصميم الالهي (والله غالب على امره ولكن اكثر الناس لا يعلمون) استهداء بربح يوسف

(واذا ما النسيم كان دليلي
لم يخلني سوى على الازهار)

اقول ان الزمان املى علينا فيما يملي ان القرآن همس ثلاث مرات في منتصف هذا القرن في اذن المسلمين فهل من مذكر ؟

مرة في قضية بطل الريف محمد عبد الكريم الخطابي .

ومرة في قضية بطل الاستقلال الذي فتح الله على يده باب التحرر الذي استعصى على غيره فاصبحنا تحت ظل البنود بعد ان كنا نرسف في ذل القيود .

والمرة الثالثة في قضية العدوان الثلاثي ذلك العدوان الذي شاهد فيه العالم من مشارقه الى مغاربه الى اين يهوي شيطان الاستعمار باتباعه بحيث اصبحوا والناس يتلون لرؤيتهم (واتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) اجل ان هذه الحادثة لم يعهد لها في حوليات التاريخ نظير . رمزها في الموضوع الذي نحن فيه البطل الرئيس جمال عبد الناصر .

فلننظر الان ماذا كان موقف كل واحد من الابطال الثلاثة في الامتحان الذي امتحنوه بعد العلم بان الابتلاء والامتحان هو من جملة السنن التي سنها الله للجنس البشري في هذه الحياة الانبياء فمن دونهم : (ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم الباساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم) واجمع الايات في هذا الباب قوله جل ذكره (وهو الذي خلق السموات والارض في ستة ايام وكان عرشه على الماء ليبلوكم ايكم احسن عملا) . لم تكتف هذه الاية بان تجعل الابتلاء سنة من السنن الالهية حتى جعلته علة لوجود البشر في هذه الحياة .

ترتيبا للحوادث ترتبها في الزمان ابدا بقضية بطل الريف فاقول : هل هذا الجيل يعرفون العدوان الثنائي الذي شابت له نواصي الريف عدوان شنته اسبانيا تحت قيادة الخنرال سلفستر وفرنسا من جهتها زحفت جيوشها تحت قيادة جنرالات ياتمرون بامر المرشال ليوطي المقيم اذ ذاك ، اذا كان ضعيفان يغلبان قويا فما القول بقويين يقابلهما رئيس بعض القبائل ، فكان ما لا مناص منه من القبض على بطل الريف ونفيه الى جزيرة لاريونيو مع اسرته ، لكن بعد ان ذاق الاول الخنرال سلفستر مرارة الاندحار امام قبائل الريف البواسل على ما بهم من قلة في العدد والعدد كاني بعبد الكريم يودعه بقوله :

انا اقتسمنا خطتينا بيننا
فحملت برة واحتملت فجار

واما الاقامة العامة وعلى راسها المشير ليوطي فكان هدف تصميمها ضم قسم من الريف الى مـــا في قبضتها في حين ان التصميم الالهي قضى عليها ان تفقد في النهاية الاثنين معا القسم المرجو من وراء غزو الريف ومجموع المنطقة المعدودة في عرف الاستعمار من جملة ما اطلق عليه : « فرنسا ما وراء البحار » مما ذكرني قول القائــــل :

ذهب الحمار ليستفيد لنفســـه

قرنا فـآب وليـس ذا اذنيــن

وذلكم كان السبب في خروج ليوطي من المغرب وكان اهون عليه ان تسل منه مقلتاه من بين الاشفار ولا الخروج من فردوس المغرب وبعد خروجه ببعض سنين شاءت الشهامة الاسلامية والكرامة العربية ان تحركت ريح التحرر واخذت تنفخ في القـــلاع وزاد في حيرة القوم ان الملك نفســه هو ربان هذا الفلك فدبروا فيما دبروا نقل عبد الكريم والمجيء به من منفاه الـــى فرنســا بمقربة من المغرب تلويحا للملك من طرف خفي بامكانية اجلاس عبد الكريم على العرش ان هو تمادى على معاكسة الاقامة العامة والمعارضة لمشاريعها وكان في تصميم الاستعمار ان يكون سفر عبد الكريم على طريق راس الرجاء وشواطىء افريقيا الغربية تفاديا من تحدي الدول العربية بالمرور عبر قناة السويس فاجابهـــم التصميم الالهي بان السفر انما يكون مع الطريق الذي تجنبوه اعني طريق الســويس وان من شق البحر لكليمه موسى عليه السلام سيفتح فيه لعبد الكريم طريقا يهديه للتخلص من ايديهم ومن المعرة التي ارادوا ان يلطخوا بها السمعة التي سجلها له التاريخ وكذلك كان مر عبـــد الكريم المجاهد مع قناة السويس وشاءت الاقـــدار ان ينزل ضيفا على الحكومة المصرية حيث هو الان في ظل ظليل موفور الكرامة رفيع الذكر في عموم الديـــار الاسلامية زد على ذلك عطف ملكه الذي حقق الله على يده الامنية التي ناضل عليها فجاءت نجاة عبد الكريم مصداقا لقوله جل ذكره (والذين قاتلوا في سبيل الله فلن يضل اعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم) واما خصماه من اسبان وفرنســيين فلا الحمد مكسوبا ولا المال باقيا.

انتقل الان الى الكلام على الحادثة الثانية حادثة بطل الاستقلال مطلع فجره ومهب نسيمه الملك الموفق محمد الخامس وشرح الحال ان المرشال جوان سولت له نفسه ان وجود مشير مثله في المغرب فرصة يجب انتهازها لفتح عهد جديد لابناء وطنه في المغرب وذلك بتشريكهم في السيادة على ما في ذلك من خرق صريح لعقد الحماية ولعلها فكرة قديمة ورثها عمن قبله فجهر بما عزم عليه في عام 1951 واخذ يتقدم بالاقتراحات بعد الاقتراحات مما سرعان ما ادى الى اضطراب الحبل بين القصر والاقامة العامة اقتراحات كان الجناب العالي يجيب عنها باناة ما دامت هذه الاقتراحات في دائـرة الجزئيات واما ما كان من المطالب التي من شانهمـا ان تؤدي الى ارتهان مستقبل الوطن فكان جواب الملك على تكرار المراجعة من طرف الاقامة ان ميثاق البيعة التي بيني وبين رعيتي لا يسمح بذلك بلغ الفسر ما بلغ فكانت العاقبة ان اخفق مسعى جوان للسبب الذي افشيـــه للقراء وهو ان جوان عندما هاجم القصر كان يظـن ان النزاع يبقى منحصرا فيما بينه وبين الملك ولكن الملك توفق الى تشريك الهيئة الوزارية باجمعها في التوقيع على التقرير النهائي الذي نشر في الفد 26 فبراير في صورة « البروتكول » بعد ان ابرق القيم وارعد لما لاحت له علامات الهيئة المخزنية جمعاء وهو يقول في امتعاض ما شان الوزراء في هذه النازلة . نائب فرنسا يتكلـم راسا ومباشرة مع الملك وفي النهاية لانت قناته وراى من الصعب بل من الممتنع عليه ان يستقل القوة ضد جميع الوزراء خصوصا وان فيهم وفيهم امام هذا الاخفـاق المرير . امهلته دولته ردحا من الزمن من باب التعمية للفكر العام ثم خرج من باب اضيق من البـاب الذي خرج منه ليوطي كما يقول المثل العامي : خرج وترك الزغـب في الباب .

فخلفه على راس الاقامة العامة الجنرال كيوم الذي جاء لا يحمل شيئا زائدا في حقيبته بعد الوصية بالاخذ بالثار لعسكري مثله اهينت كرامته وخسفت سمعته وسمعة العسكريين معه فاخذ من حينه يفتل في الذروة والغارب زمنا ثم ما لبث ان كشف الكير عن خبث الحديد فاصبحنا لا نرى ولا نسمع منه ومن حاشيتــــه الا الغطرسة والمفاضحة وما كفى ذلك حتى اخرجت الاقامة العامة اثقالها من مصفحات ودبابات مختلفة الحجـم والعيار الى طائرات تصيفها يملأ فضاء القصر بالرغـم من هذا كله راى وهو يكاد يتميز من الغيظ امواج غيظه تتكسر الواحدة بعد الواحدة على صخرة ارادة ملك اتخذ التمسك بالمبادىء دينا وديدنا تلك الارادة التي اعيت تدابير جوان وزملائه ؛ ولكن عز على القوم وكبر عليهم ان ينهزم جنرالان كما صرح به بيدو وزير الخارجية يومئذ فبدا لهم من بعد ما راوا الايات ليسجننه حتى حين وآل الامر الى ابعاد الملك وفصله عن مقر عرشه بنقله الـى مدغشقر وفاتهم ان ابن يوسف يدعو الى الخير حتى في

السجن اسوة بيوسف الذي يقول عنه سبحانه (يا صاحبي السجن آرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار) وفعلا استبدل جنابه النشاط الدنيوي الذي حيل بينه وبينه بنشاط روحي تتجلى فيه الهمة الاسلامية وشرف المعدن فكان من حوله يرى فى شخصه احسن قدوة فى الوفاء لشعبه الى غيرة قعساء على شرف الملك ويرحم الله الشافعي حيث يقول :

همتي همة الملوك ونفسي
نفس حر ترى المذلة كفرا

ولست افشي اليوم سرا ان قلت ان الى جانب الدعوة الى الخير كانت دعوة اخرى تفوح من اعطاف الجناب الشريف تتجلى فى حركاته وسكناته والملابسات السياسية التي كانشبحها لايفارقه طرفةعين خصوصا فى حق ملك خبر الاستعمار واختبره واستبطن بواطنه وعرف الاهداف البعيدة التي يرمي اليها والتي ينم عنها قول احد مؤرخيهم اوجين كاط فى كتابه « تاريخ افريقيا الشمالية » ونص ما جاء فيه (ان النظام الاستعماري الفرنسي فى افريقيا يحذو حذو النظام الروماني الذي رسم خطة له : تصيير الاهالي مجرد مزارعين عند الحكومة)

ماذا كانت نهاية المنفى ؟ اصدق وصف له انه انتهى بما انتهت به الهجرة ، فتح مكة كان نتيجة الهجرة ، والاستقلال وخلع خرقة الاستعمار كان نهاية المنفى ، ما اشبه الامس باليوم مما ذكرني – بحكم ان الشيء بالشيء يذكر – قول القائل :

تذكرت لما ان رايت جبينها
هلال الدجى والشيء بالشيء يذكر

تلكم كانت عقبى التصميم الالهي وتلكم كانت عاقبة التصميم البشري وما كنا عن الخلق غافلين – والله غالب على امره ولكن اكثر الناس لا يعلمون .

بقيت الآن القضية الثالثة هي قضية العدوان الثلاثي على قناة السويس : كان من قبيل المستحيل ان تناهض مصر دولتين عظيمتين وما شاء الله من دويلة بريطانيا العظمى وفرنسا وصهيون ، ومن وراء الاكمة بل من وراء البحار ما وراءها ، وبالرغم من هذا وذاك فان رجال الثورة وعلى راسهم البطل جمال عبد الناصر تناسوا كل شيء فى هذا الموقف الخطير الا قوله تعالى : الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل . نعم وفضل لانهم بفضل هذا العدوان امموا جميع المؤسسات والعمارات والممتلكات الفرنسية والانجليزية مما يجد القارىء احصاءه فى كتاب بنوي ميشان الذي سماه ربيع عربي فانتهى العدوان هنا ايضا بما انتهت به غزوة الاحزاب : ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المومنين القتال .

الخلاصة يرحم الله القائل بان التاريخ هو عمل الرجال الذين يصلون الى الغايات لا فى منتصف الطريق ولا فى ثلثه .

ذهب محمد الخامس فى نزاعه مع فرنسا الى النهايات بما فى ذلك من مخاطرة ومغامرة مسترخصا لكل غال ونفيس ، لما وصل مع القوم الى حيث انقطع الرجاء من المخلوق وجد الخالق وهو سبحانه وتعالى يقول له وفيت لشعبك فها انا وفيت لك اوفوا بعهدي اوف بعهدكم ، دخلت المعترك مدخل صدق فخرجت مخرج صدق وللذين احسنوا الحسنى وزيادة والزيادة هي استقلال مدغشقر ايضا .

وكذلك القول فى جمال عبد الناصر ، وصل مع المتحالفين الى النهاية الى حيث انقطع الرجاء من المخلوق فوجد الخالق الموجود فى كل مكان جريا على المعهود من سنة الله : حتى اذا استياس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا جاءهم نصرنا .

ويرحم الله القائل : ان لله فى كل جيل شئونا يبديها يدفع مدبرا بمقبل ومبطلا بمحق وفرعونا بموسى ودجالا بعيسى فلا تستبطىء .

موقف الإسلام من تولية أهل الذمة والأجانب في شؤون الدولة الإسلامية

للأستاذ : محمد الطنجي

قد اصبحت فكرة مغربة الادارة مهمة خاصة مضافة الى وزير الوظيفة العمومية فى الحكومة الحالية ، وهذا الاتجاه الجديد كان نظرا واملا من آمال الوطنية الصادقة ، فاخرج الآن الى حيز العمل والتطبيق ، وصادف فى واقع حياة المغاربة استحسانا كبيرا ، نرجو ان يتبع فى القريب بمهمة تعريب الادارة ، حتى تصير ادارة مغربية عربية بمعنى الكلمة التام .

ويجمل بنا ازاء هذا الطور الانتقالي فى المغرب ان نلقي نظرة عابرة خاصة على نظر الاسلام وعمل سلفنا الصالح فى تخصيص اعمال الولايات الاسلامية باهل الاسلام النزهاء ، دون الاجانب الدخلاء ، فمن المعلوم ان الوظائف امانة يجب ان يختار لها اكفاء هذه الامانة الذين يؤدونها على وجهها ، اما من تدينوا بانه ليس عليهم فى الاميين سبيل فلا وجه لتكليفهم باي شيء من الشؤون التي لا يرون من الحق اداء الامانة والنصيحة فيها ، وقد مر على المسلمين فى عهد الفتوح الاولى قبل تمكن المسلمين من ضبط الدواوين اطوار كانوا فيها شبه عاجزين عن ادارة شؤون ولاية الخراج وضبط اعمال الدولة ، فكان ائمة الاسلام يعملون جهدهم حتى لا يتولاها الا مسلمون امناء مخلصون ، فروى الامام احمد عن عمر رضي الله عنه قال : لا تستعملوا اليهود والنصارى فانهم يستحلون الرشاء فى دينهم ولا تحل الرشاء .

وروى الامام احمد باسناد صحيح عن ابي موسى قال : قلت لعمر رضي الله عنه : ان لي كاتبا نصرانيا ، قال مالك قاتلك الله ، اما سمعت الله يقول : يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض ، الا اتخذت حنيفا قال : قلت يا امير المومنين لي كتابته وله دينه ، قال لا اكرمهم اذا اهانهم الله ، ولا اعزهم اذ اذلهم الله ، ولا ادنيهم اذ اقصاهم (أي ابعدهم) الله ، انتهى كلامه وذكر فى كتاب الآداب الشرعية ما جرى بين خالد وعمر حيث : كتب اليه خالد ابن الوليد ، ان بالشام كاتبا نصرانيا لا يقوم خراج الشام الا به ، فكتب اليه لا تستعمله ، فاعاد عليه السؤال وانا محتاجون اليه ، فكتب اليه مات النصراني والسلام ، يعني قدر موته ، ولهذه المبالغة فى الاحتياط ما يبررها فى ارض الشام كما ذكر فى تعليل هذه النفرة منهم ، فان النصراني بالشام يتدين بخذلان الجند وغشهم ، يرى انهم ظالمون ، وان الارض مستحقة للنصارى ، ويتمنى ان يتملكها النصارى ، وذكر عن صلاح الدين واهل بيته انهم كانوا يذلون النصارى ولم يكونوا يستعملون منهم احدا ، ولهذا كانوا مؤيدين منصورين على الاعداء مع قلة المال والعدد ، وانما قويت شوكة النصارى والتتار بعد موت العادل ، حتى قام بعض الملوك اعطاهم بعض مدائن المسلمين ، وحدثت حوادث بسبب التفريط فيما امر الله به ورسوله .

وروى احمد والنسائي وعبد بن حميد وغيرهم : لا تستضيئوا بنار المشركين ، ولا تنقشوا فى خواتمكم عربيا ، اي لا تستشيروهم ولا تاخذوا آراءهم ، جعل الضوء مثلا للراي عند الحيرة ، وقوله ولا تنقشوا فى خواتيمكم عربيا قال الحسن اي لا تنقشوا فيها محمدا، وفسره غيره محمد رسول الله لانه كان نقش خاتم النبي ، وذكر الشيخ الرهوني فى حاشيته على الزرقاني فى باب الوكالة نقلا عن اللخمي ما نصه ، قال مالك فى كتاب ابن حبيب : ولا ينبغي للحافظ لدينه ان يشارك الا اهل الدين والامانة والتوقي للخيانة والربا والتخليط فى التجارة ولا يشارك يهوديا ولا نصرانيا ولا مسلما فاجرا الا ان يكون هو الذي يلي البيع والشراء والمال

ولا يلي الآخر فيه الا البطش والعمل . واذا كانت الوصية بهذا الاحتياط في الامور الخاصة فاحرى ان يحتاط في الامور العامة وعلى هذا نذكر ما نقله الحافظ ابن عبد البر عن ابن القاسم : سئل مالك عن النصراني يستكتب؟ قال لا ارى ذلك ، وذلك ان الكاتب يستشار ، فيستشار النصراني في امر المسلمين ؟ ما يعجبني ان يستكتب . وذكر ابن عبد البر انه استاذن على المامون بعض شيوخ الفقهاء فاذن له فلما دخل راى بين يديه رجلا يهوديا كاتبا ، كانت له عنده منزلة وقربة لما يصرفه فيه ويتولاه من خدمته ، فلما رآه الفقيه قال : وقد كان المامون اوما اليه بالجلوس فقال : اتاذن لي يا امير المومنين في انشاد بيت حضر قبل ان اجلس ، قال : نعم ، فانشده :

ان الذي شرفت من اجله
يزعم هذا انه كاذب

واشار الى اليهودي فخجل المامون ووجم ، ثم امر حاجبه باخراج اليهودي مسحوبا على وجهه، فانفذ عهدا باطراحه وابعاده ، وان لا يستعان باحد من اهل الذمة في شيء من اعماله .

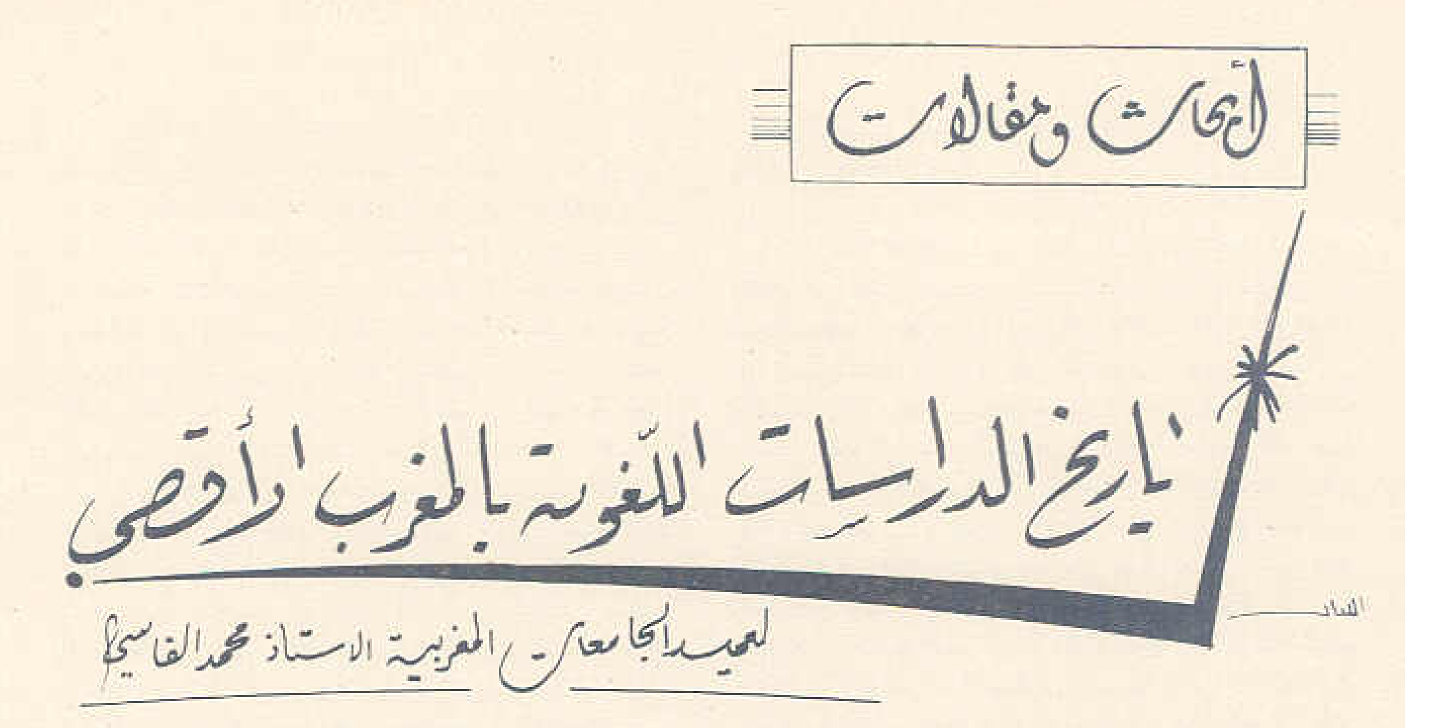
هذا وان مغربة الادارة التي كلف صاحب الجلالة بها وزير الوظيفة العمومية لتحقق جزء هاما من انظار السلف في عدم تولية الذين لا يخلصون النصيحة للمسلمين من الاجانب ، خصوصا الذين وقعت الشبهة القوية في عدم اخلاصهم ، على ان بعض الصهاينة الذين يكونون جمعيات سرية لمساعدة دويلة اسرائيل على طرد العرب من ديارهم وتشريدهم في الآفاق هؤلاء يجب اخذ الحيطة والحذر من اعمالهم ، فان المغاربة المسلمين متضامنون مع العرب وجامعتهم العتيدة كل التضامن .

ومن السهر على مصالح الامة العليا ان لا يسند تدبيرها الا للمخلصين من ابناء الامة ولا تسند لغير المخلصين ، فاحرى واولى في الاحتياط ان لا تسند لغيرهم ممن لا يوثق بهم ، وعلى هذه الاسس السليمة بنيت قواعد الادارة السليمة في الدول الاسلامية على مختلف العصور ، وكل المسلمين يومنون بقول الله تعالى يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يالونكم خبالا ، ودوا ماعنتم — والخبال الشر والفساد — وقوله ودوا ما عنتم ، اي يودون ما يشق عليكم من الضر والشر والهلاك ، ثم قال الله تعالى : قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم اكبر ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون .

وفي هذا الحديث بيان لمن سال عن موقف الاسلام من اعمال بعض الصهاينة في المغرب والله ولي المومنين .

نظر المامون في الاخوان

قال المامون ان الاخوان على ثلاث طبقات كالغذاء لا يستغنى عنهم ابدا وهم اخوان الصفاء ، واخوان كالدواء يحتاج اليهم في بعض الاوقات وهم الفقهاء واخوان كالداء لا يحتاج اليهم ابدا وهم اهل الملق والنفاق لا خير فيهم .



الحمد لله وحـــــــــــده

ان من يتتبع تاريخ الثقافة العربية فى البلاد المغربية وما انتجه علماء المغرب فى مختلف فروع المعرفة ، يدركه العجب من عظم اهتمامهم بالبحوث اللغوية والنحويـــة والصرفية ، مما يطلق عليه اسم علوم العربية ، ومن كثرة انتاجاتهم القيمة فى هذا الباب .

وفى الحقيقة لا غرابة فى هذا ، لان عرب المغـــرب ـ بابتعادهم عن موطنهم الاصلي ـ كانوا يتشبثون بلغتهم ويحدبون عليها ، ويخافون عليها من الفساد والاختلاط باللهجات التي كانت سائدة قبل الفتح الاسلامي باسبانيا والمغرب فاقبلوا على دراستها وتعليمها ونشرها بالتاليف وضعا وشرحا وترتيبا ونقدا واختصارا للمؤلفات التي كانت تصدر بالبلاد المشرقية .

وقد اشتهرت مؤلفات الاندلسيين فى هذا الشان خصوصا فى نهضتنا الحديثة حيث اقبل العلماء فى كافة البلاد العربية على دراسة ما خلفه عرب الفردوس المفقود من آثار علمية وادبية ، لذلك اريد ان اخصص حديثي اليوم بتاريخ الدراسات اللغوية فى المغرب الاقصى ، لان هذه الناحية مجهولة اليوم بالبلاد المشرقية ، لما طرا على علائقنا فى القرن الاخير بسبب السدود والحواجز التي كانت المطامع الاوروبية اقامتها لقطع الصلة بين جناحي العروبة المشرقي والمغربي . والا فان هذه العلائق كانت فى كل العصور الى ايام حملة نابليون متينة حتى انك لا تكاد تجد عالما من علمائنا ليست له اجازات من علماء المشرق مباشرة او بواسطة ، وكان اذا ظهر كتاب فى المشرق مثلا يقرظه علماء المغرب ، وكان السفر لقضاء فريضة الحج يلعب دورا هاما فى تمتين هذه العلائق ؛ ففي كل سنة يقصد المشرق عدد من علماء المغرب ويأخذون معهم نسخا مما جد فى عالم التاليف ببلادهم وينشرونها فى البلاد التي يمرون بها ، بل الكثير منهم ينتهزون فرصة وجودهم بالديار المشرقية لزيارة كل مراكز العلم ، حتى التي لا توجد على طريقهم ، مثل الديار الشامية العراقية والرومية ، وفى اثناء تنقلاتهم يجتمعون مع علماء البلاد التي يزورونها وادبائها ؛ ويأخذون منهم كذلك مؤلفاتهم ويتدارسون واياهم الفنون التي لهم فيها اختصاص ، وهكذا يرجعون للمغرب وقد ازدادوا علما بعد ان افادوا واستفادوا وكان كذلك كثير منهم يستوطنون البلاد المشرقية حيث يقع عليهم الاقبال ، ويشتهرون بها حتى ان منهم من اشتهر وذاع صيته فى حين انه لا يعرف فى وطنه .

اما اليوم فقد صار من الضروري ان يقوم اهل المغرب بالتعريف بمشاهيرهم فى مختلف نواحي الثقافة، حتى نعيد ربط حاضرنا بماضينا ويستفيد بعضنا من بعض . وانني فى هذه المجالة سوف اتعرض لثلة ممن اشتغلوا بالخصوص بالابحاث اللغوية محاولا ان اعطي نظرة مجملة عن تاريخ هذه الدراسات منذ ايام المرابطين والموحدين الى العصر الحديث .

وليس من الغريب ان يكون اول النصوص التي وصلتنا في هذا الموضوع كتاب لاحد علماء سبتة في ما يسمى بتقويم لحن العامة وهذا دليل على ما قدمناه من غيرة اهل المغرب على صفاء اللغة العربية وعملهم على المحافظة عليها ومنع تسرب اللهجات الاعجمية اليها . وهذا الباب في البحوث اللغوية له فائدة عظيمة لتاريخ تطور اللهجات العربية ، وقد اشتغل به كثير من علماء اللغة منذ فتحه علي بن حمزة الكسائي بكتابه في لحن العامة واشتهر بالكتابة فيه يحي بن زياد الفراء المتوفى سنة 207 هـ (822 م) وابو عبيدة المتوفى سنة 209 هـ (824 م) ، وابو حاتم السجستاني المتوفى سنة 250 (864 م) واحمد بن يحيى المتوفى سنة 291 (904) ومحمد بن الحسن الزبيدي الاندلسي المتوفى سنة 379 (989) وابو هلال العسكري المتوفى سنة 495 (1005) وابو الفرج بن الجوزي المتوفى سنة 597 (1201) وغيرهم ممن يطول تعدادهم . اما العالم المغربي الذي كتب في هذا الموضوع فهو ابو عبد الله محمد بن احمد بن هشام اللخمي السبتي من اهل القرن السادس ، المتوفى سنة 577 (1181) وكان من رجال العلم والادب ، روى عن ابي بكر بن العربي والمسند الكبير ابي الطاهر السلفي ، وكان له تضلع في علم اللغة، وله فيها تآليف : منها شرح الفصيح لثعلب وكتاب الفصول والجمل في شرح ابيات الجمل وفي اصلاح ما وقع في ابيات سيبويه وشرحها للاعلم من الوهم والخلل .

ومن مؤلفاته شرح مقصورة ابن دريد قال عنه الصفدي في الوافي بالوفيات (1) : « وهي من احسن الشروح كتبتها بخطي في زمن الصبا ، والكتاب الذي وضعه في لحن العامة من اهم مؤلفاته واسمه — « المدخل الى تقويم اللسان وتعليم البيان » — . وقد تنبه الى قيمته العلمية العلماء قديما وحديثا ، فقام بترتيبه احد مواطنيه من اهل سبتة سنعرض له فيما بعد ، وسمى هذا الترتيب انشاد الضوال وارشاد السوال ، واختصر هذا الترتيب ابن خاتمة الانصاري المتوفى سنة 775 (1369) وسماه ايراد اللئال من انشاد الضوال — ومن اهتمام العلماء المتاخرين بهذا الكتاب ان نشر الاستاذ كولان المدرس بكلية الاداب بجامعة الرباط ايراد اللئال هذا في مجلة الكلية (2) .

وكتب الدكتور عبد العزيز الاهواني مقالا قيما عن كتاب ابن هشام نفسه ، ونشر منتخبا منه في عددين من مجلة معهد المخطوطات العربية . وكانت غاية ابن هشام في وضع كتابه ان يرد على الزبيدي ، وابن مكي الصقلي (3) فيما كتباه في موضوع لحن العامة . الا انه تعدى ذلك الى عدد كبير من الالفاظ العامية المحرفة من العربية او الدخيلة من البربرية او الاسبانية واعطى مرادفها العربي . وجل الامثلة التي اختارها الدكتور الاهواني في المقال المشار اليه من هذا القبيل . من ذلك قول ابن هشام : « ويقولون لعنب اسود طويل كانه البلوط : اصابع السودان ، وانما تقول له العرب اصابع العذاري ، واطراف العذاري تشبيها باطراف العذاري المخضبة » ومن ذلك قوله : « ويقولون هذا بابة فلان للذي يربيه ، وهو عند العرب بمعنى الغاية . يقولون هذا بابة فلان اي غايته » . والغريب ان العامية المغربية لا تزال تحتفظ على هذه اللفظة بمعنى قريب مما اشار اليه ابن هشام في اصلاحه . فبابة الانسان عندنا ماينبغي ان يفعل . ومن ذلك : « ويقولون للخرقة التي تجعل في عنق الصبي لتصون ثيابه من اللعاب بطير وانما تقول العرب لها البخنق » . اما اليوم فاننا نسميه في المغرب « الرباقة » من الريق . ويقولون لخرقة ينشف بها الماء او صوفة : « جفاقة » وانما تقول لها العرب : الهرشفة . والهرشفة ايضا : صوفة الدواة ، ولا نزال نسمي بالمغرب الخرقة التي ينشف بها الماء عند تنظيف المنزل : جفاقة اما صوفة الدواء فهي الليقة عندنا .

وتوجد من هذا التاليف نسختان مخطوطتان بخزانة الاسكوريال وثالثة عند الاستاذ كولان بالرباط . وهو من الكتب التي يتعين نشرها كاملة نظرا لقيمتها العلمية . ومن علماء اللغة المبرزين بالمغرب الشاعر الشهير مالك بن المرحل السبتي من رجال القرن السابع، وقد ولد بمالقة من عائلة مغربية مصمودية ، وكان جده الاعلى قد انتقل الى الاندلس ، ولكنه رجع هو الى وطنه الاول واستوطن سبتة ، وبها ظهر نبوغه ثم انتقل الى

---

(1) الجزء 2 صح 1301 من طبعة اسطامبول سنة 1949

(2) انظر هسبريس سنة 1931 صح 10 — 23 —

(3) كتاب الزبيدي : اسمه كما على مخطوط اسطنبول « كتاب فيه لحن العوام » اما كتاب ابن مكي ويوجد منه مخطوط كذلك باسطنبول ، فاسمه « تثقيف اللسان وتلقيح الجنان

فاس وعاش بها زمنا طويلا وتوفى معمرا قد قارب المائة. ولا تعنينا الآن ناحيته الادبية ، وانما الذي يهمنا انه كان متضلعا من العلوم اللغوية وله فيها كتابات منها : نظم الفصيح لثعلب واسمه الموطاة وشرحه . وتوجد من المنظومة عدة نسخ بالمغرب وهي كاسمها سهلة لتفهيم كتاب ثعلب الشهير . والشرح يوجد بخزانة الرباط من جملة الكتب التي كانت في خزانة الجلاوي . وله ترتيب كتاب الامثال لابي عبيد على حروف المعجم وله مؤلف بديع سماه كتاب « كان ماذا » وهو من مؤلفاته النادرة واوضاعه الغريبة على حد تعبير المقري في نفح الطيب . ولهذا الكتاب قصة وهي انه وقع في شعر مالك ابن المرحل قوله كان ماذا لان ذا اذا ركبت مع ما وصارا اسما واحدا من اسماء الاستفهام فانه يجوز ان يعمل فيها ما قبلها ، فانكر ابو الحسين بن ابي الربيع على ابن المرحل هذا الاستعمال ، ووقعت بينهما مناظرة في ذلك بسبتة وكان ابن ابي الربيع من ائمة النحو فقال ابن المرحل :

عاب قوم كان ماذا
ليت شعري لم هذا ؟

واذا عابوه جهلا
دون علم كان ماذا ؟

ثم الف في هذه المسالة والاحتجاج لها من كلام العرب والرد على المنتقد تاليفا اسماه « كان ماذا » والمقري يسميه : كتاب الرمي بالحصى والضرب بالعصا ويقول عنه : وفيه هنات لا ينبغي لعاقل ولا لذي طي في البيان ان ينشرها وفي ذلك قال الاستاذ ابو الحسين رحمه الله :

كان ماذا ليتها عدم
جنبوها قربها ندم
ليتني يا مال لم ارها
انها كالنار تضطرم

وهكذا تطلعنا هذه القصة على تعلق القوم بلغتهم والذب عنها والمحافظة على صفائها بهذا الحماس الذي لا يتجلى عادة الا في العقائد والمبادىء وقد تبوات عندهم اللغة مكان العقيدة والايمان .

ومن علماء اللغة ابو عبد الله محمد بن علي بن هانيء اللخمي من اهل سبتة المتوفى سنة 733 (1333) ، كان اعلم اهل زمانه بعلوم العربية ، الف شرحا على التسهيل لابن مالك قال عنه ابن الخطيب في احاطته « ابدع فيه وتنافس فيه الناس » ودون ترسيل رئيس الكتاب ابي المطرف بن عميرة المخزومي . ومن تاليفه ما اشرنا اليه آنفا من ترتيبه لكتاب مواطنه ابن هشام اللخمي من لحن العامة . ويؤسف لكون هذا الترتيب لم يصلنا لانه وضع قريبا من مائتي سنة بعد المدخل الى تقويم اللسان ، ولا شك انه قارن بين ما كانت عليه اللغة وقت كتابته وفي ايام ابن هشام . اما المختصر الذي وضعه ابن خاتمة لهذا الترتيب فانه لا يكفي لمثل هذه المقارنة .

وفي ايام الوطاسيين اي في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) خمدت شيئا ما الابحاث اللغوية تبعا للحالة العامة في البلاد حيث بدات الحملات الصليبية البرتغالية والاسبانية على الشواطىء المغربية مما جعل الناس ينصرفون للدفاع عن حوزة الاسلام حتى ايام السعديين الذين يرجع لهم الفضل في القضاء على النفوذ المسيحي في المغرب بانتصارهم في وادي المخازن على الحملة الصليبية التي تزعمها ملك البرتغال « دون سبستيان » وقد لقي حتفه في هذه الموقعة الشهيرة سنة 986 (1576) .

وفي ايام السعديين انبعثت نهضة جديدة للعلوم والآداب ، وممن ظهر من علماء اللغة في هذا العصر احد كبار اطباء المنصور السعدي ووزرائه ابو عمر القاسم بن محمد ابن ابراهيم الغساني من اهل فاس ، وقد كان بيت الغساني بيت علم ووزارة وكتابة وقد تقلد كثير من رجاله خطة الوزارة حتى صار يطلق على هذه العائلة اسم الوزير وهم لا يزالون موجودين الى اليوم بفاس حيث يعرفون باولاد الوزير .

اما ابو عمر هذا فقد اشتهر بكتاب في المفردات الطبية . وهذا النوع من الابحاث اللغوية ازدهر بالمغرب وله فائدة عظيمة الى الآن ، لان الذين اشتغلوا به لم يكونوا رجال علم نظري فحسب يكتفون بالرجوع الى المصادر المكتوبة ، بل كانوا في نفس الوقت علماء نباتيين واطباء وكيماويين ، يقفون بانفسهم على الاعشاب والاحجار والحيوانات التي يحتاجون اليها في تركيب ادويتهم ، ويعرفون اعيانها واسماءها باللغة العامية ، وهكذا يستطيعون تطبيقها على اسمائها العربية الفصيحة .

والكتاب الذي وضعه الوزير الغساني اسمه : حديقة الازهار في شرح ماهية العشوب والعقار ، وقد انتهى من تاليفه في السابع والعشرين من ربيع الاول سنة 994 هـ

الموافق لثامن عشر يناير سنة 1586 م وهو لا يـزال مخطوطا ، وتوجد منه عدة نسخ بالمغرب ، واختصره في كتاب سماه كشف الرموز . وقد صار هذا الاصطلاح علما على المؤلفات التي توضع في شرح معاني المفردات الطبية وايراد مرادفها من اللهجات العامية ، حتى سمي احد الاطباء من اهل الجزائر وهو عبد الـرزاق حمدوش (4) كتابا له في المادة الطبية « كشف الرموز »

ومن المؤلفات الموضوعة في هذا الفرع من اللغـة كتاب تحفة الاحباب في ماهية النبات والاعشاب ، وهـو مجهول المؤلف وقد نشر بالرباط مع ترجمة فرنسيـة وتعاليق مفيدة للغاية بعناية المستشرقين الدكتور رونو والاستاذ كولان . وهو كتاب له قيمة كبيرة على صغر حجمه ، ويعين في تعرف اعيان النباتات ونحوها ، ومن امثلة ذلك قوله آذريون هو نوار آزريول فنعرف في الحين انه يعني الزهـرة التي تسمى علميـا Calenoulo officinalis L. اي Souci بالفرنسية هـذه الزهرة تسمى كذلك بفاس وبعض النواحي الجمرة . ومنه قوله : لسان الحمل : هو المصاصة فنعرف في الحين انه يعني النبات المسمى علميا Plantago Coronupus L. اي Plo ntain بالفرنسية . ومنه قوله : الجنـا ـ يسمى باللنج وهو اساستو : فنفهم ان المقصود هو النبات المسمى علميا : Arbutus Unedo L. اي بالفرنسيـة Arbousier وهكذا لان ـ الالفاظ العامية المرادفة مـن آزويول ومصاصة واساستو كلمات حية يعرفها الناس ويستعملونها فيمكن التعبير عنها بلغة عربية فصيحة .

ومن العلماء الذين برزوا في ميدان اللغة ابو زيد عبد الرحمن الفاسي الملقب سيوطي زمانه لكثرة ما الف من الكتب والرسائل ، وقد اوصلتها في بحث كنت نشرته بمجلة هسبريس الى نحو المائتين . وكان ابو زيـد الفاسي المتوفى سنة 1096 (1685) عالما مشاركا ولم يترك فرعا من فروع المعرفة الا كتب فيه مؤلفا او عدة مؤلفات . وقد جمع كل ذلك في موسوعة منظومة سماها الاقنوم في مبادىء العلوم قسمها الى واحد وثمانيـن ومائتي فصل ، وعمد الى شرحها ليتوسع في المسائـل العلمية التي طرقها في « الاقنوم » مما لا يتأتى مع النظم ، وانما استعمل اولا طريقة النظم ليسهل على الطـلاب حفظها حسب المناهج التعليمية في تلك العصـور وفي الاقنوم طبعا فصول في علم اللغة . وله دون ذلك كتابان في العلوم اللغوية احدهما يسمى المسالك المبلغة الـى اصول علم اللغة ويعتبر ضائعا اليوم ، والثاني من نوع كشف الرموز سماه تفسير الاعشاب . ويعتبر كذلك ضائعا الا انه الى اوائل هذا القرن كان لايزال معروفا حيث اعتمد عليه مؤلف ضياء النبراس الذي سنتكلم عليه فيما بعد .

ومن اهتمام المغاربة باللغة انهم كانوا يدرسـون كتب اللغة في جامعة القرويين وحتى المعاجم الكبـرى خصوصا القاموس للفيروز بادي ، وقد اولوه عنايـة خاصة ، ومن اول من بلغنا خبر كتابته حوله احد علماء القرن الثاني عشر ابو العباس احمد الجرندي المتوفى سنة 1125 هـ (1713) وهو من تلامذة شيخ الاسلام ابي السعود الفاسي ، وقد الف حاشية على القاموس .

وفي نفس هذا القرن اشتغل احد علماء اللغة من اهل فاس بكتاب القاموس وهذا العالم هو ابو العباس احمد بن علي الوجاري المتوفى بفاس سنـة 1141 هـ (1729) . وقد الف اختصارا للقاموس توجد منـه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط .

وبعدهما نبغ اكبر علماء اللغة بالمغرب في كل عصر ، ونعني به ابا عبد الله محمد بن الطيب الشرقي الصميلي من اهل فاس ، ويلقب من الالقاب المشرقية بشمـس الدين لانه كان له صيت ذائع بالمشرق .

ولد ابن الطيب الشرقي بمدينة فاس سنة 1115هـ (1698) ودرس بجامعتها آخذا عن مشاهير علمـاء وقته خصوصا عن ابي عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابن عبد القادر الفاسي وعن ابي عبد الله محمد بن احمد ابن المسناوي الدلائي . وتولع من صغره بالدراسـات اللغوية فقرأ على شيخه المسناوي كتاب القامـوس المحيط قراءة بحث وتمحيص وسمع كثيرا من مباحثه وفوائده على الشيخ ابي العباس الوجاري ، وكان مـن اكابر علماء اللغة والنحو بالمغرب . وبعد ان انهى دراسته اقبل على التدريس بدوره ، وكان له شغف بالاسفار ، فتنقل في جل مدن المغرب وبواديه . وفي سنة 1139 هـ قصد الحجاز لقضاء فريضة الحج ، ورجع في السنـة

(4) من رجال القرن الثاني عشر هجرية (الثامن عشر م) ، وقد طبع كشف الرموز بمدينة الجزائر سنة 1904 وترجم الى الفرنسية بقلم الدكتور Le Clerc سنة 1874 والمؤلف يعتمد على مصادر مغربية فيما يرجع للتفسير باللغة العامية .

بعدها الى فاس بعد ان لقي كثيرا من مشاهير علماء وقته خصوصا في مصر ، ومنذ رجوعه وهو منكب على التعليم والتاليف ، وقد اشتهر وامه الطلبة من كل حدب وصوب وتخرج على يديه الجم الغفير من العلماء خصوصا في علم اللسان ، وقد صار امامها المتفق على علو كعبه فيها ، وكانت له حافظة قوية اعانته على التبحر في هذه العلوم التي تتوقف على الحفظ والاستحضار .

ويظهر انه رغم اقبال مواطنيه عليه وتقديرهم لمكانته العلمية ، لم تسعه البلاد المغربية ، فقصد مرة ثانية المشرق ، ولاندري هل كانت نيته الاستيطان او المقام مدة ثم الرجوع الى وطنه الا انه بعد ان طاف بجل مراكز العلم بالمشرق استقر بالمدينة المنورة الى ان توفى بها سنة 1175 هـ (1756 — 1757) .

وقد تخرج عليه بالبلاد المشرقية عدد لا يحصى من العلماء ذكر بعضهم المرادي في سلك الدرر . وكان كل من يقصد الحجاز لاداء فريضة الحج من العلماء يحرص على ملاقاته والاخذ عنه . واشهر تلامذته الشيخ مرتضى الزبيدي شارح القاموس وهو عمدته في كتابه العظيم كما صرح بذلك في مقدمته حيث قال في اثناء كلامه على من شرح القاموس من المتاخرين: « ومن اجمع ما كتب عليه مما سمعت ورايت شرح شيخنا الامام اللغوي ابي عبد الله محمد بن الطيب بن محمد الفاسي » ثم قال « وهو عمدتي في هذا الفن والمقلد جيدي العاطل بحلي تقريره المستحسن ، وشرحه هذا عندي في مجلدين ضخمين » .

ومن اكابر تلامذته من المغاربة ابو العباس الهلالي العالم اللغوي ، وسنتعرض له بكلمة بعد ، والزيادي صاحب الرحلة ، والشيخ التاودي ابن سودة وغيرهم .

ولابن الطيب الشرقي مؤلفات كثيرة يهمنا منها ما وضعه في علم اللغة واهمها حواشيه على القاموس قال عنها الاستاذ محمد العابد الفاسي مدير خزانة جامعة القرويين في بحث له عن ابن الطيب الشرقي : « اما حواشيه هذه فهي في مجلدات اربعة وهي لعمري المعجزة الوحيدة للمغاربة عموما ولاهل فاس خصوصا ، وناهيك بمرتبة القاموس عند العلماء في كل البلاد واعتمادهم عليه فهو عندهم بمنزلة المختصر الخليلي في الفقه استنادا اليه واحتجاجا به ، وقلما تجد في العصور الماضية بلادنا عالما يعرف معنى العلم ولا يكتب نسخة من القاموس بخط يده مع مزيد الاعتناء وضبط الكلمات . وربما ذكروا حتى اختلاف الروايات عن المؤلف في بعض الاحيان ، وكم من نسخ وقفنا عليها مكتوبة بخط اعيان المغاربة ، وباول صحيفة منها سندهم لصاحب الكتاب » .

ولهجة ابن الطيب الشرقي في هذه الحواشي لهجة العالم المعتد بعلمه الذي لايحجم عن انتقاد الفيروزابادي والحمل عليه حتى انه ينسبه للقصور والتقصير قال في مادة البت : « والمصنف اغفل ذلك كله اعراضا عن العلوم الصرفية ، لانه لامعارضة له فيها » . وقال في محل آخر « وبه تعلم ما في كلام المصنف من التقصير والقصور والتخليط » . الى غير هذه العبارات التي لا يبيحها الا ما كان عليه ابن الطيب من مقدرة فائقة وشدة الحفظ واتساع الاطلاع مما يظهر في كل مؤلفاته . وحواشيه هذه لا تزال مخطوطة مثل كتبه ، على انه لم يبق منها الا القليل . ومن ذلك شرح نظم فصيح ثعلب . وانتم ترون ان المغاربة كان لهم كبير اهتمام بهذا التاليف شرحا وتدريسا . ومنها حواشي درة الغواص للحريري والمسفر عن خبايا المزهر للسيوطي ومنه مخطوطان بالزاوية الحمزوية بالمغرب ومن مؤلفاته التي ينبغي التنبيه عليها وان كانت في غير علوم اللغة رحلته الاولى وقد ضمنها اخبار سفره من فاس الى مكة على طريق الصحراء ، وتوجد منها نسخة فريدة في خزانة جامعة لايبسك بالمانيا، (5) وقد كنت وقفت عليها هناك وهي من احسن ماوضع في هذا الفن، وتظهر فيها عارضته اللغوية فهو يهتم بالاشتقاقات اللغوية للاعلام الجغرافية ويصححها وينبه على اغلاط الراحلين الذين كتبوا قبله . وله رحلة ثانية وصف فيها تنقلاته بالبلاد المشرقية ما بين القاهرة ودمشق واسطنبول وبغداد ومكة والمدينة الا انها تعتبر الى حد الآن ضائعة .

وبمناسبة رحلته الحجازية الاولى الموجودة بليبسك ، ننبه الى غلط وقع فيه بعض المستشرقين حيث جعل من ابن الطيب الشرقي شخصين ، وتبعه في هذا جرجي زيدان في كتابه تاريخ الآداب العربية (6) ، حيث ورد ان لابي الطيب نور الله رحلة من فاس الى مكة» وسبب هذا الغلط هو انه وجد على مخطوط لايبسك هذه العبارة : « هذه رحلة السيد ابو (كذا) عبد الله الشهير بالطيب نور الله ضريحه وفتح علينا بركاته » فظن بعضهم ان «نورالله» اسم وتبعه غيره في ذلك وليس هناك الا ابن الطيب الشرقي رحمه الله ونور ضريحه .

5) تحت رقم 746 من فهرس Vollers
6) ج 3 صـ 325 .

وقد اشرنا من قبل الى ان احد تلامذته برز في علوم اللغة ، وهذا العالم الجليل هو ابو العباس احمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي ولد سنة 1113 بناحية تافيلالت التي كانت تسمى قديما سجلماسة ، واخذ العلم عن شيوخ المغرب ثم رحل الى المشرق مرتين ورجع في الاخير الى وطنه حيث استقر بمدغرة ينشر العلم ويؤلف الكتب الى ان توفي رحمه الله سنة 1175 هـ (1721) ؛ ومن جملتها فيما يهمنا الآن ، فتح القدوس في شرح خطبة القاموس ، توجد منها نسخة بخزانة الاستاذ محمد العابد الفاسي قال عنها : « وهي من اغرب الشروح الموجودة تقع في مجلد ضخم ، وللهلالي كذلك اضاءة الادموس ورياضة الشموس من اصطلاح صاحب القاموس ، وهو مطبوع بفاس طبعة فاسية أي على الحجر . وقد نظم هذا التاليف احد علماء فاس المتاخرين هو ابو عبد الله محمد الكردودي المتوفى سنة 1267 هـ (1752) وطبع مع اضاءة الادموس .

ومن العلماء المتاخرين كذلك الذين خدموا اللغة ابو الحسن علال بن عبد الله الفاسي المتوفى سنة 1314 هـ (1896) . وكان طبيبا ماهرا وله في ذلك تاليف منها فيما يتعلق باللغة : تجريد المفردات الطبية الواردة في القاموس للفيروزابادي مع شرحها .

ومنهم العلامة الشهير محمد محمود الشنقيطي المتوفى سنة 1322 هـ (1904) الذي ظهر فضله في هذه البلاد المشرقية ، وبقي اثره في تعاليقه وتحقيقاته على عدد كبير من المخطوطات القيمة ، وكان امام وقته في اللغة ، واخذ عنه وانتفع به كثير من علماء الجيل السابق . اما من تآليفه فلا نعرف الا رحلته الى بلاد السويد والترويج المسماة « الحماسة السنية الكاملة المزية في الرحلة العلمية الشنقيطية التركزية » طبعت في القاهرة في مجلد سنة 1319 هـ وهي عبارة عن تسع قصائد ومقطوعتين نظمها بمناسبة ايفاده مندوبا من لدن سلطان تركيا للمشاركة في مؤتمر المستشرقين المنعقد باستوكهلم وكريستانيا عاصمتي السويد والترويج سنة 1889 .

ونختم هذا البحث بالكلام على شخصية فذة ، كان من آخر اولائك العلماء الذين كانوا يربطون المغرب بالمشرق وهو في نفس الوقت اول المغاربة الذين اقبلوا على الدراسات العلمية الحديثة ، ونعني به العلامة الطبيب عبد السلام بن محمد العلمي المتوفى سنة 1323 هـ (1905 م) رحمه الله .

العلمي هذا ولد بفاس سنة 1246 هـ (1830 م) ودرس بجامعتها وظهرت نجابته من صغره وكان اذ ذاك السلطان مولاي الحسن رحمه الله يبحث عن شبان اذكياء يوجههم لمختلف عواصم العلم باوروبا وبالمشرق، وكانت تلك حركة مباركة ، الا انها مع الاسف لم تكن لها كل النتائج المنتظرة بسبب دسائس البعثات الدبلوماسية الاجنبية التي رات في تلك المحاولات افلات المغرب من الوقوع في ايدي الدول الغربية التي كانت تتوزع البلاد الافريقية والاسيوية . وكانت حركة مولاي الحسن في تطوير المغرب وتاسيس المعامل للاسلحة ونحو ذلك تشبه حركة اليابان التي نجحت في حين لم يكتب لحركة المغرب النجاح اذ ذاك . وعلى كل فان العلمي كان من جملة اولئك الشبان الذين وقع عليهم الاختيار لتوجيههم للخارج قصد دراسة العلوم الحديثة من طب وهندسة ونحوهما ، وكان من نصيبه ان وجه لتعلم الطب بمصر . فدخل مدرسة قصر العيني وقضى بها مدة يتعلم على شيوخها من الاطباء المصريين والفرنسيين الى ان حصل علما جما ورجع الى المغرب واخذ ينشر علمه بالتعليم والتاليف والمداواة . واول ما واجهه في علمه ما لا نزال نهتم به الى الآن ، وهو مسالة المصطلحات ، فقد لاحظ ان كتب المحدثين تختلف عن كتب القدماء وكلام العلماء يختلف عن كلام العامة ، ففكر في وضع كتاب يضم كل المصطلحات الطبية والكيماوية والنباتية ونحوها مع شرحها وذكر المترادفات ان كانت من اللغة الفصيحة ، والمصطلحات القديمة والاستعمال العامي . وبدا في هذا المشروع ، وسمى هذا الكتاب « الاسرار المحكمة في حل رموز الكتب المترجمة » الا ان احد تلامذته استعجله في تخريج كتاب صغير يمكن ان ينتفع به في الحين ، ويفيد في شرح المصطلحات الفصيحة الطبية بلغة اهل فاس ، فعمد الى تذكرة الشيخ داود الانطاكي ، وجرد كل مفرداتها وفسرها بلغة اهل فاس ، وختم الكتاب بالمفردات الحديثة وشرحها وقرب معانيها وسمي هذا المؤلف « ضياء النبراس في حل مفردات الانطاكي بلغة فاس » وقد طبع طبعة فاسية سنة 1318 هـ (1900) .

وهذا الكتاب مفيد للغاية على صغر حجمه لان مؤلفه كانت له حاسة ملاحظة قوية ، وكان عند دراسته بمصر يسعى فى الوقوف على اعيان الاعشاب وغيرها من المواد الكيماوية ونحوها . فهو يذكر فى كتابه اسمها ومقابله بلغة اهل فاس ، ويعتمد كذلك على كثير من المؤلفات فى هذا الموضوع مما اشرنا اليه آنفا ، وحتى ان من مصادره ما يعتبر ضائعا الآن مثل تفسير الاعشاب لابي زيد الفاسي .

ولكن أكثر اعتماده على مشاهداته فتراه كثيرا ما يقول رايته بالمحل الفلاني وهو موجود بمصر مثلا ويسمى بها كذا ، وبفاس كذا وعند الانطاكي كذا ، ويأتي احيانا بالاسم الافرنجي لانه تعلم ذلك على شيوخه بالقصر العيني .

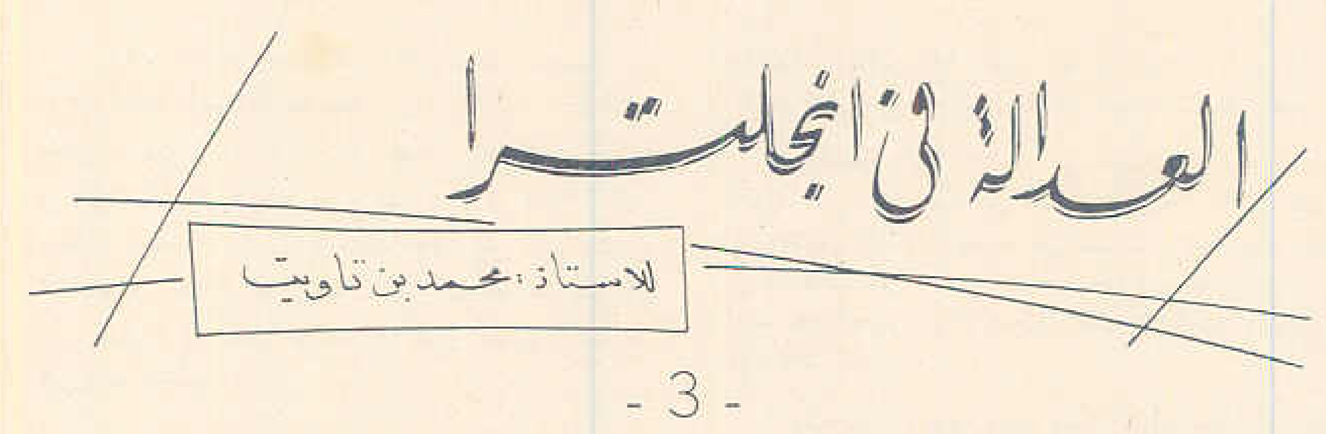
وبالجملة فهذا المؤلف آخر حلقات هذه السلسلة الطويلة التي اهتم بها اهل المغرب خاصة ، والتي تعين على تطبيق الالفاظ العلمية على المسميات العامية . وهو من المؤلفات التي يتعين اعادة طبعها لان الطبعة الاولى كانت على الحجر ، وقد صارت نادرة جدا مثل اكثر المطبوعات الفاسية .

هذه نظرة وجيزة ولمحة قصيرة اردت بها ان اعرف ببعض مجهودات اهل المغرب فى علوم اللغة ، والموضوع يتسع لاكثر من هذا الا ان المقام استلزم هذا الاقتضاب والاختصار ، والله الموفق للصواب .

من آداب مجالسة الملوك

اننا فزنا بالملك وشركناك فيما انت فيه

« قال الشعبي دخلت على عبد الملك فصادفته فى سرار مع شخص فوقفت ساعة لا يرفع الي طرفه ، فقلت يا امير المومنين عامر الشعبي ، فقال لم ناذن لك حتى عرفنا اسمك فقلت نقدة من امير المومنين فلما اقبل على الناس رايت رجلا فى الناس ذا هيبة ورواء ولم اعرفه فقلت يا امير المومنين من هذا ؟ فقال الخلفاء تسال ولا تسال هذا الاخطل الشاعر ، فقلت فى نفسي هذه اخرى قال وخضنا فى الحديث فمر له شيء لم اعرفه فقلت اكتبنيه يا امير المومنين فقال الخلفاء تستكتب ولا تستكتب ، فقلت هذه ثالثة ، وذهبت لاقوم فاشار الي بالقعود فقعدت حتى خف من كان عنده ثم دعا بالطعام فقدمت اليه المائدة فرايت صحفا فيها مخ ، وكان من عادته ان يقدم اليه المخ قبل كل شيء ، فقلت هذا يا امير المومنين كما قال الله تعالى وجفان كالجوابي وقدور راسيات فقال يا شعبي مازحت من لم يمازحك فقلت هذه رابعة فلما فرغ من الطعام وقعد فى مجلسه واندفعنا فى الحديث وذهبت لاتكلم فلما ابتدات بشيء من الحديث الا استله مني فحدث الناس وربما زاد على ما عندي ولا انشده شعرا الا فعل مثل ذلك فغمني وانكسر بالي ، فما زلنا على ذلك بقية نهارنا فلما كان آخر وقت التفت الي وقال يا شعبي قد والله تبينت الكراهة فى وجهك لما فعلت وتدري اي شيء حملني على ذلك ؟ قلت يا امير المومنين لا قال لئلا تقول ان فاز هؤلاء بالملك قد فزنا نحن بالعلم فاردت ان اعرفك انا فزنا بالملك وشاركناك فيما انت فيه ثم امر لي بمال فقمت من عنده وقد زالت اربع زلات » .



- 3 -

الشـرطـة

منذ ان عرفت انجلترا تاريخها ، وكل مواطن بها ملزم بأن ينفذ قانون البلاد ، وان يخضع خضوعا تاما لتعاليمـــه .

ووفقا لهذا المبدا ، فقـد اصبح واجبا على كل مـواطـن ، ان يقبـض علـى اي شخـص مـرتكـب جريمة خطيرة بمحضره .

وهذه الجريمة تشمل التلصص housebreaking وجـرح الآخريـن ، وخيانـــة الدولـة ، والقتــل عمـدا ، والقتــل عـن غيـر عمـد manslaughter والمضارة الزوجية bigamy (بأن يتـزوج المحصـن امرأة اخـرى ، أو تتزوج المحصنـة رجـلا آخـر) والتلكـؤ Loitering في القيام باعمال الدفاع عن البلاد (قانون الأسرار الرسـمية 1911 Official Secrets Act) واغتصاب امرأة rape (كأن تكره على الفسق بها)

هذا من ناحية المبـدا ، اما الواقـع فالغالب ان المواطنين ــ من غير رجال الشـرطة ــ يكتفون باعـلام الشرطة بالجريمة المتهم بها ويتركـون لهم مباشـرة القاء القبض على المتهم

وفي سـنة 1828 كانت قد انشـئت في انجلتـرا وولـز wales قوات من الشرطة النظاميـة انتهت اخيرا الى 126 فرقة .

والقـــوات المحليـــة مـــن الشـرطـــة ، تتعاون جميعا فيما بينها ، الا ان كل واحدة منها لها منطقتها الخاصة التي تهيمن عليها ، واشهر هذه القوات هي شـرطة العاصمة التي تـسمى the Metropolitan Police وهي تحافظ على النظـام بهذه العاصمـــة (باستثناء الميل المربع للمدن المركزية ، وهذه المنطقة تعرف باسم المدنية the City حيث ان لها شرطتها الخاصة بها)

وكما لاحظنا من المقدمة ، فان رجـال الشـرطة ليست لهم صفة سياسية ولا حربية ، وانمـا هم موكلـــون بحفظ النظام وصيانة الامن ، وشرطة العاصمة يبلـغ عدد افرادها نحو 17 000 شرطي ، وهي مسئولـــة عن سير النظام بين ما يقرب من ثمانية ملايين نسمـة ويتولى ادارتها قسم بوزارة الداخلية يسمى مصلحة الدولـة the Departement of State وهـذا القسـم مكلف بمهام القانون والنظام ، اما شرطة المنطقة الخاصة المعروفة باسم المدينة ، فهي مؤلفة من نحـو 1 000 شرطي ، تحافظ على الميل المربـع المركـزي ، الـذي لا يزيد عدد سكانه على 4 000 نسمة ، ولكن يوجـد بـه كل يوم نصف مليون من العمال يعملون في مصانعه ويتـولـى قيـادة هـذه الفـرقــــة السيـــد العمـــدة the Lord Mayor ومجلـس المـدينـــة المذكـــورة the Corporation of the City وذلـــك تحـت اشــراف وزارة الـداخليـــة وادارتهـــا غير المباشرة (بخلاف شرطة العاصمة التي هي تحت القيـادة المباشـرة لهـا) وقـوات الشـرطـة الاخرى في انـجلـتـرا وولـز ، تتـبـع مجـالـــــس المدينـــة the Borough Councils في المدن الكبـرى ومجالس الاقاليم the County Councils فيما عداها ولكنها جميعا خاضعة لمقاييس معينة من قبل القيادة المركزية التي توجد بوزارة الداخلية كما سلف

والى جانب هـذه جميعـا ، فهنـاك الشرطـة الاسكتلندية التي تتبع مصلحة اخرى للدولـة تدعـى الادارة الاسكتلنديـة the Scottish Office كمـــا ان ارلندا الشمالية لها شرطتها الخاصة التابعة لحكومة ارلندا الشـمالية

والشـرطة في انجلترا وولز يبلغ عدد افرادهـــا نحو 68 000 رجل وما يزيد على 2 000 امرأة

وما عدا هذه الشرطة المدنية ، فهناك شرطة عسكرية بالقوات المسلحة والقوات الجوية والبحرية ، وهي تطبق في اجراءاتها القانون العسكري ، الا انها من ناحية اخرى قد تشاركها الشرطة المحلية ، وذلك ان الشرطة المحلية تستطيع القبض على أي جندي ينتهك حرمة القانون المدني ، بينما الشرطة العسكرية لاتستطيع ان تتدخل في اي مدني بالمرة ، واية سلطة تدير قوة محلية من الشرطة ، تستطيع ان تدرج في هيئتها شرطة متطوعة تدعى الضبطية الخاصة special constables وذلك حينما يتوقع حشد شديد من الناس ، تحتاج فيه الشرطة المحلية الى قوة خاصة تستعين بها على حفظ الأمن والنظام . ولأفراد هذه الضبطية الخاصة كل الواجبات والامكانيات التي يتوفر عليها ضباط الشرطة النظامية ويرتدي — عموما — رجال الشرطة النظامية الملابس الرسمية الموحدة الأزياء (uniform)

لكن الشرطة السرية يرتدي رجالها الملابس الأهلية ؛ ومهمتها انها تستخدم في البحث ، خصوصا في كشف الجرائم الغامضة والمربكة .
وفي لندن ، بالشارع المسمى سكوتلندير Scotland Yard توجد قيادة مركزية لشرطة العاصمة ، تضم قيادة الشرطة السرية المركزية للندن ، وهي توجه قوات الشرطة المحلية ، كلما طلب منها ذلك ، لانها تتوفر على كل التدابير البارعة التي تنتهي بها الى كشف الجرائم المذكورة

والشرطة على كل حال قوة مدنية غير مسلحة ، ولهذا عيبه حينما يكون الجناة المطاردون مسلحين بالأسلحة النارية ، لكن التجربة برهنت على ان الرأي ، سواء داخل اوساط الشرطة او خارجها ، صائب في عدم كونهم غير مسلحين ، ذلك انهم في هذه الحالة يتمتعون نظريا وعمليا — بتعضيد كل الجمهور ، اذ القانون يفرض على كل مواطن ان يساعد رجل الشرطة ، اذا ما نودي لهذه المساعدة وكل سعى لمداهمة رجل الشرطة ، يجعل جميع المجاورين يهبون للدفاع عنه ، الا ان المقاومة المسلحة لرجال الشرطة نادرة الوقوع لانه يعد جريمة في حق كل انسان بالمملكة المتحدة ، ان يحمل سلاحا ناريا بدون رخصة خاصة من الشرطة ، ولهذا فانه نادر جدا ان يوجد مجرم مسلح بهذه المملكة

ومجال تصرف رجال الشرطة محدد بكل دقة ، فبالرغم من كونهم يستطيعون ان يلقوا القبض على الناس بسبب بعض انواع من الجرائم ، التي لا يكون للمواطن — من غيرهم — حق القاء القبض على المتهم بها ، الا ان الفرق بينهم وبين غيرهم في ذلك ليس باليسر الذي تظنه ، ثم انهم — عموما — لا يمكنهم ان يلقوا القبض على شخص ما ، بدون الحصول — اولا — على اذن من القاضي بذلك ، وفي حالات مستثناة ، يكون لهم العذر في القاء القبض على ذلك الشخص الذي اتهموه بانه مقبل على ارتكاب جريمة ، او انه قد ارتكب بالفعل جريمة ، كما انهم يستطيعون ان يقتحموا منزلا بدون اخطار منهم ، في بعض الأحوال النادرة جدا

الضمانة المالية ، الحبس الاحتياطي ، الأمر بالافراج عن السجين

عندما يلقى القبض على شخص ما ، فانه يجب ان يوتى به لدى القاضي خلال مدة لا تتعدى اربعا وعشرين ساعة ، الا ان تكون التهمة من نوع خطير جدا ، مثل الاتهام بالقتل ، أما فيما عدا ذلك ، فان الشخص المقبوض عليه ولما يحكم عليه ، يقيد بالضمان Bail الذي يعني أنه يودع مبلغا من المال ، أو يجد شخصين آخرين يقبلان ان يفعلا ذلك ، مقابل تسريحه ، على ان يحضر في الوقت والمكان المحددين ، حيث تجري محاكمته ، وفي بعض الاحيان ، تعارض الشرطة في قبول هذا الضمان المالي ، ولكن الكلمة النهائية في هذا تكون للقضاة

وطبعا ، ان مبلغ هذا الضمان المطلوب ، ومسالة ما اذا طلب هذا الضمان ، كل ذلك يكون حسب نوع الجناية ، وحيثيات المتهم بها

وغالبا ما يحدث ، ان المحكمة لاتدين المتهم ولا تبرئه لأول سماع ، ولكنها تعيده الى السجن ان لم يكن له ضمان ، أو لاترفع عنه قيد الضمان ان كان له

وفي بعض الأحيان ، يكون السجن الاحتياطي Remand ضروريا ، ليتاح لرجال الشرطة من الوقت ما يمكنهم فيه من جمع شواهد القضية التي قد تفيد المتهم نفسه ، ولهذا فان طول المدة قد يكون في صالح المتهم ، فلا يلحقه اي حيف اخيرا

فان اعتقل شخص بدون وجه حق ، فان اي قريب له ، او صديق من اصدقائه الحميمين ، يستطيع ان يتجه الى قاضي المحكمة العليا بلندن ، او بالدوائر ليطلب امرا writ ، يسمى امرا

بالافراج Habeas Corpus لان قانونا عرفيا قديما (1) تكفل بحماية حرية الشخص ، وصدر بها قانون برلماني سنة 1679

وبموجب هذا الامر فان قاضي المحكمة العليا ، له الحق في ان يأمر اي شخص (من رجال السلطة التنفيذية) قد زج بهذا المتهم في السجن بدون محاكمة ، ان يحضر ذلك السجين الى المحكمة العليا ، ويبين الدواعي التي حدت به الى تصرفه هذا ، وبناء على هذه التفاصيل ، فالمحكمة حينئذ تتخذ التدابير اللازمة ، للافراج عن المتهم على ضمانة مالية ثم تحاكمه في اقرب فرصة ، او اطلاق سراحه توا

ملاحظات حول عوامل القبض

على المواطن – نظريا – ان يلقي القبض على اي شخص شاهده قد ارتكب خيانة ، او قتلا ، او جرحا لغيره ، او احراقا لممتلكات الآخرين ، او اقتحم بيتا بقصد ارتكاب جناية ، فانه يلقي القبض على اي شخص ، بعد ارتكاب احدى هذه الجرائم ، اذا هو ظن ان الشخص الذي يقبض عليه مذنب

كما انه يلقي القبض على اي شخص يجده يسرق ، او يغصب صيدا لغيره ، (وذلك بان كان يصطاد سمكا او حيوانا في ارض يمتلكها غيره ،) او يلحق ضررا بمتاع الآخرين

اما ضابط الشرطة فانه يستطيع ان يلقي القبض على اي شخص يتهمه باحدى الجرائم التي على المواطن او له ان يلقي القبض على مرتكبيها بالفعل ،

ضابط الشرطة له ان يلقي القبض لمجرد الاتهام بالجناية ، حتى ولو كانت لما ترتكب عمليا ، لكن المواطن لا يستطيع ذلك ، الا اذا كانت الجناية قد ارتكبت بالفعل

كما ان لرجل الشرطة ان يلقي القبض على اي شخص اذا شاهده يتسكع ليلا ، وتكون له اسباب وجيهة للاشتباه فيه ، بانه مرتكب او يحاول ان يرتكب جريمة خطيرة

فان نجم عن هذا انه لم يكن هناك سبب وجيه لالقاء القبض على الشخص ، فان المجنى عليه بالقبض، يستطيع ان يقيم دعوى مدنية على هؤلاء الذين قبضوا عليه ، فسجن ظلما ، والمحكمة هي التي تقرر ما اذا كان هناك سبب وجيه لالقاء القبض أو لا

وحينما ترتكب جريمة خطيرة ويشتبه في بعض الاشخاص ، فان الشرطة تتجه الى القاضي او المامور القضائي ، وتطلب منه القاء القبض على الشخص

وهناك بعض الحالات يكون الاذن فيها ضروريا ، وفي بعض حالات اخرى لايكون كذلك ، الا ان الحالات الرئيسية التي يمكن ان يلقى فيها القبض على الشخص بدون اذن قد ذكرت فيما سبق

وعلى صاحب الشرطة الملقي القبض ، ان يعلم الشخص الذي يقبض عليه ، بان اي شيء يريد الادلاء به يمكن ان يسجل كتابيا ، ليستعمله في اقامة البينة .

(1) يعرف هذا القانون باسم الافراج عن السجين Habeas Corpus

أعلام الأندلس

يحيى بن يحيى الليثي

للاستاذ الطاهر احمد مكي

- 2 -

فيه من قدرة وصلاحية وميل ، فيوجهها الوجهة الصالحة ، ثم يدفع به الى الميدان الموافق ، وبما له من خبرة ومراس وتجربة ، يعينه على تذليل ما يعترضه من صعاب ، ويثير له ما يواجهه من ظلمات ، او يشكل عليه من مسالك .

من اجل ذلك كله ، فلكي نعرف يحيى بن يحيى طيبا ، لكي ندرك ما وراء جهده وعلمه ونجاحه وخلقه ، علينا ان نتتبع خطاه مذ كان صبيا يافعا ، فشابا متفتحا ، فرجلا مكتملا ، واذا كانت اسفار التاريخ لم تعط طفولته العائلية عناية نستطيع ان نتبين من خلالها تربيته هناك ، فلا اقل من ان نلقي نظرة خاطفة على اساتذته الكبار ، اولئكم الذين لقيهم فى طفولته وشبابه، هنا فى الاندلس ، او هناك فى الشرق : فى مصر ومكة والمدينة .

اول هؤلاء الاساتذة الذين تتلمذ لهم هنا ، بعد ان شب عن الطوق ، واخذ بقدر طيب من التعليم ، هو زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون (ت 204 هـ – 819 م) ، نقول بعد ان شب عن الطوق ، لان زيادا كان استاذا كبيرا ، وفقيها لامعا ، لا يأخذ طريقه الى درسه ، الا من اعد نفسه ، وهيأها لتلقي ما هو ضروري لكي يواصل الدراسة مع فقيه كبير ، اما الاساتذة الذين سبقوا زيادا فان كتب التاريخ لا تعرض لهم ، ربما لانهم كانوا من صغار القراء الذين يحترفون تحفيظ القرآن وتقديم بعض مبادىء الفقه والتوحيد والحساب ، على طريقة التربية فى ذلك الزمان !



– 3 –

يلعب الاستاذ فى حياة الطالب دورا كبيرا ، فهو مثله الاعلى فى الحياة ، يتخذ من سيره قدوة ، ومن خطواته نهجا ، طواعية او بدافع اللاشعور ، والاستاذ الموهوب ، المغرم برسالته ، والناجح فى ادائها ، توجد دائما بينه وبين طلابه صلة من اقوى صلات الحياة واثبتها . انه يتابع ، عن قرب او بعد ، هرولة طلابه فى دروب الزمن، بأسى للمتخلفين ، ويرمق باعجاب ونشوة اولئك الذين اوتوا حظا من التوفيق ، ويحس فى نجاحهم وتفوقهم عزاء عما لقي من شقوة العمل وضآلة التقدير ، انهم الجزاء الاوفى يقبضه المعلمون عوض ما بذلوا من جهد ، وما افنوا من عصب ، وما اعطوا من ذوات انفسهم ومن ثمرات قرائحهم . والاستاذ المخلص ، الكبير القلب ، الرضي النفس ، لا يقف ابدا من تلميذه موقفا سلبيا ، انه يستشف ما

كانت شهرة زياد تأتيه من انه دخل الى الشرق مرتين ، ولقي فى كلا رحلتيه مالكا ، وسمع عنه الموطا ، فكان اول من ادخله الى الاندلس مكملا متقنا ، وكان اهل الاندلس قبله على مذهب الاوزاعي (1) ، هذه رواية المقري فى كتابه نفح الطيب (2) ولكن ثمة رواية اخرى تشير الى ان اول من ادخل الموطا هو الغازي بن قيس (3) واذا عرفنا ان الرجلين كانا متعاصرين وان وفاتهما كانت متقاربة ، تبين لنا انه لا تضارب بين الروايتين ، وبخاصة ان كلاهما رحل الى الشرق ولقي مالكا ، وان تكن رواية المقري نصا فى الموضوع كما يقول الاصوليون فهي تقرر « انه اول من ادخل مذهب مالك الى الاندلس » على حين الرواية المعارضة ــ وقد اوردها ابن فرحون ــ تقول عن الغازي انه « دخل (الاندلس) بالموطا عن مالك » وتتفق معها رواية الحميدي ، اذ تذكر ان الغازي « كان عنده الموطا عن مالك ، وقيل كان يحفظه » (4) ومن ثم كان لنا ان نعد رواية المقري اقرب الى الترجيح .

ولقد ابدى شبطون وعيا فى تلقين الدرس عن مالك ، واقبالا عليه وانكبابا ، فكان اهل المدينة يلقبونه « بفقيه الاندلس » (5) ، وفى رحلته الثانية ، سأله مالك عن هشام بن عبد الرحمن ، امير الاندلس ، وكان قد احتضن الفقهاء ورفع مكانتهم فازدادوا به نفوذا ، فاثنى شبطون على هشام كثيرا ، حتى قال مالك : «وددت لو أن الله زين موسمنا به» (6) ، على ان ثمة من ينسب هذا السؤال لمالك عن عبد الرحمن الداخل ، اذ سأل عن سيرته ، فقيل له : انه يأكل خبز الشعير ويلبس الصوف ، ويجاهد فى سبيل الله ، ثم عدد مناقبه ، فقال مالك : « ليت ان الله زين حرمنا بمثله » وبلغ هذا القول عبد الرحمن فسر به ، على حين تقم العباسيون من مالك ، وعد ذلك من اسباب محنته (7) .

هل حادثة واحدة تنسب تارة لعبد الرحمن الداخل وطورا لابنه هشام ؟ ام انها تكررت من مالك فى اكثر من مجلس ، وفى الاب وابنه ، وان المؤرخين تداولوا النص منسوبا لواحد منهما فى كل مرة ، على حسب ما ارتاحت اليه انفسهم ، او متابعة لما قال الراوي ؟ على اي فمن الوجهة التاريخية ، ليس هناك ما يمنع مالكا من ان يبدي رايه فى عبد الرحمن وفى هشام ، فقد عاصر كليهما وهو فى اوج مجده العلمي وقمة تالقه ، ولكن اذا عرضنا الرواية على الاتجاه النفسي له ، كان لنا ان نشك فى انها لصقر قريش ، وانما الاقرب فيها ان تكون لهشام ، فقد كان عهد الاب دمويا ثوريا ، صاخبا مضطربا ، تستباح فيه الوسائل، ويغض النظر عن مبادىء الاخلاق ، بينما كان عهد الابن ، هادئا مستقرا ، لينا سمحا ، ازدهرت فيه الثقافة عامة ، والمالكية بنوع خاص ، نال فيه العلماء الحظوة ، واحتلوا مكان الصدارة ، وبداوا ياخذون فى توجيه الدولة السياسي نصيبا ملحوظا ، وهو ما تمناه مالك لمواطنيه فى الشرق ، تمنى النظام العادل المتسامح واحب امير الاندلس مصحوبا بهذه الفضائل ، واثنى عليه مرتديا هذه الخلائق ، فلم يكن بينهما من وشائج النسب ، او صلات الود ، ما يجعله فى ثنائه ، ينحرف عن تكريم المبادىء الى الاشادة بالاشخاص ، وهي اشياء تبدو فى هشام اوضح منها فى ابيه ، فروق وليدة الظروف والملابسات ، اذا كان هشام يمجد بها ويحمد عليها ، فلا يقدح فى عبد الرحمن انه لا يوصف بها ، ولا تمس اعتباره فى انه من عظماء الرجال .

ولقد اراد هشام زيادا على تولي القضاء ، والح عليه فى ذلك ، مستعينا بحاشيته ووزرائه ، ولكن زيادا مانع ، واصر على الرفض وهرب من قرطبة ، الى ان امنه هشام فعاد اليها ، ولعل سرور الامير به، وهو يركل بقدميه عرض الدنيا ، اعظم مما لو هرول اليها لهثا يلتقط فتاتها منحنيا ، فتمنى ان يكون له فى دولته من امثاله الكثير « ليت الناس كلهم كزياد حتى اكفى اهل الرغبة فى الدنيا » (8) .

---

1) الحميدي : جذوة المقتبس ، ترجمة رقم 439 ، نشره محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة 1952 . وانظر : ابن حزم الاندلسي : جمهرة انساب العرب ص 397 ، طبعة القاهرة 1948 ، ونفح الطيب : ج 2 ص 252 وج 4 ص 214 طبعة القاهرة 1949 .
2) نفح الطيب ج 2 ص 252 ــ 253 ، والخشني : قضاة قرطبة ص 46 طبعة القاهرة 1954 .
3) انظر : ابن فرحون : الديباج المذهب فى معرفة اعيان علماء المذهب ص 219 طبعة القاهرة . وابن القوطية : فتح الاندلس ص 34 ، مدريد 1868 م .
4) جذوة المقتبس ترجمة رقم 748 .
5) الديباج المذهب ص 118 و 119 .
6) اخبار مجموعة ص 120 طبعة مدريد 1867 ، وابن القوطية ص 42 .
7) ابن نباتة المصري : سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ص 180 طبعة القاهرة .
8) النباهي : المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ص 12 و17 نشره ا. ليفي بروفنسال ، تحت اسم « تاريخ قضاة الاندلس » ، طبع دار الكاتب المصري ، القاهرة 1948 .

واما الاستاذ الثاني ليحيى في الاندلس ، فقد كان يحيى بن مضر القيسي (توفي 189 هـ — 804 م) ، شامي الاصل ، رحل الى المشرق فسمع من سفيان الثوري ، ومن مالك نفسه ، وفيما يروى فان مالك الشيخ جلس من تلميذه مجلس الطالب ، فسمع منه وروى عنه وقال : « حدثنا يحيى . . » (9) ولكن يحيى بن مضر عند ما عاد الى الاندلس ، لم يكن فيما يبدو متحمسا للمالكية تحمس اصحابه ، ولم يكن متحمسا لاستاذه الثاني سفيان الثوري ، وانما كان صاحب فكر ونظر ، والى الحديث اميل ، فهو يدرس ويراجع ويقرر في ضوء ما عرف من قرآن وسنة، قلت صاحب فكر ونظر ، ولم اقل صاحب راي لان كلمة راي في مدلولها الفقهي يتباين مدلولها تباينا كبيرا تبعا للعصر الذي استخدمت ، وهو امر لم يفطن اليه كثير من المحدثين ، فاختلط عليهم الامر ، واهتزت امامهم الصورة ، فاستخدموا الكلمة حيث لا تؤدي المعنى المراد ، ولا تومىء اليه من قريب او بعيد ، فليس يطلق على من حرر نفسه من المذاهب ، والتمس طريق النظر الحر انه صاحب راي ، وانما تطلق كلمة « الراي » على طريقة في التشريع والاستنباط ، لها قواعدها ونظمها ، وان كان صاحبها ملتزما مذهبا محددا ، لا يخرج عنه ولا يحيد .

لم يكن عزوف يحيى بن مضر عن التقليد ، ووضعه لنفسه موضع العارف القادر على الاستنباط ، مرده تحيفا لعلم مالك ، او جورا على استاذيته ، او استهانة بما اخذ عن الثوري ، فقد كانت الصلات في ذلك العصر ، تقوم بين الطالب والاستاذ ، على اسس من التقدير المتبادل ، والاعجاب المتجاوب ، بين المعطي والآخذ على السواء، انما كان مبعثها اعتداد اصيل في نفس يحيى بن مضر ، جعله يعرف لنفسه حقها ، لا يبخسها قدرها ، ولا ينزل عن مستواها فهي في المقدمة حيث ينبغي ان تكون ، متساوية مع اندادها ، لايبطرها غرور ، ولا يقعدها عن التسامي عجز ، صريح او مرتد ثوب التواضع المكذوب ! ولقد كان دوره في الحياة العامة كذلك ، فاخذ من الحياة السياسية الايجابية نصيبا موفورا ، ولقي الله مصلوبا في « هيج الربض » عندما ثار الفقهاء على الحكم الاول (10)

كان يحيى الليثي يوقر استاذه ويكبره ، ويعجب بصلابته في الحق ويحتفظ له بذكرى عطرة ، وبولاء خاشع جليل ، ولم يكن يحيى الطالب هو وحده الذي نجب من بين تلاميذ يحيى الشيخ ، وانما شاركه في التلمذة عليه ، فقهاء اندلسيون كبار ، من بينهم : عبد الملك بن حبيب واصبغ بن خليل (11) .

خلال القرن الاول من الفتح ، كانت الاندلس رغم ازدهار الحضارة فيها ، تنظر الى الشرق نظرة اجلال واكبار ، شيء طبيعي ، فقد كان المصدر الوحيد للتشريع واللغة ، وكان الرافد الاول للادب والتاريخ ، وكانت رحلة الحج فرضا على كل مسلم قادر ان يؤديه ، تزيد من ذلك المعنى في النفوس ، وتثبت من هيبته في القلوب ، وكما يجد شبان اليوم في الرحلة الى الجامعات الاجنبية مزهى يزدهون به بين مواطنيهم ويفاخرون ، وكما تبعث الامم برجالاتها لترى ما عند الشعوب الاخرى من معارف تزداد بها خبرة، او تجارب تزداد بها عمقا ، كذلك كانت الاندلس ، يجد رجالها مهما اوتوا من علم في الرحلة الى الحج واجبا دينيا يسعون الى ادائه ، وفي ارتياد مدارس الشرق مجدا ثقافيا ، يامل كل انسان ان يبلغه وان يدرك منه نصيبا !

لهذا المعنى ، وفي ضوء منه ، فان زياد شبطون ، على الرغم من انه لقي مالكا وسمع عنه ، وكان راوية موطئه في الاندلس ، لم يكد يتخيل في تلميذه يحيى مخايل النجب والنباهة ، ويستشف فيه مواطن الاستعداد والفطنة ، حتى اشار اليه ان يرحل الى الشرق ، وان يلقى مالكا هناك ، فياخذ منه آراءه سماعا ، ويتلقى عنه روايته عيانا (12) وقد كان ! ..

— 4 —

بدا يحيى رحلته الاولى الى الشرق في سن فتية ، وحضر مجلس مالك ودرسه ، وسمع منه الموطا ، غير ابواب في كتاب الاعتكاف شك فيها محدث بها عن شيخه زياد بن شبطون ، ورعا وتعففا ، وامانة في في حمل رسالة العلم (13) .

وفي حلقة الدرس لم يلبث الطالب الفتى ان لفت نظر شيخه مالك سريعا ، لم يلفت النظر اليه في ميدان

9) المقري : نفح الطيب ج 1 ص 322 .
10) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس ، ترجمة رقم 1551 طبعة مدريد 1892 .
11) ابن فرحون : الديباج المذهب ص 97 .
12) نفح الطيب ج 2 ص 252 .
13) ابن الفرضي ترجمة رقم 1554 ، والديباج المذهب ص 350 ، ونفح الطيب ج 2 ص 217 .

المناقشة والتفهيم ، فلا شك ان رهبة الدرس ، وكثرة القادمين ، وجو الغربة ، جعل يحيى حتى هذه اللحظة مغمورا لا يكاد ان يلمح بين هذه الوجوه ، ولم يلبث ان حدث ما جعله في مقدمة هؤلاء جميعا .

لقد حدث ان مر فيل في شوارع المدينة ، ماذا يصنع فيل هناك ؟ ربما استقدمه بعض اولئك الذين تعودوا ان يجلبوا ما يضحك الناس وان يقبضوا لذلك ثمنا . هل كان الفيل منظرا غريبا في المدينة ؟ لا يبدو ذلك ، على العكس ، يبدو ان المدينة قد الفت ان ترى من يقود الفيل في شوارعها بين آونة واخرى ، فلقد كانت مدينة الرسول ، طوال العصر الاموي ، يتناكب فيها الوقار والخفة ، والجد واللهو ، وتختلط في ارباعها انغام الموسيقى والغناء بابتهالات العباد واصوات القراء ، وتجتمع فيها كل مباهج الحياة ولذائذها من اقصى اليمين الى اقصى اليسار ، بفضل السياسة حين اقصتها عن مكان القيادة والتوجيه ، او نتيجة حتمية للمال المتدفق اليها في اعداد تدفع الى التفنن في اقتراف الترف واللذائذ دفعا ، ودليلنا على ان المدينة عرفت الفيل سابقا ، ان سؤال الشيخ لطالبه فيه تؤدة وثقة واطمئنان من راى الفيل مرات ومرات !

ولكن في تصرف الطلاب ايضا ، ما يوحي بان الفيل لم يكن شيئا مألوفا كل الالفة ، او اعتبرت رؤيته على الدوام ، والا لما تركوا حلقة الدرس ليشاهدوه هناك ، وعلى اي حال فقد مر الفيل ، وخرج كل الطلاب ليروه ، وبقي طالب وحيد ، اكان يحيى قد راى الفيل من قبل ؟ لا اظن ، ومع ذلك فقد بقي في مكانه لا يتحرك ، ولم يلحق بالعاجلين لرؤية الوافد الجديد ، واخذ مالك بحرص طالبه ، وبوقاره في سن مبكرة ، قد تتصف بكل شيء ، الا ذلك اللون الهادئ من الوقار : « مالك لم تخرج لترى الفيل وليس في بلادك ؟ » ، ولعل مالكا قبل ان يستمع الى الجواب ، راح يتملى ملامح الطالب الاندلسي ، ويرقب انفعالاته يحاول ان يستشف ما يخالجه من مشاعر ، وما يعتلج في داخله من احاسيس ، ولم يطل الجواب بمالك، لقد جاءه من طالب علم حقا « .. انما جئت من الاندلس لانظر اليك ، واقبس من هديك ، ارشف من علمك ، ولم اكن انظر الى الفيل ! » (14) ، ومن تلك اللحظة اعجب الشيخ بطالبه فسماه « عاقل الاندلس »، وانها للفتة تستحق ان يقف عندها الباحث طويلا ، ان يقف عند الاستاذ وعند التلميذ على السواء !

في القصة اوضح وادق ما عرفت التربية في مضمونها الحديث ، وفي ابحاثها المتخصصة العميقة ، حيث يعكف عليها دارسون ومجربون ، وحيث يستعان فيها بالمعامل والآلات وبالاحصاء والتجارب والمخابر ، وبالعديد من الابناء والبنات !

لفتة طيبة من الاستاذ ، فمن خبرته في غير معهد، ومن تجاربه في غير معمل ، ومن غير حصول على اجازة ، ان درسه مهما يكن فيه من العلم ومن النفع ، ومهما يكن طلابه من الانكباب على الدرس ، ومن الحرص على الفائدة ، فان الجديد ملفت ، وان الترويح معيد للنشاط ، وقد يبقى الطلاب قسرا في مجلسه ، ولكن قلوبهم اكيدا ليست هناك !

نفس ما تقرره التربية الحديثة ، بعد عشرة قرون او تزيد ، فالاستاذ الواعي عند ما يرى طلابه قد انصرفوا الى جديد عابر ، هربا من قديم متعود ، عليه ان يشاركهم او يشجعهم ، لان معارضته لا جدوى منها ، غير احراج الصدور ، وايغار القلوب ، وكذلك فعل مالك ! ..

واذا كانت هذه تدخل لمالك الاستاذ في باب الحسنات ، بل ترفعه الى منزلة الخبير بنفسيات الطلاب ، العليم برغباتهم ، فانها كذلك ، لتجعل من يحيى الطالب ، وقد قطع مهامه القفر ، ومفاوز الصحراء، ليرى عالم المدينة ، يستمع اليه ، ويتعلم من فقهه ، الى مرتبة الطالب الجدير بما تمنحه به استاذه ، مما اصبح لقبا له معروفا ، خلال حياته ، وبعد ان اصبح سيرة ترويها كتب التاريخ .. عاقل الاندلس !

وكلمة عاقل هنا ، لا يقصد بها المعنى الحرفي للكلمة ، حين تجود من اشعاعها البلاغي والحياتي ، فلا يقصد بها الذكاء او النباهة وما اليهما من الدلالة على القدرة الكاملة للتصرف ، ومواجهة ازمة طارئة او ثابتة من مشاكل الحياة ، وهو المعنى الذي فهمه كل المستشرقين ، حين ترجموا هذه الكلمة الى ما يعادل يحيى الذكي (15) ، وانه لفارق كبير بين عاقل

14) نفح الطيب ج 2 ص 217 ، وجذوة المقتبس ترجمة رقم 908 ، وابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب ج 1 ص 163 طبعة القاهرة 1953 .

15) يترجم المستشرقون الذين عرفوا ليحيى كلمة « عاقل » ب Inteligente في الاسبانية و Intelligent في الانجليزية و Intelligent في الفرنسية .

وذكي في اشعاع التعبير ، فالاول عادة تكتسب والثاني فطري يجيء مع المرء ، ولا حيلة له في دفعه او في الحصول منه على اوفى نصيب ، وقد يكون المرء ذكيا جدا ولا شيء عنده من التعقل ، وقد يكون محدود الذكاء ولكنه يملك من التعقل الشيء الكثير !

فالمراد « بالعاقل » في تعبير مالك ، التخلص الارادي من نزق الطفولة ومن طيش الصبا ، واخذ الامور بمآخذ الرجولة الكاملة ، والنضج الذي يقدر للامر قبل الخطو موضعه ، فلا يخف او يسف في موضع يتطلب الرزانة والثبات ، وهي صفة اثلت يحيى في كل حياته فيما بعد ، انه اهل لها ، وانها تمثل من حياته الجانب الاظهر ، او التصرف الاكثر ورودا، عندما يطلب اليه الراي والتدبير ، امر سنعود اليه فيما بعد ، عندما نعرض لصفات يحيى ، كرجل يعيش في جماعة ، له حقوق وعليه واجبات نحوها والتزامات!

متى تمت رحلة يحيى الى الشرق ؟

لا تعرض المصادر التاريخية لتحديد وقت الرحلة وزمانها ، وكل ما تشير اليه ، انه في رحلته الاولى لقي فيمن لقي من اساتذة آخرين غير مالك ، لقي الليث بن سعد ، فاذا عرفنا ان وفاة الليث كانت عام (175 هـ — 791 م) ، تأكد لدينا ان رحلة يحيى كانت قبل ذلك التاريخ ، ولكن الرواية التي اوردها ابن فرحون بأن يحيى توفي عام 234 هـ — 849 م وانه عمر اثنين وثمانين عاما ، وانه اتم رحلته وله من العمر ثمانية وعشرون عاما ، وانه لقي الليث بن سعد لا تؤدي الى هذه النتيجة (16) ، اذ انها تعني ان يحيى وصل الشرق قريبا من عام (180 هـ — 796) ، في وقت يكون قد مضى فيه على وفاة الليث قريبا من اربعة اعوام ، الامر الذي لا يتأتى معه ان يكون قد لقيه ودرس عليه وتلقى عنه .

الواقع ان كل المراجع تجمع على ان يحيى لقي الله في رجب من عام (234 هـ — 849 م) (17) او في عام 233 (18) على الشك بين التاريخين ، واقتصر صاحب الديباج وحده في النص على ان يحيى عمر اثنين وثمانين عاما ، ولم يعرض مرجع واحد للسنة التي ولد فيها يحيى. كان اول من عرض لهذا الامر من الباحثين المحدثين المستشرق الاسباني الاب خوسيه لوبث اورتيث José López Ortiz في بحثه العميق الشافي على ايجازه « دخول المذهب المالكي الى الاندلس » فقرر ان يحيى يجب ان يكون قد راى الوجود قبل عام (147 هـ — 767 م) ليمكن القول بانه بدا رحلته في الثامن والعشرين من عمره ، وانه ادرك الليث بن سعد وتلقى عليه (19)، بينما صرف مستشرق اسباني آخر هو رفاييل كستيخون كالدرون Rafael Castejón Calderón النظر عن رواية الديباج من ان يحيى عمر 82 عاما ، وقرر انه عاش 87 عاما ، امر فيما يبدو توصل اليه بمقارنة التواريخ المختلفة ، اذ لم يسنده الى مرجع معين (20) .

اما الرحلة الثانية فلدينا تاريخها اكيدا ، فقد كان لقاؤه مالكا في السنة التي توفي فيها ، وتاريخ وفاة مالك يرجع الى عام (179 هـ — 795 م) ، في الثابت المتداول من الروايات ، وتقول الرواية انه لقي مالكا عليلا ، وانه اقام الى جواره الى ان لقي الله ، فحضر جنازته (21) الا ان هذه الرحلة الثانية لم تكن من الاندلس وانما كانت من مصر ، ذلك ان يحيى في عودته الى الاندلس مر في طريقه بمصر ، وحضر درس ابن القاسم ، فنشط الى مالك ليسمع منه المسائل التي راى ابن القاسم قد دونها (22) . صاحب الديباج المذهب عدهما من البدء رحلة واحدة ، واوردهما في خبر جمع فيه بين لقيا مالك والليث ، مما يوحي بأن مقام يحيى في المدينة كان طويلا ، وان ما بين رحلة يحيى من المدينة الى مصر وعودته اليها كان قصيرا، ويضيف لوبث اورتيث الى اسباب عودة يحيى الى مالك ، ذلك التاثير الذي تركته في نفسه آراء الليث بن سعد (23) ، امر ينقضه ان عودة يحيى الثانية ،

---

(16) ابن فرحون : الديباج المذهب ص 350 و 351

(17) انظر مثلا : المغرب في حلى المغرب ج 1 ص 164 ، والبيان المغرب ج 2 ص 89 نشره ا. ليفي بروفنسال و ج بن كولان ، ليدن 1951 .

(18) جمع بين رواية كل من التاريخين : الديباج ص 351 ونفح الطيب ج 2 ص 217 وابن الفرضي ترجمة رقم 1554 .

(19) López Ortiz, José : La Recepción de la escula maliquí en España P. 66, en « Anuario de Historia del derecho espanol, Vol. VII, ano 1930 - MADRID.

(20) Rafael Castejón Calderón : Los Juristas hispano musulmanes, P. 58, Madrid 1948.

(21) نفح الطيب : ج 2 ص 219

(22) ابن الفرضي : ترجمة رقم 1554 ، ونفح الطيب ج 2 ص 219

(23) López Ortiz : La Recepción de la escula maliquí P. 67.
وانظر : الديباج المذهب ص 350 .

كانت بعد موت الليث بما يقارب الاربعة اعوام ، فاذا افترضنا انها كانت اثرا للقاء الذي تم بين يحيى والليث في مطلع رحلته ، فذلك منقوض بانه لقي بعده مالكا في رحلته الاولى .

وحضور يحيى لجنازة مالك ، يدحض رواية متداولة مشهورة بين مالكية المغرب ، هي ان يحيى سأل مالكا عن زكاة التين ، فأجاب مالك لا زكاة فيه ، عملا بالقاعدة التي تقرر ان الزكاة فيما يدخر ، فرد يحيى : ولكن التين تدخر عندنا ، ونذر ان وصل الى الاندلس ان يرسل لمالك سفينة مملوءة تينا ، فلما وصل ارسلها ، فلما بلغت المدينة اذا بمالك قد مات ! (24) .

الموطن الثاني لدراسة يحيى في الاراضي المقدسة كان مكة . . .

لقد كانت هدف الحجيج وما زالت ، وكان لها في ذلك التاريخ مدرستها الخاصة بها ، ومن ينكر انها كانت مسرح حوادث الاسلام الاولى ؟ بها نزل التشريع المكي ، وفيها نشأ النبي ، وفي مجامعها ارتفعت اول دعوة للتوحيد ، وبين شعابها تردد صدى الداعي الجديد ، ومما ساعد على فهم الاسلام ان تعرف الملابسات والاجواء التي احاطت به وليدا ، وغذته رضيعا ، واظلته فتيا ، يشق طريقه قسرا في الحياة ، وبعض تاثير هذا الغذاء بقي واضحا ملموسا فيما خلف لنا من تشريع .

بلى ، لم تكن مكة علميا في مستوى المدينة ، لان اشهر من اسلم من اهلها هاجر مع النبي ، ولان مركز الثقل في دولة الاسلام قد انتقل الى الاخيرة ، حين اتخذها النبي مهبطا وملجا ، وحين اصبحت العاصمة الرسمية للخلافة ، طوال ايام الخلفاء الطيبين ، حتى ان بعض المهاجرين كانوا يكرهون دينا ان يتحولوا من المدينة الى مكة بعد وفاة النبي ، ومع ذلك كله ، فلم تحرم مكة من علماء كبار ، لقد ترك فيها الرسول بعد فتحها معاذ بن جبل يفقه اهلها ، وكان افضل شباب الانصار علما وحلما وسخاء ،ومن اعلم الصحابة بالحلال والحرام ، ومن اقرئهم للقرآن وبها انتهى مطاف عبد الله بن عباس في اخريات ايامه ، بعد ان طوف بالبصرة، وعلم في المدينة، فكانت له حلقة في البيت الحرام يختلف اليها الطلاب فيعلمهم التفسير والحديث والادب ، واشتهر بمكة ايضا ، مجاهد بن جبير ، وعطاء بن رباح ، وطاووس بن ذبيان ، واليهم والى تلاميذهم يرجع الفضل فيما اشتهرت به مكة من علم واتجاه .

كان مقام يحيى بمكة فيما يبدو قصيرا ولعله لم يتجاوز مناسك الحج ، وقليلا من الزمن ليتعرف الى مدارسها وعلمائها ، فليس يحيى هو الذي يهبط بلدا دون ان يغتنم كل وقته ليفيد من اهله علما ، وليضيف الى معارفه جديدا ، الا ان اختلافه الى شيخ فقهاء مكة سفيان بن عيينة شيخ الشافعي ، لم يترك في نفسه من الاثر ما ظهر بعد في حياته او تفكيره، على حين ان لقاءه الليث بن سعد ترك في اتجاهه الفكري ملامح مدرسته ، على الرغم من ان يحيى كان من عمد المالكية وحماتها في الاندلس (25) .

— 5 —

لم يحاول يحيى ان يتجه لما وراء مكة او المدينة شمالا ، واحسب انه لم يدر بخلده ان يتجه الى بغداد او الكوفة او البصرة او دمشق ، والراي عندي في تعليل ذلك ان اتجاهه كان فقهيا خالصا ، وتلك امصار كان طابعها الاعم الاغلب اذ ذاك ، الادب واللغة وما يتصل بهما ، ثم بدات تغشاها الوان من النقاش والجدل والفلسفة ، وصراع حول العقائد والقضاء والقدر ، والجبر والاختيار ، وهي اشياء مبغضة الى الفقهاء بعامة ، والى خريجي مدرسة المدينة بوجه خاص ، وان يكن لها حظ من العلم بالتشريع والتصرف فيه ، فحسبه انه راد النبع الاصيل . هل نلمح وراء ذلك توجيه استاذه شبطون ؟ ربما . .

ولكن ذلك التعليل وحده لا يكفي ، فقد غشي يحيى حلقات الدرس في مصر ، امر سنعرض له فيما بعد على التفصيل ، وتلقى عن علمائها رغم انه كان قادما من الحجاز مصدر الفقه والتشريع . اتراه لحظ ان تلك الامصار كانت تخب في السياسة وتضع ، وتأخذ منها باوفر نصيب ، فأحب ان يكون بمنأى عنها ليسلم له ضميره نقيا ، وبخاصة انه قادم من بلد يمثل الشوكة الناغزة في جنب العباسيين ؟ . ليس ثمة ما

---

24) نفح الطيب ج 2 ص 219 .
25) نفح الطيب : ج 2 ص 218 و 253 ، وجذوة المقتبس ترجمة رقم 908 والمغرب في حلى المغرب ج 1 ص 163 .

يمنع ، وليس ثمة ما يجعلنا نرفع هذا الفرض الى مرتبة اليقين، وأياما كان الامر فقد اتجه يحيى الى مصر، وكان له فيها نشاط عظيم ، يستحق ان نقف عنده هنيهة ، وان نتأمله وئيدا ، فقد اصبحت مصر منذ دخول العرب اليها مركزا علميا ، كما هي مركز سياسي هام في المملكة الاسلامية ، وقد اتصفت الحركة العلمية فيها عند بدئها ، بنفس الطابع الذي اتصفت به في المراكز العلمية الاخرى ، في مكة او المدينة ، فكانت الدراسة كلها تدور حول العلوم الدينية وما يتصل بها، ولا صلة لها بما هو فلسفي جدلي .

كان اساس المدرسة المصرية هم الصحابة الذين نزلوا بها ، فقد عاش بها منهم عمرو بن العاص وابنه عبد الله ، وكان الابن من اكثر الناس حديثا عن الرسول واسع الاطلاع في مناح اخرى من العلم ، فكان يقرأ التوراة ويعرف السريانية ، دائم الرحلة بين مكة والمدينة والشام ومصر ، حاجا او معتمر او زائرا ، وقد واصل رسالته من بعده ، يزيد بن ابي حبيب ، وهو نوبي الاصل من دنقلة ، عرف بالفقه والتعمق فيه حتى قال عنه السيوطي : « انه اول من اظهر بمصر علم المسائل في الحلال والحرام ، وكان من قبل ذلك يتحدثون في الترغيب والملاحم والفتن (26) » .

وفي مصر ايضا ، اسس الليث بن سعد ، وهو مصري المولد فارسي الجنس ، مذهبا مستقلا ، وكان الليث نسيج وحده بين الفقهاء ، اذ كان غنيا سريا ، حتى قيل ان دخله من املاكه في الجيزة كان يبلغ 5 آلاف دينار في العام ، فأتاح له هذا سهولة الرحلة لطلب العلم ، فرحل الى العراق وسمع من علمائه ، ورحل الى الحجاز ، وكان غزير العلم عدلا ، يثق المحدثون باحاديثه كل الثقة ، وكان الى جوار ذلك ، يتقن اللغة، واسع الدراية بالنحو والشعر ، وكان الامام احمد بن حنبل يشهد له فيقول فيه « ما في هؤلاء المصريين اثبت من الليث .. ما اصح حديثه » .

اما قدرته الفقهية فكانت بالغة ، فهو من المجتهدين، ومن مؤسسي المذاهب ، ويقرن بمالك في علمه ، وكان الشافعي يرى فيه انه افقه من مالك ، ولو سانده المصريون وتعصبوا له ، لحفظوا لنا على الاقل مذهبه ، ولكن الليث لم يرزق بتلاميذ كما رزق ابو حنيفة بأبي يوسف ومحمد بن الحسن ، وكما رزق الشافعي بالبويطي والمزني ، وكما رزق مالك بابن القاسم وسحنون ، ومن هنا ضاع مذهبه ، واندثرت آثاره ، ولم يبق لنا منها الا رسالة صغيرة يناقش فيها مالكا رايه في العمل باجماع اهل المدينة ، وقد طلبه ابو جعفر المنصور للقضاء فابى ، ولكنه لم يلتمس في ابائه تعاليا ، ولم يصطنع لنفسه تمضضا ، وانما رفضه باضعف ما فيه ، واقواه في نفس الوقت « .. لا يا امير المومنين ، اني اضعف من ذلك ، اني رجل من الموالي ! » .

ذلك هو الفقيه العظيم الذي لقيه يحيى في رحلته وتتلمذ عليه ، ولقد تاثر به ، وسنرى فيما بعد ، انه عدل عن آراء لمالك ، اتبع فيها مذهب الليث .

وقد لعبت مصر دورا ملحوظا في نشر المذهب المالكي ، وبخاصة في المغرب ، كانت احدى مراكز المالكية الهامة ، وبها استقر عديد من نبهاء تلاميذ مالك ، ينشرون مذهبه ، ويفقهون المسلمين على طريقته ، وكانت اهم محط لقوافل حجاج المغرب الاسلامي في طريقها الى مكة ، فكان اول تاثير ثقافي يلقاه الحجيج الاندلسي والمغربي ياتي منها ، فيتعلمون او على اقل تقدير يهيئون نفسيا لاستقبال المذهب الجديد ، فاذا قدموا مكة ، او رحلوا الى المدينة كانوا قد تهيئوا لرؤية مالك ، وليأخذوا دورهم في اداء رسالته ، وربما توقف بعضهم في مصر ، فيكتفي بما تلقى ويعود ، وهو امر يبدو واضحا بعد وفاة مالك مؤسس المذهب .

ليس ذلك وحده ، بل لنا ان نزعم ان قوافل التجارة التي كانت تهبط مصر للمبادلة او التجارة ، لم تكن بمنأى عن هذه الدراسة ، وانها كانت تأخذ منها بنصيب قل او كثر ، الامر الذي لم يتأت لمذهب آخر ، وليس ثمة شك في ان المذهب الحنفي اذ ذاك ، لو كان له في مصر من العمد والانصار ، ومن الذيوع والانتشار ، ما كان للمذهب المالكي ، لوجد طريقه ممهدا الى المغرب الاسلامي ، ولعله ربما لعب نفس الدور الذي لعبه المذهب المالكي .

في مدرسة مصر المالكية تعلم يحيى ؛ وربما كان تاثيرها عليه اقوى ما تعرض له من تاثير ، وقد تلمذ

(26) جلال الدين السيوطي : حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ج 1 ص 163 طبعة القاهرة 1883م
لمعرفة الدور الذي لعبته مصر في تاريخ احداث الاندلس والمغرب انظر مقالا قيما للدكتور محمود علي مكي ، في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد تحت عنوان :
Egipto y La historiografia arábigo-espanol, Vol. 7, P. 158.

في هذه المدرسة لاستاذين عظيمين من نجب المذهب المالكي .

اول هذين الاستاذين ، عبد الرحمن بن القاسم ، وقد درس على مالك نفسه ، وصحبه زمنا طويلا ، وكان قبلة المغاربة والاندلسيين في حياة مالك وبعد موته ، ولم يكن يحيى وحده من المع تلاميذه ، بل كان منهم ايضا من هو اكثر شهرة وذيوعا في عالم الفقه ، ابو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي ، المعروف باسم سحنون فقيه المغرب العظيم ، كان ابن القاسم يملي على طلابه ما عرف بعد باسم المدونة ، فقد تلقاها عنه اسد بن الفرات ، احد فقهاء المغرب الكبار ، فأضاف اليها وهذب فيها ، وعنه تلقاها سحنون ، فعاد بها الى مصر ، وأعاد عرضها على ابن القاسم ، فعدلا فيها وحذفا منها ، حتى استقرت على وضعها الاخير الذي انتهت الينا فيه ، لم يكن ابن القاسم بالنسبة لمالك مجرد طالب فحسب ، يتلقى عن استاذه ويعي رايه ، وانما كان يتفهم ويقيس ويتصرف ، ويخالف استاذه احيانا فيما ارتأى .

ماذا سمع يحيى من استاذه المصري ؟

تقول رواية الديباج المذهب ، انه سمع منه مسائله ، وحمل عنه عشرة كتب وكتب سماعه (27) ، ويقول ابن الفرضي « ان يحيى راى ابن القاسم فدون سماعه من مالك ، ثم رحل الى مالك ثانية ليسمع منه ما دونه ابن القاسم ، فالفاه عليلا ، فاقام عنده الى ان توفي فحضر جنازته ، وعاد الى ابن القاسم ليسمع منه سماعه عن مالك ، وساله عن العشرة» (28)

الرواية اذن تتحدث عن سماع ابن القاسم ، دون تحديد له باسم او كتاب ، اذ يبدو انه حتى ذلك الوقت لم يكن قد دون بطريقة منظمة تجعل منه موضوعا محددا ذا عنوان ، اما الكتب العشرة ، فليست الا ابوابا من كتاب ، فقد كان لفظ « كتاب » يطلق في العصر الاول على ما اصطلح على تسميته فيما بعد باسم « باب » وهو يستخدم بكثرة في مؤلفات ذلك العصر ، فيقال « كتاب الطهارة » او « كتاب الصلاة » وقد صرف النظر عن هذا الاصطلاح ، حينما انتشر الورق ، وعمت الكتابة ، بفعل النسخ او ابتداع الطباعة، فاصبح اصطلاح كتاب يطلق على ما يضم بين جلدتين ، واحدا كان الموضوع الذي يناقشه او متعددا .

ما هو الفارق بين مسائل ابن القاسم وسماعه والكتب العشرة ؟

فيما يبدو لي ، السماع كان رواية ابن القاسم لما سمع من مالك ، امينة دقيقة خالصة ، على حين ان المسائل تخريج وتطبيق لما سمع ، على ما راى وما سئل عنه وما افتى فيه ، فهي امور فيها من شخصيته ومن فهمه الشيء الكثير ، واما الكتب ، فلعلها فصول من الموطا او من المسائل اكمل تنظيمها وتدوينها ، فلا يتلقاها الطلاب شفاها ، وانما ينقلونها عما دونت فيه ، ولم يشر مرجع واحد عن ماهية الكتب العشرة التي نقلها يحيى عن ابن القاسم .

واما الاستاذ الثاني ليحيى في مصر فهو : ابو محمد عبد الله بن وهب ، كان كمواطنه تلميذا لمالك ، وله من الشهرة ما لزميله ، وله روايتان للموطأ ، احداهما موسعة تحمل اسم « الموطأ الكبير » والاخرى مختصرة تحمل اسم الموطا الصغير ، ولكن واحدة من الروايتين لم تصل الينا ، وقد سمع يحيى من ابن وهب موطاه ، وهو ما تذكره المراجع صريحا ، وان اقتصرت رواية المقري على ان يحيى سمع من ابن وهب دون تحديد .

*

وبعد ..

فاحسب اننا قد اعطينا صورة واضحة لمدارس الشرق التي ارتادها يحيى ، وصورة مجملة لنشاطه هناك ، وهما صورتان كلتاهما توضح الاخرى ، وتنيران ما ابهم من سيرته وترفعان ما قد يتغشاها من لبس وابهام .

وسندع صاحبنا هنا في مصر تلميذا ، قد استوعب فقه عصره ، واسترعى نظر شيوخه ، لنلقاه هناك .. في الغرب الاسلامي ، في الاندلس ، على الضفة اليسرى للمضيق !

« للبحث صلة »

---

27) ابن فرحون : الديباج المذهب ص 350 .
28) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس ، ترجمة رقم 1554 .



بمناسبة مرور 50 عاما على وفاته

« انما ينهض بالشرق مستبد عادل ، مستبد يكره المتناكرين على التعارف ويلجىء الاهل الى التراحم ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رايه فى منافعهم بالرهبة ان لم يحملوا انفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة ، عادل لا يخطو خطوة الا ونظرته الاولى الى شعبه الذي يحكمه فان عرض خط لنفسه فليقع دائما تحت النظرة الثانية فهو لهم اكثر مما هو لنفسه ، يكفي لابلاغهم غاية لا يسقطون بعدها خمس عشرة سنة وهي سن مولود يبلغ الحلم يولد فيها المفكر الصالح وينمو تحت رعاية الولي الصالح ويشتد حتى يصرع من يصرعه ، خمس عشرة سنة يثني فيها اعناق الكبار الى ما هو خير لهم ولاعقابهم ويعالج ما اعتل من طباعهم بانجع انواع العلاج ومنها البتر والكي اذا اقتضت الحال ، وينشيء فيها نفوس الصغار على ما وجه العزيمة نحوه ويسدد نياتهم بالتثقيف وهل يعدم الشرق كله مستبدا عادلا فى قومه يتمكن به العدل ان يصنع فى خمس عشر سنة ما لا يصنع العقل وحده فى خمسة عشر قرنا » .

❋

هذا هو اسلوب تفكير محمد عبده وهو اسلوب منظم يدل على التعمق فى فهم نفسيات الشعوب وتطور الحياة الاجتماعية وولادة النهضات وشيخوختها .

وقد بدا محمد عبده حياته الفكرية (مصاحفا) يكتب فى الاهرام 12 اغسطس 1876 ثم راس تحرير الوقائع المصرية وحرر العروة الوثقى وغيرها من الصحف المعاصرة .

وفى اول مقال له الى الاهرام تتبين مقدرة الكاتب الشاب وهو مقال — كما يقول الدكتور ابراهيم عبده — يدل على علم اصيل ويعطي صورة بديعة عن قدرة بعض ادباء العصر على التعبير فى سجع مطبوع .

ومقالات الشيخ محمد عبده فى الاهرام كان معظمها تلخيصا لمحاضرات السيد جمال الدين الافغاني وكانت تشغل مساحات كبيرة من اعداد متصلة (من 2 سبتمبر 1876 \ 11 مايو 1877) وهو بذلك اول من كتب ملخصات للمحاضرات فى الصحف .

ثم اختير مشرفا على تحرير الوقائع عام 1879 فنشر فيها مقالات ممتازة واستكتب فيها جيلا جديدا من شباب الكتاب من بينهم عبد الكريم سليمان وسعد زغلول وابراهيم الهلباوي .

وقد اتجه فى تحرير الوقائع الى المسائل الاجتماعية وقد عرف اسلوبه بالبساطة والهدوء والتحليل دون مبالغة او اندفاع مما يمكن ان يوصف بانه من الادب الواقعي .

وفى خلال توليه منصب مدير المطبوعات كان يتشدد مع محرري الصحف فى ضرورة النهوض بالتحرير حتى انه انذر مدير جريدة شهيرة بتعطيلها اذا لم يتخير لها محررا صحيح العبارة فى حد عينها .

وقد نشر فى الوقائع بضعة وثلاثين مقالا تناول فيها احوال البلاد ، ودعا الى الترقي واقامة النهضة على اسس ثابتة .

وفى عام 1884 اصدر مع استاذه جمال الدين الافغاني فى باريس جريدة (العروة الوثقى) حيث صدر العدد الاول منها فى 12 مارس 1884 فانزعجت لصدورها بريطانيا ومنعتها من دخول الهند ومصر ، ولم تستطع الجريدة ان تصدر اكثر من ثمانية شهور

فصدر آخر اعدادها في 18 اكتوبر 1884 فلما عاد محمد عبده الى سوريا بدأ مشروعا قوامه التاليف والبحث فشرح نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان واملى رسالة التوحيد فلما عاد الى مصر كتب فصولا في الرد على مقال جبرائيل هانوتو وزير الخارجية الفرنسية (وجها لوجه مع الاسلام والمسالة الاسلامية) كما رد على (فرح انطون) محرر مجلة الجامعة ردا مفحما لاذعا .

وعمد محمد عبده الى ترجمة رسالة استاذه جمال الدين الافغاني من الفارسية الى العربية « الرد على الدهريين »

وهكذا ملأ محمد عبده حياته بالعمل الادبي والفكري فكان ذلك جانبا من ابرز جوانبه المتعددة كمفت للديار المصرية وقاض اهلي ومستشار في محكمة الاستيناف وعضو في مجلس الازهر .

ولا شك ان رعاية محمد عبده لمجلة المنار في ايامه الاخيرة ونشر آرائه بها على لسان السيد رشيد رضا هو جزء من الخطة المجيدة له كرجل صحفي وكاتب اتصل بالصحافة والفكر ثلاثين عاما كاملا .

ولا غرو ان يتجه محمد عبده هذا الاتجاه فقد كانت الكتابة والصحافة هي وسيلة المصلح والداعية والمفكر في اداء رسالته فاذا عرف ان الشيخ محمد عبده قال في مطالع حياته (انما خلقت لكي اكون معلما) عرفنا انه انتقل من التعليم في الفصول وبين مقاعد الدرس ، الى التعليم على نطاق الامة كلها عن طريق الصحيفة والكتاب .

وتبدو صورة محمد عبده كرجل يكره التقليد في اسلوبه الذي كتب به في الاهرام لاول مرة ، وفي نوع محاضراته التي بدأ بها عمله في دار العلوم ، حيث تحدث عن (مقدمة ابن خلدون) وتوسع في الحديث عن نهوض الامم وسقوطها واصول الحضارة والعمران البشري والاجتماع الانساني .

وقد بدا محمد عبده اتجاهه الادبي والصحفي بالدعوة الى الاصلاح والتعليم ، ولم يكن في صميم عقيدته يرضى عن وسائل الثورة والتهييج والاسلوب العاطفي في تحقيق رسالته ، وهو ان كان قد جرى مع استاذه جمال شوطا في هذا الاتجاه الا انه لم يلبث ان عاد الى فطرته فاعلن مذهبه واضحا : الايمان بالتربية والعكوف على اعداد افراد على اهداف واضحة في مكان هادىء بعيد .

وربما كانت لقراءته وتجاربه واسفاره الى اوربا ولقائه لعدد من علمائها وساستها اثر واضح في تكييف هذا الراي ، ولا شك ان الشيخ محمدا عبده قد جبل على الاتجاه العقلي والاجتهاد ووضع ذلك منذ ان رجح مذهب (المعتزلة) في الازهر فنال غضب اساتذته وقال له الشيخ عليش يحاوره : بلغني انك رجحت مذهب المعتزلة على مذهب الاشعرية . فانبرى عبده يرد عليه بقوله : اذا كنت اترك تقليد الاشعري فلماذا اقلد المعتزلي ، اذن اترك تقليد الجميع وآخذ بالدليل .

وهكذا تحرر محمد عبده من الاساليب القديمة ورفض التقليد ونهج في دروسه نهجا جديدا ، وكانت حلقاته في التاريخ الاسلامي وفلسفة الاجتماع واسرار نهوض الامم في الازهر ودار العلوم ومدرسة الالسن تقوم على اساس التوجيه والبعث وتطهير العقول من الخرافات والبدع .

وقد عرف محمد عبده بالبلاغة في الحديث والتمسك بالعربية الفصحى في الكتابة والحديث ، فصيح اللسان بليغ العبارة . وقد اعانه على ذلك اتقانه للاداب العربية مما مكنه من تكييف اسلوبه الادبي وفق الاتجاه العلمي . وقد قرا محمد عبده مصنفات العلماء الغربيين مترجمة الى العربية ، وفي حدود الاربعين تعلم اللغة الفرنسية ، وعني بقراءة كتب الاخلاق والاجتماع والتاريخ والفلسفة والتربية مما ترجم عن الفرنسية او الانجليزية واعجب بهربرت سبنسر وزاره في انجلترا وترجم الى اللغة العربية كتابه في التربية عن النص الفرنسي ، وقد اشار محمد عبده الى اثر تعلمه لغة اجنبية فقال (ان الذي زادني تعلقا بتعلم لغة اوربية هو اني وجدت انه لا يمكن لاحد ان يدعي انه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة امته ، ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي الا اذا كان يعرف لغة اوربا ، كيف لا وقد اصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الاوربيين في جميع اقطار الارض ، وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم ان يشتغل للاستفادة من خيرهم او للخلاص من شر الشرار فيهم) .

ويرى محمد عبده ان رحلاته الى اوربا امدته بفائدة عظيمة فكان يقول (ما من مرة اذهب الى اوربا الا ويتجدد عندي الامل في تغييرحال المسلمين الىخير منها) وكان الشيخ خلال اسفاره الى فرنسا وسويسرا يحضر في جامعة جنيف دروس العطلة في الاداب وتاريخ الحضارة .

وقد كان محمد عبده قوي الحجة في معارضته لاعداء الفكر العربي ويبدو ذلك في رده على جبرائيل

هانوتو حيث يقول لـه : (ان الحضارة التي وصل اليها الاوربيون لم تصل اليهم الا مع المهاجرين الاولين الذين رحلوا اليها من البلاد الشرقية الاربة وان اليونان الذين سماهم مسيو هانوتو معلمي اوربا اقتبسوا مدنيتهم من مخالطة الامم السامية .

وانه بينما كانت اوربا لا تعرف مدنية غير التسافك في الدماء واشهار الحرب جاء اليها الاسلام حاملا معه علوم اهل فارس والمصريين والرومان واليونان بعد ان نظف جميع ذلك ونقاه من الادران والاوساخ التي تراكمت عليه بايدي الرؤساء في الامم الغربية ، وهكذا اخذ الغرب الاري عن الشرق السامي اكثر مما ياخذه الان الشرق المضمحل عن الغرب المستقل . . .)

وهو يهاجم المتحلين والمقلدين هجوما حرا : فيقول : علمتنا التجارب ونطقت مواضي الحوادث بان المقلدين من كل امة المتحلين اطوار غيرها ، يكونون فيها نوافذ لتطرق الاعداء اليها ، وتكون مداركهم مهابط الوساوس ، ومخازن الدسائس ، بل يكونون بما افعمت افئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم ، واعتقاد من ليس على مثالهم شؤما على ابناء امتهم ، يذلونهم ويحظرون امرهم ويستهينون بجميع اعمالهم وان جلت، ويصير اولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وارباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ويفتحون الابواب ، ثم يثبتون اقدامهم ويمكنون سلطتهم ، ذلك بانهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ولا يظنون ان قوة تغالب قواهم .

وقد عرف محمد عبده بانه في خلال حياته الفكرية والصحفية لم يمس فردا من الافراد مهما يكن بينهما من خصومة ، فاذا اضطر الى ذلك هاجم في اسلوب عف كان يتجه دائما الى الناحية الموضوعية .

وقد جعل محمد عبده اصلاح اللغة واحدا من هدفيه العظيمين اللذين وقف حياته عليهما فيما يروي عن نفسه في حديث طويل . . . اما الهدف الثاني هو تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الامة .

يقول محمد عبده انه دعا الى اصلاح اساليب اللغة العربية في التحرير سواء في المخاطبات الرسمية او في المراسلات بين الناس (وكانت اساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين كلاهما يمجه الذوق وتنكره لغة العرب . الاول : ما كان مستعملا في مصالح الحكومة وما يشبهها ، وهو ضرب من ضروب التاليف بين الكلمات رث خبيث غير مفهوم ولا يمكن رده الى لغة من لغات العالم ، لا في صورته ولا في مادته ، والنوع الثاني ما كان يستعمله الادباء والمتخرجون من الجامع الازهر ، وهو ما كان يراعى فيه السجع وان كان باردا ، وتلاحظ فيه الفواصل وانواع الجناس وان كان رديئا في الذوق بعيدا عن الفهم ثقيلا على السمع غير مؤد للمعنى المقصود .

وترجع قدرة محمد عبده في التحليل الى نزعته الفلسفية التي تتفق مع طبيعته التي تتجه الى التامل والروية ، فقد كان دائما يرجع في تقرير الراي الى البرهان ويرفض الاحكام المشهورة .

وقد كان الشيخ عبده معنيا بالتحدث عن (علة تاخر الشرق) مطالبا بدراسة علم التربية الذي يمس ادب النفس وما اودعته الديانة من الاداب النفسية والكمالات الروحية لم يختلف في صحته احد من البشر حتى من يظن نفسه غير آخذ بالدين ، فاذا استكملت النفس بآدابها ، عرفت مقامها من الوجود وادركت منزلة الحق في صلاح العالم فانتصبت لنصره وايقنت بحاجتها الى مشاركيها في الوطن والملة ، فاخذت بالفضيلة الجامعة للفضائل وهي ما يعبر عنه بحب الوطن والدولة والملة .

وعلى الجملة فان اسلوب محمد عبده كان عنوانا على تحرير الاسلوب العربي من السجع المتكلف مطلقا من القيود وقد وصف عبده هذا الاسلوب بانه يقصد الى (الابانة عن الغرض لا الغاز فيه وان اساس البلاغة القصد في التعبير والدقة في الاداء) .

وقد حرص محمد عبده على الدعوة الى التربية وقرر « تقليد الاوربيين ومجاراتهم في عاداتهم التي نظنها تفوق عاداتنا البسيطة ، كما حارب الترف وحمل على الاثرياء الذين جعلوا همهم تحصيل ضروب اللذات واستكمال وسائل الترف » .

وكان في دعوته الى الحرية الفكرية حريصا على التدرج يقول « من الخطأ بل من الجهالة ان تكلف الامة بالسير على ما لا تعرف له حقيقة او يطلب منها ما هو بعيد عن مداركها بالكلية كما انه لا يليق ان يطلب من الشخص الواحد ما لايعقله او ما لا يجد اليه سبيلا . وانما الحكمة ان تحفظ لها عوائدها الكلية المقررة في عقول افرادها ، ثم يطلب بعض تحسينات فيها لا تبعد منها بالمرة ، فاذا اعتادوها طلب منهم ما هو ارقى بالتدريج حتى لا يمضي زمن طويل الا وقد انخلعوا عن عاداتهم وافكارهم المنحطة الى ما هو ارقى من حيث لا يشعرون » .

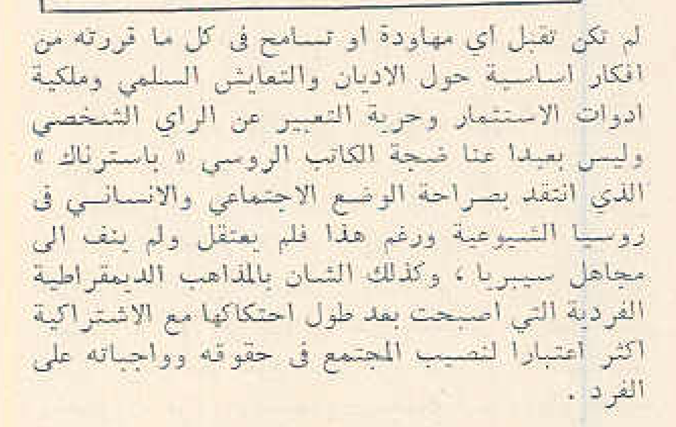
والشيخ محمد عبده بعد هذا كله حبيب الى نفوس اهل المغرب فقد زارهم وترك فيهم آثارا فكرية لاتنسى .

الاسلام والمسلمون فى روسيا الشيوعية

للأستاذ جمال الدين البغدادي



من الاهمية بمكان ان ندرس وضع الاسلام والمسلمين فى روسيا بعد فترة من الزمن كانت الشيوعية فيها تشحذ كل ادواتها الهدامة للقضاء على دين عريق وعلى مجتمع اصيل قصد تغيير عقيدته السماوية بفلسفة مادية ارضية ، وهذه الدراسة تفيدنا من اعتبارين اثنين : فنحن كمسلمين يجب ان نعرف طاقتنا الحيوية والبشرية والوضع الاجتماعي والسياسي لكل مجتمع اسلامي على وجه الارض حتى نحاول ان امكن توثيق علاقاتنا باخواننا فى العقيدة والشعور – ثم لنرى التطورات التي لحقت الاسلام نفسه من جراء اقترانه بمذاهب غريبة عليه او متضاربة معه ، هذه الدراسة قام بها بعض المفكرين الغربيين فيما يتعلق بالمذهب الراسمالي الذي اصبح يصارع الافكار الاشتراكية والشيوعية وقد خرجوا ببعض النتائج منها نظرية – التفاعل والتبادل المذهبي – وفحواها انه مامن فلسفة الا وتاخذ – وتعطي – من غيرها من الفلسفات وان التعصب الشديد والتطرف العقائدي يلين ويصبح اكثر تسامحا ومسايرة نتيجة هذا الاحتكاك مثال ذلك الشيوعية نفسها فلم تبق شيوعية مارك ولينين التي



لم تكن تقبل اي مهاودة او تسامح فى كل ما قررته من افكار اساسية حول الاديان والتعايش السلمي وملكية ادوات الاستثمار وحرية التعبير عن الراي الشخصي وليس بعيدا عنا ضجة الكاتب الروسي « باسترناك » الذي انتقد بصراحة الوضع الاجتماعي والانساني فى روسيا الشيوعية ورغم هذا فلم يعتقل ولم ينف الى مجاهل سيبريا ، وكذلك الشان بالمذاهب الديمقراطية الفردية التي اصبحت بعد طول احتكاكها مع الاشتراكية اكثر اعتبارا لنصيب المجتمع فى حقوقه وواجباته على الفرد .

فهل يا ترى تاثر الاسلام مثل تاثر الشيوعية والديمقراطية ؟ .

قبل الاجابة على هذا السؤال يحسن ان ننظر الى واقع الوضع فى روسيا بالنسبة للاسلام وللاسف ان الباحث تنقصه المراجع الكافية التي تعطيه فكرة صحيحة عن حالة المسلمين والاسلام فيما وراء الستار الحديدي وكل ما كتب حتى الآن تقريبا مصطبغ بطابع الدعاية والتهريج السياسي البعيد عن الدراسة العلمية المجردة عن غلواء الحزبية والوطنية الضيقة ، ومع ذلك يمكن ان نتلمح من كل هذه الاقوال المتضاربة بعض النور بالاضافة الى اتصالات شخصية حصلت لي مع روس مسلمين جاءوا الى سوريا (الاقليم الشمالي للجمهورية ع . م) سنة 1955 / 1956 بمناسبة مهرجانات فنية ، وقد دار الحديث حول وضعهم الحقيقي هنالك وحول ما تبقى لهم من الاسلام الصرف، وفيما يلي خلاصة هذه الملاحظات المستقاة من الكتب والاشخاص .

ان الممعن فى الوضع الجغرافي للشعوب الاسلامية الروسية يرى ان الاحتكاك قوي بين تخوم البلادين وان التجاور الشاذ بين امبراطوريتين لابد ان يؤدي الى

الحرب والسطو لتضارب الوضعين واختلافهما الطبيعي لتصميم كل من المسلمين الاسيويين والروس على البقاء وحمل الدعوة كلما امكن ذلك ، وقد شرع الروس فى هذه السياسة العدوانية منذ اواخر القرن الثامن عشر وبدات تتكون الدولة الروسية بفضل هذا الابتلاع التدريجي للشعوب الاسلامية التي كانت فى ضعف تكويني شديد ، وقد اتضح هذا التدخل فى القرن التاسع عشر وكانت روسيا تنافس انجلترا وفرنسا فى الاستعمار واختطاف الاراضي والممتلكات الافريقية والاسيوية ، ومع ذلك فان التدخل الروسي كان يتصف دوما بالحيطة والتحفظ ولم يفقد المجتمع الاسلامي اول الامر خصائصه الاساسية فى عهد « الدمار » ولكن سرعان ما انعكست السياسة الروسية بعد ثورة 1919 وبدات مرحلة التدخل السافر فى اخص مميزات المسلمين وعقيدتهم .

ويمكن تمييز اربع مراحل فى اسلوب طريقة نشر المفاهيم الاشتراكية داخل هذه الشعوب الاسلامية التي اصبحت بعد الثورة داخل الاراضي الروسية .

1 — من ثورة 1919 الى 1937 — لم تحارب الاسلام محاربة مباشرة ولكن احيت النزعات الوطنية والعرقية كما هو شان فرنسا فى الجزائر حينما ارادت ان تقضي على الاسلام باحياء العنصرية البربرية وتشجيع النزعات الوطنية غير العربية ، وكذلك الامر كان فى روسيا فلم ينفصل المسلمون عن ماضيهم القومي الوطني ولا عن لغاتهم المحلية وعن اساطير ابطالهم وبعبارة اخرى حافظ الروسيون على الفولكلور الشعبي للمسلمين القوقازيين والازبكستانيين ، وغيرهم ، ولكن ابعد التاريخ الاسلامي ابعادا تاما .

2 — من سنة 1937 الى 1950 — رجع الشيوعيون عن سياستهم الماضية ولم يعودوا يشجعون تلك الحركات الوطنية — فحورت اللغات المحلية بلهجاتها واعيدت كتابة التاريخ من جديد متخذين اسلوبا جديدا فى عرض الماضي ، لقد مجد الروس الحركات الوطنية السابقة لمحاربتها النظام « التتاري » البائد ولكن فى هذه المرحلة حوربت هذه الانتفاضات القومية واصبحت اشد خطورة من الانظمة الدينية الرجعية ، ولنا ان نعتبر هذه الفترة مرحلة « تشييع » المسلمين .

3 — من سنة 1950 الى 1955 — اصبح النقد موجها مباشرة الى الدين بكافة صوره — تثبيت الفلسفة الشيوعية واللغة الروسية بين الجاليات المسلمة .

4 — بعد سنة 1955 نجد السياسة الشيوعية تتخذ مظهرا آخر وقد صادف هذا التحويل نهضة الدول العربية فى العالم العربي — ولذلك خفت الحملات والنقد الذي كان يوجه الى الاسلام ويبدو من كل ما سبق ان الروسيين لم تكن لهم سياسة طويلة الامد تجاه الدين الاسلامي حيث انهم كانوا يهاودونه تارة ومرة اخرى يعنفون فى الرد عليه ، ولكن الحقيقة ان الشيوعيين اعداء الاسلام كيفما كانت اتجاهات هذه السياسة ، ويمكن الظن بل من المؤكد ان الروس حاولوا ويحاولون ابدال الاسلام بالمذهب الشيوعي ، ولاشك ان هذا العمل صعب وليس سهلا تغيير العقائد الراسخة المتاصلة فى عقول وارواح تلك الشعوب المسلمة بدون اتخاذ سياسة حكيمة ، وقد حسبوا ان طورين اثنين كفيلان بتطبيق سياسة التشييع فى المرحلة الاولى تشجع الحركات القومية المحلية قصد ابعاد الماضي الاسلامي والحضارة الاسلامية من عقول هذه الشعوب وجعل الاسلام دينا فرديا ينحصر فى التراتيل والشعائر الضيقة اي فصل الاسلام عن مفهومه الاجتماعي الشامل ومعناه الانساني العميق ، فسمحوا بالعبادات ما عدا الصيام الذي يقلل فى نظر الروس الانتاج القومي، وقد ابدلت الشريعة الاسلامية بالقانون الروسي الذي يطبق على كافة المسلمين ، واذا سمحوا بالافتاء ففي المسائل الخاصة بالعبادات ، وهذه السياسة ليست متساوية بالنسبة لجميع الاقاليم الاسلامية ففي الكازاخستان الواقعة داخل الاراضي الروسية ترى الروس يشددون فى التطبيق الحزبي لسياسة التشييع اما فى « بوخارا » وهي على اطراف الدولة الروسية نجد هذا التطبيق واقعا على مراحل .

ويعرف المعلقون السياسيون ان المقاومة كانت دائما موجودة من قبل المسلمين فى روسيا والدليل ان عددا كبيرا من المسلمين يفرون ويلتجاون الى البلاد المجاورة لروسيا خوفا من الاضطهاد الديني .

هذا فيما يتعلق بالاسلوب الاول فى محاربة الاسلام — والطريقة الثانية غير مباشرة ويحصل هذا بادخال نمط الحياة الحديثة فى هذه البلاد الاسلامية المتاخرة كالاعمال الجماعية وحركات التصنيع وتحرير المراة والتثقيف المبدئي الشيوعي .

وقد ظن الروس ان وسائلهم نجحت تقريبا فى اضعاف العقيدة الاسلامية من نفوس المسلمين عندهم فسمحوا لهم بالحج وفتحت بعض المدارس لتعليم مبادىء الاسلام كما علمنا هنا من بعض المسلمين القادمين الى البلاد العربية حتى جاز القول بان هنالك انتعاش جديد فى الحركة الاسلامية داخل روسيا الحمراء فى الاونة الاخيرة كالسماح بالصيام والاضحية والحج الخ . . . ولكن لا ننسى ان هذا التساهل لايوجد الا فى المناطق المتاخرة اقتصاديا وثقافيا دون المناطق الاخرى ويحق للروس الا يرهبوا بعد جانب الاسلام لان ما تبقى منه هو عبارة عن تصوف وهستيريا دينية اكثر مما هو اسلام وضعي عميق ، واذا كان هذا التسامح حقيقيا فلا يتعدى الصلاة وبعض الشعائر الفردية اما فلسفة الاسلام اما معانيه السامية فالحرب قائمة ضدها الى يومنا هذا ، وقد كتبت الموسوعة الروسية كتابات غريبة فى فصل « اسلام » تدل على حقيقة ما يؤكده المطلعون على خفايا السياسة الروسية تجاه الاسلام ، قالت هذه الموسوعة: « الاسلام كان دوما فى يد الطبقة المستقلة قصد استغلال الطبقة الكادحة . . ظهر الاسلام ابان نشوء نظام الطبقات فى المجتمع العربي . . . » وقد كتبت الموسوعة ما يشبه هذا التخريف العلمي حول القرآن قالت : « ان الايات القرآنية المنزلة بالمدينة تدل على ان نظام الرق قد اقره الله وابقاه الى الابد . . » وقد فسروا ظهور الفرق فى الاسلام بانه قام نتيجة تمرد الطبقة الكادحة فالخوارج تمردوا على اسيادهم ـ وان الاسلام دين رجعي ـ وان الاسلام نظر الى الحياة نظرة تشاؤمية الخ . . هذه الاقوال التي لا تصدر عن عاقل يعرف المنطق والتاريخ.

وخلاصة القول ان الاسلام منكمش على نفسه فى روسيا الاشتراكية ولم يستطع ان يجابه الشيوعية وسبب ذلك واضح وهو ان الاسلام هنالك ينقصه المفهوم الفلسفي العميق والنظرة الكلية لكافة شؤون الحياة لذلك نجد الشباب المسلمين ينقادون بسهولة الى الشيوعية لانهم يجدون فى هذه الاجوبة الكاملة لكل مشاكل الحياة .

فالخطر اذا كبير على الاسلام هنالك لان الاسلام واقف بدون سلاح ليصارع فارسا مدرعا فى يده كل الاسباب ، ومع ذلك فقد مرت على الاسلام مراحل فى التاريخ تشبه هذا الوضع ولم ينمح الاسلام تماما من قلوب الناس ، وقد تكمن الحقيقة وتختفي حتى تمر العاصفة واذا بها تقف من جديد اشد ما تكون صلابة وحيوية لان الاسلام دين الحق والعقل والفطرة ولابد لهذه العناصر ان تعيش وتقود البشرية الى مستقبل فيه الاسلام الحقيقي والسعادة الدائمة .

دين الاسلام ومقتضيات الحياة البشرية

فى الصحيحين عن انس رضي الله عنه ان نفرا من اصحاب رسول الله (ص) سالوا ازواج النبي (ص) عن عمله فى السر فقال بعضهم لا اتزوج النساء ، وقال بعضهم لا اكل اللحم ، وقال بعضهم لا انام على فراش فبلغ النبي (ص) فحمد الله واثنى عليه ثم قال (اما بعد ما بال اقوام قالوا كذا لكني اصلي وانام واصوم وافطر وآكل اللحم واتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني .



تحـــدث في هذه الايام كثيرا عن التعبئة التي لا مناص منها لهذه الفترة الانتقالية التي تجتازها البلاد ، فيتحدث مثلا عن وجوب التعبئة لاعادة بناء مدينـــة اكادير وعن وجوب التعبئة للقيام بحملة واسعة لقلع الدوم وغرس الاشجار ، بل ويتحدث الناس عن اعلان التعبئة لاصلاح الطرق التي ليس في وسع الميزانية ان تخصص الاعتمادات اللازمة لاصلاحها ، وانه لشـــيء يسر كثيرا ان نسمع هذا ونسمعه في اوساط مختلفة ، وانه لما يسر كذلك ان يلاحظ المرء سريان هذه الروح في المواطنين ، ذلك لان الاستقلال لا ينبني ابدا بالروتين الاداري العادي ، بل لابد فيه من الاعمال الاستثنائية التي تقضي بها ظروفنا الحاضرة سواء في الداخل او في الخارج . وصحيح ان التعبئة هي الحل الوحيد لبناء الاستقلال ، وصحيح كذلك ان هذه التعبئة يجب ان تسودها روح التفاني والتكاثف والاخلاص لتوتي اكلها سريعا وبناء على مقتضيات الظروف ، واذا سمعنا وما نزال نسمع عن هذه التعبئة فاننا نقترح اعلان تعبئة فكرية من هذا القبيل ، تعزز هذه التعبئة الماديـــة وتساندها وتعطيها روحا تستطيع معها الانطلاق باسرع ما يمكن من الوقت ، وتكون في الوقت نفسه مظهرا من مظاهر النشاط القومي في الميدان الفكري ، فما هـــي الوسائل التي تكون وتملي هذه التعبئة الفكرية ؟

ان هذه التعبئة ينبغي ان تبتدىء بتنظيم نـــدوة فكرية تبحث شؤون المغرب الاجتماعية والثقافيـــة ، وتنشر خلاصات هذه الندوات على الجمهور ليطلع عليها ويستفيد منها ويعطي المواطنون فيها آراءهـــم وينبغي ان ياخذ الانتاج الادبي او جزء منه عناصره من هذه المشاكل التي تواجه المغرب اليوم ليصوغهـــا في قالب المقالة او القصة او القصيدة ، ونحن لا نريد هنا ان نضيق آفاق الفكر والثقافة غير اننا نعتقد ان حالة الطوارىء التي نعيشها اليوم تستلزم استخدام الفكر كوسيلة من الوسائل التي تحتاج اليها هذه الفتـــرة الانتقالية التي يجتازها المغرب ، وفي راينا ان الفكر الذي يتغافل عن صور البيئة المحيطة به ليطلب عناصره من مؤثرات بعيدة اخرى انما هو فكر يتعامى عن الحقائق ويتحاشى المشاركة في تشخيص المشكلات حتى يراها المثقفون واضحة فيما يقرؤونه ، وحتى يتمكن الفكـــر بوسائله الخاصة من ان يجعل هذه المشاكل تنفعل في نفوس الذين يرونها وهي مشخصة في الانتاج الفكري .

ذلك لان الازمة التي نعيشها اليوم هي ازمة عدم معرفة لمشاكلنا الحاضرة والذين يعرفون شيئا عـــن هذه المشاكل يعرفونها في غير عمق ، ومن مهمة الفكر ان يطلع المواطنين على عمقهـــا ويدلهم على باطن باطنها ، فالانتاج الادبي الذي يستطيع تقديم خلاصة لهـــذه المشاكل ويقرع الناقوس على آذان الذين يجهلونها هـــو الانتاج الصحيح ، وهو الذي يصلح لان يقوم بـــدوره كاملا في هذه التعبئة الفكرية التي نقترحها وندعو اليها ،

وانا لا نقترح هنا شيئا جديدا، فلقد سبقتنا امم اخرى فى هذا الميدان ، عبأت الفكر ليعزز حركة الانبعاث التى قامت بها ، عبأته بالقاء دروس ومحاضرات وعقد ندوات ، وجعلت للفكر مكانته فى المعامل وفى المؤسسات، وجعلت من نشاطه جزءا من نشاط حياتها اليومية . فكان مما لابد منه ان تفتح البصائر وان تفتح اعين جميع المواطنين على مشاكلهم التي هم مطالبون وحدهم بحلها والتغلب على ما يحيط بها من مصاعب واستطاع هذا الجو ان يعطي غير المعلمين عوامل الاستعداد لفهم هذه المشاكل ، وبتوالي مثل الجهود وقع انسجام فكري فيما بين كافة المواطنين فى فهم مشاكل بلدهم وبذل الجهود والتطوع لحلها ، ذلك لان الدولة لم تكن قادرة وحدها على مواجهة هذه المشاكل فافسحت المجال للتعبئة الفكرية وتشجيعها لتعينها على نشر الوعي الاجتماعي فيما بين المواطنين حتى تكون مهمة الدولة سهلة ومتوفرة على التجاوب العميق فيما بينها وبين المواطنين ، ثم ان من شأن هذه التعبئة ان تساعد فى الوقت نفسه على حل الازمة الفكرية التي تشتكي منها لانها تخلق نشاطا ونشاطا متزايدا يبدل عسر الحياة الفكرية يسرا ، كما ان هذه الهيئات الثقافية التي سمعنا بتاسيسها اخيرا تجد فى هذه التعبئة ميدانا لابراز نشاطها بل انها تستطيع ان تتزعم هذه الحركة وتجعل لها فروعا وتركز نشاطها حولها ، والتعبئة الفكرية التي تدعو اليها تعبئة فكرية حرة يكون مرماها الوحيد هو تجنيد الحركة الفكرية فى سبيل الاهداف القومية النبيلة ، وتنشيط الحركة الفكرية فى هذه البلاد ، فلقد شاهدنا وما نزال نشاهد صورا من الانتاج الفكري يغمر الآن الاسواق والصادر عن بعض البلاد العربية يكون فى مجموعه مظهرا من مظاهر التعبئة الفكرية ، فالتعريف بالمغرب وبكنوزه الطبيعية وبطقسه الجميل يشكل نوعا من النشاط الفكري ، كما انه يشكل فى الوقت نفسه واجبا وطنيا فى اطار هذه التعبئة ، وتشخيص بعض الجوانب عن حياة البادية المغربية فى انتاج ادبي يساهم فى تدعيم الحركة الفكرية من جهة ويؤدي فى الوقت نفسه دورا اساسيا فى دراسة اجتماعية تلقي بعض الضوء على ما تحتاجه البادية من تطور واصلاح ، والقصة التي تبرز بعض المآسي فى الحياة الزوجية التي تقع فى المغرب تكون حلقة من حلقات النشاط الفكري وتساهم كذلك فى التعبئة الفكرية ، ونحن فى هذه المرحلة لا نتطلب المثالية والجودة المتناهية فى الانتاج الادبي وانما نسعى ونجد لكي يكون هنالك نشاط فكري شامل يشهد بان التعبئة فى المغرب تعبئة عامة وخاصة الحركة الفكرية تساهم فيها باوفى نصيب ، ولذلك فان هذا الادب الناشىء الذي نقراه ونسمعه ينبغي تشجيعه فى هذه الفترة حتى تسفر محاولاته اخيرا عن انتاج محكم ورصين ، واعتقد ان عناصر الفكر غير محتاجة فى الوقت الحاضر الى مؤثرات جوهرية تقتبس من الخارج ذلك لان البيئة المغربية تحتوي على عناصر متنوعة وخصبة ما يزال الكثير منها بكرا وفى حاجة الى من يستخدمه ويستغله ويمزجه مزجا ليخرج منه المقالة الايجابية فى مرماها والقصيدة الرائعة فى مغزاها والبحث الشيق فى موضوعه والقصة الممتعة فى حوادثها والرواية التي تربي وترشد وتساعد على خلق نهضة مسرحية ، بمعنى ان جميع امكانيات الانتاج التي تتطلبها هذه التعبئة موجودة ومتيسرة ، بقي شيء واحد هو ان نومن ايمانا عميقا بهذه الرسالة ولنتخلص من مركب النقص الذي يثبط العزائم ، ويقعد بها عن العمل المتواصل الذي يؤدي حتما الى خلق نهضة فكرية واسعة الارجاء ، ويحقق بالتالي هذه التعبئة الفكرية التي ندعو اليها لتساير مراحل التطور التي يقطعها المغرب فى ميادين اخرى .

الطراز المغربي :

الفن الاسلامي بالمغرب

للاستاذ :
عثمان عثمان اسماعيل

عندما ضعفت الدولة العباسية وانقسم العالم الاسلامي الى دول كثيرة ، بدات الفنون المحلية تتطور وتنضج وتشق طريقها معتمدة على ما ورثته من تقاليد فنية قديمة ، وما اتى به المسلمون عند الفتح ، حتى اصبح لدينا طرز اسلامية شتى تختلف فى مظهرها تبعا للوطن الذي نشأت فيه ، وتتفق فى كمون الروح الاسلامية فيها جميعا ، ومن امثلة ذلك : الطراز المصري والطراز الايراني والطراز التركي والطراز الهندي وغيرها (1) .

وبالنسبة للفن الاسلامي فى بلاد المغرب والاندلس، فقد اتفقنا على تقسيمه الى طرز اربعة لكل منها معالمه الخاصة ومميزاته الواضحة وهي : الطراز المغربي (27/479 هـ) والطراز الاندلسي (92/479 هـ) ثم الطراز الاندلسي المغربي (479/898 هـ) واخيرا طراز المرجنين الذي انتجه المسلمون تحت حكم المسيحيين باسبانيا(2) لاكثر من قرن بعد سقوط غرناطة (3) .

وقد تناولت فى حديثي السابق ، الكلام عن الطراز المغربي زمن الاغالبة (4) ، ونخصص هذا المقال لدراسة الفن المغربي الفاطمي .

ويتمثل الفن المغربي الفاطمي فى عدة تحف من مواد مختلفة كالخشب والعاج والنحاس ، وقد عثر فى الحفائر التي عملت فى كاريون دي لوس كونديس Carrion de los Condes من اعمال بلنسيه على علبة من العاج صنعت فى افريقية للخليفة المعز لدين الله الفاطمي بين عامي 341 هـ و 362 هـ ، وهي محفوظة الآن بمتحف مدريد وعلى قاعدتها كتابة مطعمة بالاحمر والأخضر ونصها «بسم الله الرحمن الرحيم نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه معد ابو تميم الامام المعز لدين الله) امير المومنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطيبين وذريته الطاهرين مما امر بعمله بالمنصورية المرضية صنعة . . مد الخرساني » (اللوحة رقم 1) .



اللوحة رقم 1

علبة من العاج محفوظة بمتحف مدريد تعتبر وثيقة اثرية كاملة حيث تتضمن اسم الخليفة الذي صنعت له ومحل الصنع واسم الصانع . وقد امكن تاريخها بين 341 و362 هـ وهي المدة التي وليها المعز بافريقيا قبل انتقاله الى مصر على اساس النص الذي ذكر صنعها بالمنصورية (مدينة القصر المحصنة) فقد انشأها المنصور بالله ثالث خلفاء الفاطميين بافريقية وقد حكم بين 334 و340 هـ

1) الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله : الاثار الاسلامية بالمغرب ، بحث قدم لمؤتمر الاثار الثالث المنعقد بفاس لونتبير 1959 ، به تقسيم لمدارس الفن الاسلامي . عثمان عثمان اسماعيل : نشأة الفن الاسلامي ، دعوة الحق فبراير 1960 . زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، الفصل الاول .
2) عثمان عثمان اسماعيل : طراز الفن الاسلامي فى بلاد المغرب والاندلس ، دعوة الحق مايو 1960 .
3) l'Art de l'Islam - George Merçais باريس 1946 ص 178 .
4) عثمان عثمان اسماعيل : الطراز المغربي ، دعوة الحق يونيه 1960 .

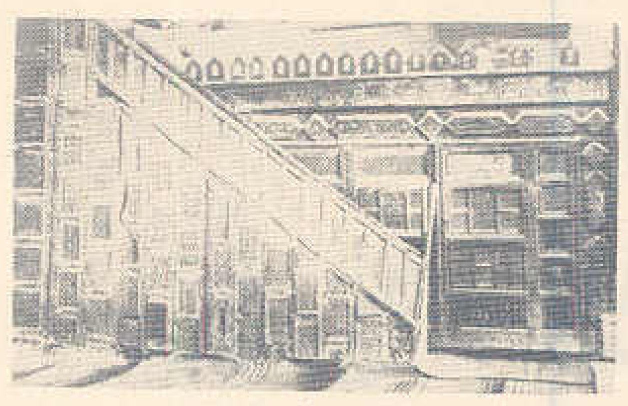
ومن هذا الطراز كذلك ثريا من النحاس كانت موجودة بالمسجد الجامع بالقيروان ثم نقلت لمتحف باردو بتونس تحمل في اسفلها كتابة نصها « عمل محمد بن علي القيسي الصفار (5) للمعز ابي تميم » .

غير انني آثرت في هذه العجالة ان اقتصر على مثال واحد من تلك التحف يمكن ان يوضح لنا سريان التاثيرات الفنية من حيث الزخارف ، وطريقة الصنع ، وامتداد هذه التاثيرات من المغرب الاسلامي الى الشرق ، في مصر وايران . والى الغرب في الاندلس وباقي دول اوربا .

ولاشك ان المقصورة الخشبية بالمسجد الجامع بالقيروان وابواب مكتبة هذا المسجد سجلوا علينا جميعا تطورا واضحا في فن صناعةالخشب عندالفاطميين بالمغرب ، وقد صنعت المقصورة والابواب الخشبية في ايام الخليفة الفاطمي المستنصر بالله عام 431 هـ (1040 م) بواسطة المعز بن باديس من امراء بني زيري (الذين حكموا تونس والجزائر باسم الفاطميين) كما هو مكتوب عليها .

والذي يستلفت النظر عند دراسة هذه التحفة عاملان :

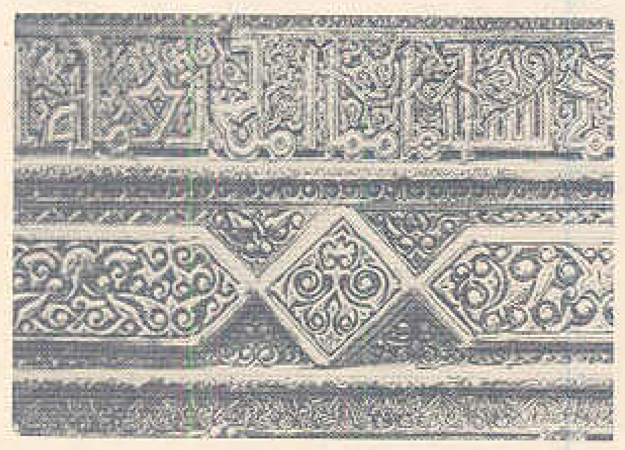
اما الاول فهو يتعلق بطريقة الصنع ، اذ يشاهد انه قد استعمل في هذه المقصورة ما يسمى في الصنعة بخشب الخرط (6) Turnedwood وهو يعد في الحقيقة من ابتداع المصريين الذين استخدموه بكثرة فيما سموه بالمشربيات (مفردها مشربية) وفي تلك الحواجز الخشبية التي توضع امام الفتحات من نوافذ وغيرها فتسمح فراغاتها بتسرب الهواء داخل البيوت، كما تسمح للحريم في نفس الوقت ان يقفن وراءها لمشاهدة الحياة التي تجري في الشوارع والاسواق دون ان يخدش حجابهن احد المارة . ولهذا يبدو لنا ان الفن المغربي قد تاثر في هذه الفترة بالفن المصري الاسلامي ، ولا عجب في ذلك اذا تذكرنا ان افريقية لا تزال تابعة لمصر في ذلك الوقت . (انظر اللوحة رقم2)



اللوحة رقم 2

المقصورة والمنبر بالمسجد الجامع بالقيروان . المنبر الى اليسار من عصر ابي ابراهيم احمد الاغلبي 248 هـ تاثرت زخارفه الهندسية بالفسيفساء البيزنطية ، والنباتية بمرحلة الانتقال الاموية العباسية (التفاصيل مع اللوحات دعوة الحق فبراير 1960 ص66) مقصورة المعز بن باديس 431 هـ الى اليمين وهي من الامثلة المبكرة لخشب الخرط الذي ظهر بمصر قبل المغرب بينما المنبر عبارة عن حشوات .

اما العامل الثاني الذي يهمنا من هذه التحفة الفنية بزخارفها ، فهو عناصر زخرفتها وقوامها عناصر هندسية واخرى نباتية ، ثم عناصر كتابية ، وفيما يختص بالزخارف الكتابية بهذه المقصورة نلاحظ نوعا من الخط يسمى بالخط الكوفي المضفر Coufique tressé ويبدو لنا هذا الطراز من الخط فوق ارضية غنية بالزخارف النباتية . (اللوحة رقم 3) .



اللوحة رقم 3

تفصيل من المقصورة المذكورة وتبدو الكتابة الكوفية المضفرة في مرحلتها الاولى قبل ان تزداد تضفيرا وتعقيدا ، وهي في رأينا تمثل ميلاد هذا الطراز الجديد في الكتابة بالمغرب الاسلامي .

5) الصفار اي النحاس .
6) Bois Tourné وتعد المقصورة من الامثلة الاولى لصناعة خشب الخرط ، انظر : L'art de l'Islam - G. Merçais بباريس 1946 ص 85 و86 .

وبحسن بنا قبل دراسة القيمة الفنيـة لتلـك الكتابات ان نشير فى عجالة الى سر الزخرفة الكتابية العربية ، ومكانتها بالنسبة للفن الاسلامي وبالنسبـة لفنون العالم الاخرى ، كما نشير ايضـا الى الدافـع الى وصول الخط (7) والخطاطيـن المسلميـن الـى احتلال تلك المكانة الفريدة بين خطوط وخطاطي العالم اجمـع .

ليـس ثمة فن استخدم الخط فى الزخرفة بقدر ما استخدمه الفن الاسلامي (8) ، ولا غرو فاننـا اذا استثنينا الكتابة الصينية لانها نوع قائم بذاته ، لانجد خطا اوفق للزخرفة من الخط العربي ، ذلك ان حروفه اصلح من غيرها لهذا الغرض بما فيها من استقامـة وانبساط وتقويس فيسهل وصل الخطوط العمودية والافقية فيه بالرسوم الزخرفية الاخرى ، وصـلا يتجلى فيه الاتزان والابداع والجمال ، وعندما انتشر الخط العربي فى الامبراطورية الاسلامية كلها ، اتيح له ان يصل فى نحو اربعة قرون الى جمال زخرفي لم يصل اليه خط آخـر فى تاريـخ الانسانيـة قاطبة ، وغـدا الخطاطون ارفع الفنانين مكانة فى العالـم الاسلامـي لاشتغالهم بكتابة المصاحف ونسخ كتب الادب والشعر وخدمة الخلفاء والسلاطين ، ولهذا حرص الخطاطـون على الفخر بآثارهم الفنية فكانوا يذيلونها بامضاءاتهم ، كما اصبح الخط عند المسلمين يقصد لذاته ولم يكـن وسيلة فحسب كما هو عند الغربييـن ، واذا كـان الغربيون يجمعون نماذج من توقيعات عظمـاء الرجال ، فقد كان المسلمون يجمعون توقيعاتمشـاهير الخطاطين حرصا على ما فيها من ابداع وزخرفة .

قال ابن النديم فى الفهرست « قال محمد بـن اسحاق ، اول مـن كتب المصاحف فى الصـدر الاول ويوصف بحسـن الخط خالد بن ابـي الهيـاج رأيت مصحفا بخطه ، وكان سعد نصبـه لكتب المصـاحف والشعر والاخبار للوليد بن عبـد الملك وهو الذي كتب من الشمس وضحاها الى آخر القرآن . ويقال ان عمر الكتاب الذي فى قبلـة مسجد النبـي (ص) بالذهب ، ابن عبد العزيز قال : اريد ان تكتب لي مصحفا على هذا المثال فكتب له مصحفا تفوق فيه فاقبل عمـر يقلبه ويستحسنه واستكثر ثمنه فرده عليه .. وكان خشنام البصري ومهدي الكوفي فى ايام الرشيد ولـم ير مثلهما الى حيث انتهينا . . وكان ابو حدي يكتب المصاحف اللطاف فى ايام المعتصم من كبار الكوفييـن وحذاقهم .. واول من كتب ايام بنـي امية قطبـة وهو الذياستخرج الاقلام الاربعة واشتق بعضها من بعض وكـان قطبـة اكتب الناس علـى الارض بالعربيـة ثم كان بعده الضحاك بن عجلان الكاتب فى اول خلافة بني العباس فزاد على قطبة فكان بعده اكتب الخلق ثم كان بعده اسحاق بن حماد الكاتب فى خلافة المنصـور والمهدي فزاد على الضحاك، ثم كان لاسحاق عدة تلاميذ منهم .. وثناء الكاتبة .. واحمد الكلبي كاتب المامون .. وهؤلاء كتبوا الخطوط الاصلية الموزونة التـي لا لا يقوى عليها احـد » .

وفى صبح الاعشى « .. انتهت رياسة الخـط بمصر الى طبطب المحرر جودة واحكاما وكان اهـل مدينة السلام يحسدون اهل مصر على طبطب وعبـد كان ، والاخير كاتب الانشاء لابـن طولـون » ، واذا درسنا تاثيرات الفنالاسلامي على اوربا فلا بد اننشير الى الخط العربي وتاثيره على فنون الغرب (9) .

والآن ما هي الدوافع التي اوصلت كتابتنا العربية الى هذه المكانة المرموقة ؟ الحق ان الدين الاسلامـي بما تضمنه من نظم وتوجيهات كان لـه اكبر الاثـر فى نضوج الفنون الاسلامية ومن بينها فن الخط ، وبينما لم يشجع الدين على النحت والتصويـر نجـده قـد آثر الخط برعايته ، قال تعالى : « اقرا باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق اقرا وربك الاكرم **الـذي علم بالقلم** ، علم الانسان ما لم يعلم » . واقسم الله تعالى فى كتابه العزيز بقوله : **« ن والقلم وما يسطرون »** كما قال سبحانه « وان عليكم لحافظين **كراما كاتبين** » وقال كذلك : «بايدي **سفرة** كرام بررة » وسفرة بمعنى كتبة ومفردها سافـر وهو الـذي يكتب فى الاسفـار ومفردها سفر وهي الصحف وعندما اذعن فنانونـا لرغبة الخالق وانصرفوا عن تصويـر الكائنات الحية

7) لمعرفة اصل الخط توقيف (تعليم) او اختراع ، انظر : الصاحبي فى فقه اللغة) لاحمد بن فارس من ائمة القرن الرابع الهجري ، وكذا القلقشندي : صبح الاعشى ج 3 فى وضع مطلق الحروف. ص 10 و 11 طبعة القاهرة 1914 .

8) زكي محمد حسـن : فنون الاسلام ص 234 .

9) انظر : Christie فى Islamic Minor Arts and their influence upson European work وهو فصل من كتاب Legacy of Islam الذي ترجمه زكي محمد حسن تحت اسم تـراث الاسلام ، وانظر كذلك مقالنا بدعوة الحق عدد مارس 1960 . تاثير الفن الاسلامي على فنون اوربا.

والزخارف الادمية بتأثير سلبي من الدين (10) نجدهم قد اظهروا عبقريتهم في الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية ، وبينما قامت الزخارف النباتية والهندسية على اسس عرفوها من الفنون السابقة ، نجد انهم في ميدان الزخرفة الكتابية مبتكرين تماما ، ولا شك ان هذه الزخرفة الكتابية التي اختص بها المسلمون اصبحت من بين مميزات الفنون الاسلامية ، كما اشتركت فيها امم الاسلام كلها فعرفت ضروب شتى من الخطوط العربية .

ويعرف بعض هذه الخطوط بصفته الجغرافية مثل البصري والاصبهاني والمغربي ، وقد تلعب وظيفة الخط وحجمه دورا كبيرا في تسميته ، كقلم الاشرية (11) يكتب به عتق العبيد واشرية الاراضي والدور وغيرها ، وقلم الثلث (12) باعتبارها ثلث مساحة الطومار من حيث ان عرض الطومار 24 شعرة من شعر البرزون وعرض الثلث 8 شعرات .

والخطوط العربية بوجه عام (13) اما ان تكون جافة حادة الزوايا Angular او لينة Roundor Cursive تغلب عليها الاستدارة ، وقد اطلق عليها خطا : كوفي ونسخي على الترتيب ، وعندما لخص Minovy (14) تاريخ ازدهار الكتابة العربية في العالم الاسلامي وقع في عدة اخطاء لعدم كفايته في اللغة العربية فظن ان ابن خلكان يؤيد نظرية ان الخطوط اللينة متأخرة عن الحادة (الكوفية) علما بان الخط الذي انتقل من النبط الى عرب الشمال كان نوعين : نوع جاف مولد من خطوط العبرانيين والتدمريين نقشه الانباط على الاحجار لتخليد حوادثهم الهامة ، والآخر يميل الى اللين والاستدارة استعملوه في الاغراض العاجلة والمراسلات (15) ، ومن هذا يتضح ان العرب ورثوا عن الانباط خطا يميل الى التربيع ، فالخط المربع او الحاد اذن (الذي اعتقد الناس انه خط الكوفة والذي اشتقت منه الاقلام) اقدم عهدا من انشاء الكوفة نفسها المبنية بين 18 و 20 هـ ، كما ان الخط اللين او النسخي ليس توليدا من الكوفي بدليل ما ذكرناه فقد حدث الخطان في وقت واحد في المخطوطات العربية المبكرة ، ولكن الذي (16) وصل الى اسم مميز له قبل غيره كان المكي المدني ، والكوفي البصري ، ثم استمر العرب على نهج الانباط في استخدام اللين (النسخي) في الاعمال اليومية ، وفضلوا الجاف او الحاد او المربع (الكوفي) في كتابة القرآن لجلاله .

وقد ظل الكوفي يستخدم في كتابة القرآن وفي النصوص التاريخية والتأسيسية على المباني الاثرية خلال اربعة قرون بعد ظهور الاسلام ثم بدأ الخط اللين في الانتشار منذ القرن الخامس واعطانا مصاحف بخط النسخ والثلث فكان اول مصحف نسخي مؤرخ 427 هـ من ايران ، وبعد ذلك كسبت الخطوط اللينة الميدان نهائيا (وفي راي (17) بالشرق) عندما حل النسخ محل الكوفي على المباني الاثرية في الكتابات التأسيسية في منتصف القرن السادس الهجري لسهولة قراءة النسخ وللدعاية بالاعلان عن المنشآت ، في راي معظم الكتاب (على الرغم من ان الكتابات اللينة المزخرفة ليس من الضروري ان تكون ابسط من الكوفي ، وفعلا فهناك بعض الصور المعقدة للخطوط اللينة قد تبدو اكثر تعقيدا من الكوفي) وقد ذكرت في كتابي « مسجد الصالح طلائع » (18) ان مسجد الصالح طلائع آخر المساجد الفاطمية بالقاهرة ، تحمل واجهته نقشا كوفيا تأسيسيا من عام 555 هـ هو آخر نقش كوفي تاريخي بالمشرق الاسلامي ، وبعد هذا التاريخ اقتصر الخط الكوفي على العبارات الدعائية وحل النسخي محله في الكتابة التأسيسية .

على ان هذا التطور لا زال في حاجة الى الدراسة بالنسبة للمغرب الاسلامي (19) فان مدخل شالة البارز يحمل نقشا كوفيا تاريخيا من عام 739 هـ (اي بعد انتهاء الكوفي التأسيسي بالشرق بحوالي قرنين) بينما

---

(10) دكتور محمد عبد العزيز مرزوق : بين الاثار الاسلامية في العالم .
(11) ابن النديم : الفهرست ص 12 .
(12) القلقشندي : صبح الاعشى ج 3 ص 62 الطبعة المذكورة .
(13) توجد نماذج من الخطوط العربية المختلفة في المراجع الآتية : القلقشندي : المرجع السابق
The development of : Nabia Abbot. Arabic Paleography : Moritz early Islamic Script.
و Ars Islamica V 8 P 65 ولها كذلك Kurrah papyri of Aphrodite
(14 Minovy كتب an outline history تحت عنوان Calligraphy
في Survey of Persian art V II P 1707
(15) ابراهيم جمعه : قصة الكتابة العربية (ملخص لرسالة الدكتوراه نشر في سلسلة اقرا) ص 26 .
(16) Development of E.I.S. : N. Abbott بالمجلة السابقة نفس العدد .
(17) باب شالة الاثري عليه نقش كوفي تأسيسي مؤرخ 739 هـ .
(18) عثمان عثمان اسماعيل : مسجد الصالح طلائع ، تقدمت به لجامعة القاهرة 1956 ومعد للطبع .
(19) واشتغل الآن بدراسة النقوش العربية ضمن رسالتنا الخاصة .

من نفس العصر (القرن الثامن بالاندلس) (20) نقش بالحروف اللينة فى الجص اسم الامير المؤسس وتاريخ التاسيس واقتصرت الحروف الكوفية على العبارات الدينية .

واذا كانت النقوش اللينة قد نمت وتطورت لاغراض دنيوية منذ منتصف القرن الثالث بحيث تمدنا اربعة قوائم بما بين 30 و36 خط (21)، فقد تطورت النقوش الجافة وعرفنا منها اساليب عدة ، فقد كان الخط الكوفي بسيطا فى اول امره لا توريق فيه ولا تعقيد ولا ترابط بين الحروف ، ثم زخرفوه فكان منه الكوفي المورق والمشجي تخرج من اطراف حروفه سيقان نباتية دقيقة محملة بالوريقات كما يخرج من نهايات حروفه ما يشبه الفروع ، ويرجع اقدمه الى القرن الثالث الهجري فيما عدا امثلة منه ترجع الى نهاية القرن الثاني بوادي النيل ، ثم نجد كتابات كوفية على ارضية نباتية منفصلة عنها لا تتصل بها بل تبدو الفروع كانها تنحدر فى اتجاه واحد ، وتوجد منه امثلة بديعة من القرن الخامس والسادس الهجري، وظهر كذلك الخط الكوفي المربع ، وهو هندسي الشكل قائم الزوايا ، ومن المحتمل ان تكون نشاته فى ايران . (اللوحة رقم 4) .

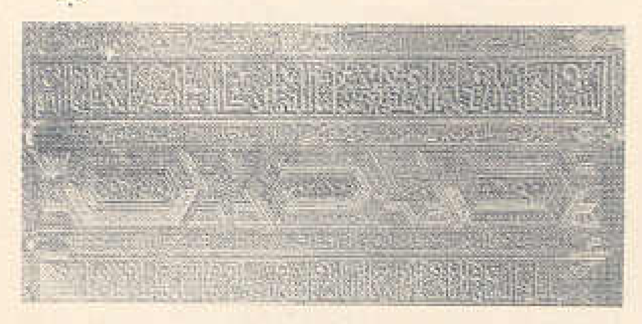
اللوحة رقم 4

م



كوفي مورق او مشجر من ايران القرن السادس ، ومنذ القرن الخامس اصبحت الكتابة فى حد ذاتها زخرفة ذات اناقة فائقة ، ولما كانت قوانين الزخرفة الاسلامية تتطلب توزيعا عادلا لمجموع السطح فقد اتصلت الكتابة بالزخرفة ، وبظهر هذا التطور فى الشرق وبالذات فى شمال العراق .

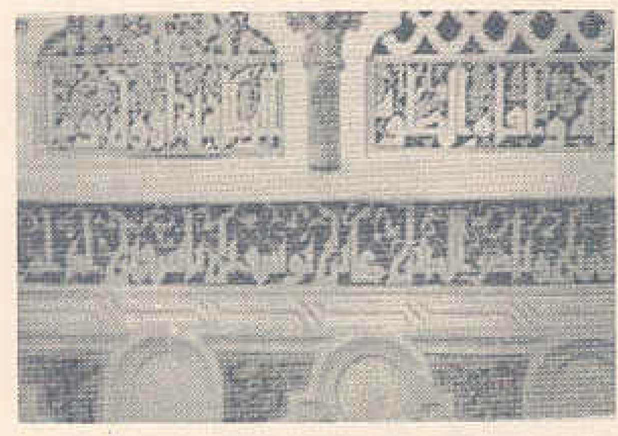
ب



كوفي مضفر من النصف الثاني للقرن السادس ، تابوت من المشهد الحسيني بالقاهرة يظهر فيه التضفير والارضية النباتية ، وقد حاولت تعليل ظاهرة التضفير بمصر بالنسبة الى ظهور هذا الطراز بالمغرب وايران اوائل القرن الخامس ، فاذا ما بدأ ينتشر ويشيع كانت الدولة الفاطمية بمصر تحتضر منتصف القرن السادس وبدأ يفقد الخط الكوفي نفسه مكانته فلم يعد يستعمل حتى فى النصوص التاسيسية .



ج



كوفي على ارضية نباتية مستقلة من القرن السادس بالقروبين . لقد شعر الفنان المسلم ان تلك الزهور والاغصان التي تخرج من الحروف ان تتدلى منها تثقل كاهل الحرف ولا تمكنه من الارتقاء الى اعلى ، ففضلوا ان يفرشوا الارضية العليا بزخارف متصلة ببعضها ومنفصلة عن الكتابة فتبدو كانها ثوب جميل قد فرش تحت الكتابة فى حين تصعد سيقان الحروف طويلة يبدو بينها فراغ يجلب المقارنة بين منطقتين فوق بعضهما .

---

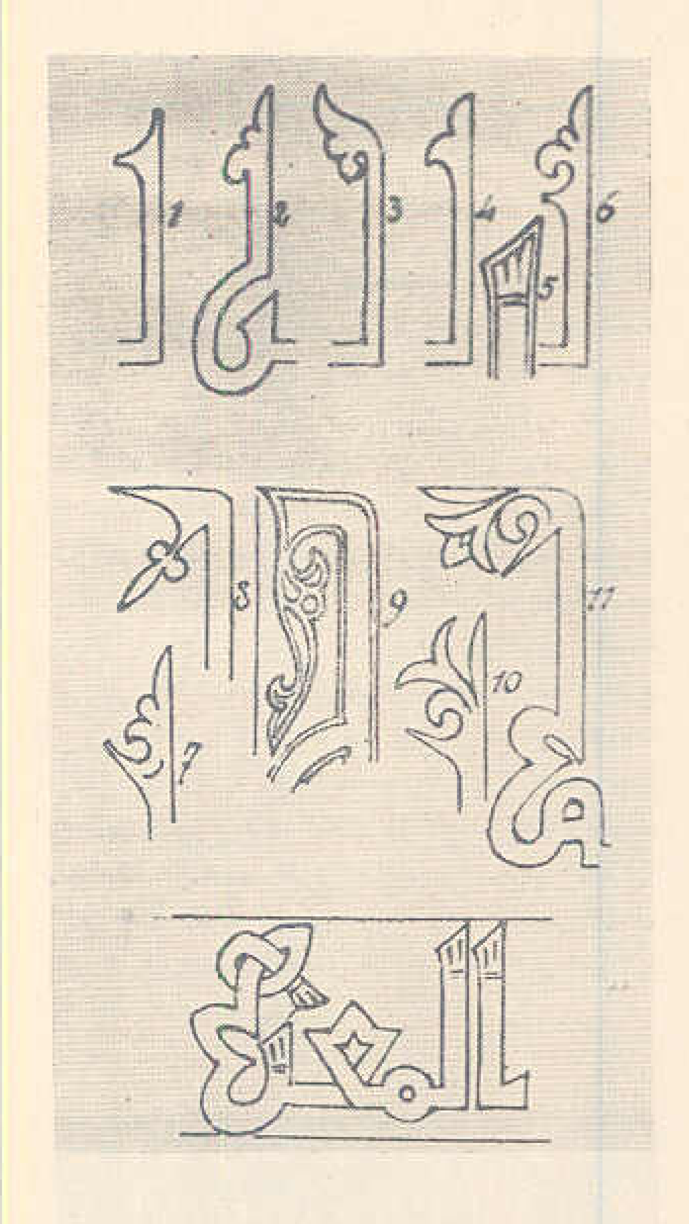
(20) المرجع السابق ص 145 .

(21) اولها فى كتاب البغدادي عام 255 والثاني استخلصها ابن النديم من ابن توابا 277 والثالثة من ابراهيم ابن المدبر 279 والاخيرة يقدمها ابن النديم معتمدا على مصادر اخرى 377 هـ ، وتكتفي بذكر الاخيرة وتشمل 24 قلما هي (الطومار ـ الثلثين ـ السجلات ـ العهود ـ المؤامرات ـ الديباج ـ المدبح ـ النساخ ـ الرياسي ومنه الرياسي الكبير ـ النصف من الرياسي ـ الثلث ـ صغير النصف ـ خفيف الثلث ـ المحقق ـ المنثور ـ الوشي ـ الرقاع ـ الكاتبات ـ غبار الحلية ـ النرجس ـ واخيرا قلم البياض) .

اما الخط الكوفي المضفر Coufique Tressé الذي نجده في مقصورة القيروان موضوع بحثنا الآن، والذي يرجع الى عام 431 هـ ، فقد انفرد بدراسته حتى الآن الاستاذ فلوري Flury المستشرق السويسري الشهير ، وقد اشار الاستاذ فلوري الى اهمية تلك الاقواس الصغيرة التي تعترض طريق الحروف ، والى العقد الناتجة عن التفاف السيقان حول نفسها والى نهاية الحروف المقسمة الى ثلاثة خطوط كان اصلها زهرة من ثلاث فصوص في القرن الرابع ، لقد ربط الفنان بين حروف الكلمة الواحدة او الكلمتين ليصل الى تاليف اطار او شكل هندسي ، ثم شاع هذا الطراز واصبح يمثل اول استخدام الاشكال الهندسية في الارابسك ، كما اقبل الفنانون في المغرب والاندلس على تعانق هامات الحروف حتى تبدو وكأنها شقا مقص ، هذا هو الطراز الكوفي المضفر . (اللوحة رقم 5)

ويعتقد الاستاذ فلوري ان مولد هذا الطراز **ربما كان في ايران** ، هذا وان لم تكن نظرية فلوري قد صادفت حتى الآن صدى من الموافقة او المعارضة فانني سأكتفي الآن باعلان رايي الشخصي دون ذكر التفاصيل ، (22) ذلك ان هذا الطراز من الخط قد ظهر لاول مرة في المغرب الاسلامي ، وان مقصورة القيروان قد شهدت مولده عام 431 هـ ، في حين لم يظهر مطلقا الكوفي المضفر في الاثار الفاطمية المعاصرة بالقاهرة ، فقد تاخر ظهوره بمصر لمدة قرن من الزمان في حين توجد امثلة منه في ايران معاصرة لمقصورة القيروان .

ويمكن ان نلاحظ سريان هذا الطراز القيرواني في الكتابة من القيروان ليظهر في اطلال شالة الاثرية المرينية بالرباط ، كما يعبر المضيق الى قصر الجعفرية بسراقسطة ، وقصر الحمراء بغرناطة ، فاذا كان الخط الكوفي المضفر قد خرج من القيروان وانتشر في شتى مدن المغرب في تونس والجزائر والمغرب الاقصى بل وعبر المحيط الى الاندلس كذلك ، فانني اكتفي الآن بان اسال الاستاذ فلوري الذي كان له فضل السبق في الدراسة ... اين انتشر الكوفي المضفر الايراني ؟ .



تفصيل من نقش المقصورة في كلمة (المعز) اسفل ، نرى الاقواس تعترض سبيل الحروف وكذلك العقد في نهايتها . كانت نهايات الحروف المنتصبة كالالف واللام في القرن الثالث كقطعة القلم (1 الى اعلى) ثم اصبحت في القرن الرابع زهرة من 3 ورقات (5 الى اعلى) وفي القرن الخامس تجمعت وريقات الزهرة وعبر عنها الفنان بثلاثة خطوط (الالف واللام في المعز) وبعد ذلك يزداد تشابك الحروف والتضفير خاصة في الالف واللام كما في شالة وسراقسطة والحمراء .

(22) يعلن شرح النظرية وتفاصيلها من الادلة الكافية في رسالة خاصة قريبا بعد .

المكتبة المغربية وذخائرها

للاستاذ سعيد اعراب

- 2 -

3 ــ وقرات للذين كتبوا عن الحركة العلمية والنهضة الفكرية بالمغرب فى عصوره الزاهية ــ ان المغاربة ــ وان اسهموا بالتاليف فى مختلف العلوم ، فانهم لم يكتبوا فى البلاغة والبيان ، ولم يقتحم ولو واحد منهم هذا الميدان ، فجلوها قاعدة كلية ، وحسبوه عقما طبيعيا ، وخلقوا لذلك اسبابا وعللا ، وحجتهم فى ذلك ما يقول ابن خلدون فى الفصل السادس من المقدمة ، فى حديثه عن علم البيان ، فى جملة اصناف علوم اللسان ، قال : (وبالجملة فالمشارقة فى هذا الفن (علم البيان) اقوم من المغاربة وسببه والله اعلم انه كما سبق فى العلوم اللسانية ، والصنائع الكمالية توجد فى العمران ، والمشرق اوفر عمرانا من المغرب ، او تقول لعناية العجم ، وهم معظم اهل المشرق وانما اختص اهل المغرب من اصنافه بعلم البديع خاصة وجعلوه من جملة علوم الادب الشعرية . . . وانما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الالفاظ وان علم البديع سهل المأخذ ، وصعبت عليهم مآخذ البلاغة والبيان ، لدقة انظارهما ، وغموض معانيهما فتجافوا عنهما)

هذا لفظ ابن خلدون فى المقدمة وهو كما ترى يزعم بان اهل المغرب تجافوا عن البلاغة والبيان ، لدقة انظارهما ، وغموض معانيهما ، وانظر كيف يصح هذا التعليل ؟ وكثير من اهل المغرب امثال ابن البناء ، وابن المسفر ، والروداني ، عنوا بما هو ادق من البلاغة والبيان ، من منطق وفلسفة ورياضة وفلك وما اليها ، وابن خلدون نفسه وهو مغربي طبعا كيف عالج المسائل الدقيقة ، والمعاني الغامضة ، فخلق فلسفة التاريخ ، واسس علم الاجتماع ، وهما من الغموض والدقة بمكان

على ان المكتبة المغربية وهي ام التاريخ ، قد اثبتت عكس ما قال ، فان فيها كتابات عن البلاغة ، لمؤلفين مغاربة ، ويمكن القول بان ابن خلدون كمؤرخ يسجل ما يرى ويدون ما يسمع ، وقد يتفق ان لايطلع على ما كتبه المغاربة فى البلاغة والبيان لقلته ، فيحاول ان يعلل هذه الظاهرة ، ويخلق لها الاسباب والعلل ، قد يكون ذلك . ولا ندري كيف اغفل ابن خلدون فى حديثه عن البلاغة وتاريخها ، امام البلاغة ومؤسسها عبد القاهر الجرجاني ، (471) وقد عرض للذين كتبوا فى هذا الفن ، فذكر جعفر بن يحيى ، والجاحظ ، وقدامة ثم السكاكي الذي قال عنه انه محض زبدته وهذب مسائله ،) . ولنرجع الى المكتبة المغربية ولنبحث فيها عن هذه المؤلفات التي كتبها المغاربة فى البلاغة والبيان ، وليكن الكتاب الذي نقدمه كبرهان على ذلك ، او كنموذج حي لتلك المؤلفات ، هو (كتاب المنزع البديع فى تجنيس اساليب البديع) ــ لابي محمد الانصاري السجلماسي ، الذي عاش اواخر القرن السابع ، واوائل الثامن الهجري ، وهو طبعا قبل ابن خلدون (808 هـ)

وقد وقفت على نسخة منه (مخطوطة) ، بمكتبة الجامع الكبير بتطوان ، كتبها احد تلامذة المؤلف بفاس ، وعنوان الكتاب ربما أوهم القاريء بانه موضوع فى علم البديع لا فى البلاغة والبيان ، لان المؤلف اطلق البديع على ما يشمل البلاغة والبيان ، وهو اصطلاح قديم ، وهذا ليس تاويلا منا ، بل هو ما يقوله المؤلف فى مقدمة الكتاب قال مبينا الغرض منه : (وقصدنا فى هذا الكتاب احصاء قوانين النظوم ، التي تشتمل عليها الصناعة الموضوعة لعلم البيان ، واساليب البديع ، ثم يقول فى صدد بيان محتوياته : « ان هذه الصناعة الملقبة بعلم البيان ، وصنعة البلاغة والبديع ، مشتملة على عشرة اجناس ، وهي : الايجاز ، والتخييل ، والاشارة ، والمبالغة ، . . . .)

والكتاب قد تناول مسائل مهمة في البلاغة ، واعتمد على كثير من اصحاب هذا الفن ، كالجاحظ وجعفر بن يحيى وقدامة والباقلاني والجرجاني والرماني والآمدي والحاتمي وابن رشيق . . . وقد ينتقد احد هؤلاء ويناقشه مناقشة الند للند ، وهو الى ذلك يتصل بالفلاسفة ، ويحلل آراءهم ، فتراه ينقل عن ارسطو في كتابيه «الخطابة» والشعر» ، وعن افلاطون والاسكندر والفارابي وابن سينا ومن اليهم .

وطريقته انه بعد ان يقرر قاعدة من قواعد البلاغة ، او مسالة من مسائل البيان والبديع ، يورد في موضوع القاعدة ، امثلة من كلام العرب الفصيح ، ومجموعة من اشعار القدامى والمحدثين ، وفي جملة من يستشهد بشعرهم ابن حمديس وابن هانيء وابن زيدون وابن خفاجة وابو الصلت امية بن عبد العزيز صاحب الحديقة (529 هـ) ومن اليهم من شعراء الاندلس والمغرب ، وهو مظهر من مظاهر المؤلفات المغربية ، فالكتاب قد حاول ان يدرس البلاغة في اصولها ، وياخذها من مناهلها ، وحاول ان يجعلنا نقرأ صور البيان ، واساليب البديع ، في جو ادبي ممتع ، ولكنه في تقريره للقواعد ، وشرحه للمسائل ، كثيرا ما تطغى عليه النزعة الفلسفية ، والصناعة المنطقية ، فيجف قلمه ويستعصي اسلوبه ، وعلى الجملة فهذا الكتاب سلسلة جديدة ، وحلقة من حلقات البلاغة العربية ، يجب ان تخرج الى عالم النور ، ويتعرف اليها الباحث والدارس والكاتب .

4 — ولاحظت ان الذين ترجموا للسلطان المولى سليمان العلوي (1238هـ) وتحدثوا عن تاريخ حياته ، لم يعرجوا على ناحية مهمة من حياته ، وهي الناحية الادبية ، فهو فوق ما كان يغدق به على الادباء والشعراء ، من هبات وصلات ، كانت له روح ادبية ، وميل الى البحث والنقد ، فقد وقفت له على كتابات في هذا الموضوع ، تنم عن هذه الروح ، وتلك الاريحية ، ذكروا ان منشدا انشد بمحضره ليلة المولد النبوي هذين البيتين :

له همم لا منتهى لكبارها
وهمته الصغرى أجل من الدهر

له راحة لو ان معشار جودها
على البر كان البر اندى من البحر

وقد نسبهما المنشد لحسان ، وقال انه يمدح بهما الرسول عليه السلام ، فانكر عليه المولى سليمان ، ونهاه ان يعود الى انشادهما ، وقال ان البيتين ليسا لحسان ، وانهما بعيدان كل البعد عن روحه ، ولا يتناسبان ومقام النبوة ، وكتب في ذلك رسالة حلل فيها البيتين ، وزيف المعنى الذي تضمناه ، وانتقدهما سواء من الوجهة اللغوية ، او الناحية البلاغية ، ونقل خلاصة هذه الرسالة ابن طاهر الهواري ، (1220هـ) في تويلف له ، ايد فيه راي المولى سليمان ، واكد بان البيتين لبكر بن النطاح ، لا لحسان ، وقال ان المبرد نسب البيتين في كامله لابن النطاح ، وكذلك ابن مرزوق في بعض شروحه على التلخيص ، وقد رجعت الى ترجمة ابن النطاح في الاغاني ، فالفيته ذكر البيت الثاني من البيتين ، في جملة ابيات نسبها لابن النطاح ، وقال انه يمدح بها ابا دلف ، وتصفحت ديوان حسان الذي نشره البرقوقي ، فلم اجد فيه ذكرا للبيتين ، ومن الغريب ان البرقوقي الذي حقق هذا الديوان ، نسب البيتين في شرحه على التلخيص لحسان

5 — وحتى في الطب فان في المكتبة المغربية مؤلفات ومؤلفات ، لعلماء مغاربة ، واندلسيين ، فقد وقفت — وانا انقب في بعض زوايا المخطوطات ، من المكتبة العامة بتطوان ، — على شرح الفية ابن سينا في الطب الموسوم « بالايضاح والتتميم » لمؤلفه ابن مهنا ، احد الاطباء المشهورين ، الذي تلمذ لابن الخطيب ، ونقل عنه آراءه وتجاربه ، ويقول في مقدمة الكتاب ، انه اعتمد في هذا الشرح على كثير من اشياخه بسجلماسة ، كابي العباس الغماري ، وجماعة آخرين ذكرهم ، وقد اطرى المقري هذا الشرح وقال انه من ابدع الشروح ، في هذا الفن ، وزاد يقول : وهو من الكتب المشهورة بالمغرب ، ولم اره بهذه الديار المشرقية ، (النفح ج 10 ص 142)

ومن حسن حظ الباحث انه توجد عدة نسخ لهذا الشرح ، في المكتبات المغربية ، فلو اننا وجدنا الباحث المختص في هذا الفن وقدم لنا دراسات وابحاثا عن هذا الكتاب وامثاله ، لاستطعنا ان نعرف الصورة الحقيقية ، التي كان عليها الطب في مدارسنا التاريخية .

6 — والى جانب ما في المكتبة المغربية من كتب المخطوطات ، فان فيها الشيء الكثير ، من التحف النادرة ، والاعلاق النفيسة ، والوثائق التاريخية

المهمة . . . فقد زرت مرة مكتبة الجامع الكبير بتطوان ، وكانت حافلة بالذخائر العربية ، حتى عادت عليها عوادي الزمان ؛ ايام احتلال الاسبان ، زرت هذه المكتبة التاريخية ، وهي احوج ماتكون الى الاصلاح والترميم ، وشيء من العناية والتنظيم ، فكان مما وقفت عليه مصحف كريم ، يرجع تاريخه الى منتصف القرن السادس الهجري ، وقد دارت الايام ، فعشت مع هذا المصحف سنين وأعواما ، استطعت من خلالها ان اعرف شيئا عن حياته ، وتاريخ نشأته ، فقد ولد ونشا بمدينة بلنسية في الاندلس سنة تسع وخمسين وتسع مائة هجرية ، وبعد ان شب وترعرع ، رحل الى المغرب حوالي القرن الثامن الهجري ، ثم طوف بالشرق العربي ، وانتهى به المطاف الى البقاع المقدسة ، حيث جاور في الروضة الشريفة ، تجاه الكعبة المكرمة سنين طوالا ، ثم قفل راجعا الى المغرب ، وهناك وفي حدود العقد الثامن ، من المائة الثامنة نزل بتلمسان ، واقام بالجامع الكبير ، حيث مقابر الملوك التلمسانيين ، الى ما بعد القرن العاشر ، وفي اواخر القرن الحادي عشر ، هاجر من تلمسان الى مدينة تطوان ، حيث هو الآن .

وهذا المصحف الذي حدثتك عنه ، هو مصحف ابن مرزوق (781هـ) ، الذي قال عنه المقري في النفح ج 7 ص 335 — انه رآه بتلمسان عند بعض احفاد ابن مرزوق ، قال وعليه خطه الرائق الذي اعرفه ، وهو (اي ابن مرزوق) يقول : قرات في هذا المصحف تجاه الكعبة المشرفة ، اثنى عشر الف ختمة) . قال المقري: ومع هذا فقد نسي في المصحف المذكور لفظة (اليك) من قوله تعالى (ينقلب اليك البصر) — يعني من سورة الملك حتى كتبها بخطه فوق السطر حفيده ابو عبد الله محمد ابن مرزوق (842هـ) . وهذه العلامات : التي ذكرها المقري ، لاتزال كما هي بادية للعيان : فالكلمات التي كتبها ابن مرزوق بخطه ، تسجيلا للتاريخ ، والتي تعتبر كعنوان لهذا المصحف توجد على ظهر الورقة الاولى ، ويبدو عليها اثر المحو من كثرة لمس الايدي مع تطاول الزمان ، كما توجد كلمة (اليك) التي الحقها ابن مرزوق الحفيد ، فوق آخر السطر السادس عشر ، على يسار القارىء ص 303 ، وكلمات هذا السطر على وجه الضبط احدى عشرة كلمة ؛ فهذا المصحف وامثاله في نظري من التحف النفيسة ، والآثار التاريخية المقدسة ، التي يجب ان تحاط بسياج من الصون والتقدير ، لانها ترمز الى مقوماتنا الدينية ، وآثارنا الروحية .

وارجو ان تتاح لي الفرصة للحديث عن وثائقنا التاريخية التي شغلت ركنا كبيرا في مكتباتنا ، والتي كان يجب أن تأتي لها بمثال ايضا .

هذه بعض امثلة قد تكون بسيطة ، لانها نتيجة جولة قصيرة في بعض مكتباتنا الصغيرة ، وفي دائرة خاصة ، اوردتها لا لتثبت حقيقة او لتدعم رايا ، وانما سقتها لتدل من قريب او بعيد ، على ما في المكتبة المغربية الكبيرة ، من كنوز وذخائر ، لها قيمتها ووزنها، ولها اثرها الفعال ، في وعينا القومي ، ونشاطنا الفكري، فهي تربط بين ماضينا وحاضرنا ، وقريبنا وبعيدنا ، وهي اللبنة الاولى ، والاساس الذي يجب ان تبنى عليه صرح نهضتنا ، وتاريخنا الفكري والادبي ، وهي المرآة التي تنعكس عليها صورة المغرب الحقة .

وهنا يجب ان نتساءل ، ومن حقنا ان نتساءل ، لم لا تكون هناك هيئة ، او مؤسسة ، تقوم على نشر واحياء تراثنا الفكري ، او بالاحرى على انتشاله من الضياع ؟

اننا نرى في الشرق العربي جهودا موفقة ، تبذل في هذا المضمار ، تشترك فيها الجامعات ، ودور النشر ، وعدة هيئات وطنية ؛ وان من البوادر الحسنة في هذا السبيل ، انشاء معهد المخطوطات للجامعة العربية .

وكم كنا نود ان تتبنى هذا المشروع الهام ، جامعتنا الفتية ، وادارة التعليم العالي ، والبحث العلمي ، حقق الله الآمال ، ووفقنا جميعا لصالح الاعمال .

وقع خطأ مطبعي مهم في القسم الاول من هذا البحث المنشور في العدد السابق فالرجاء من حضرة القارىء اصلاحه كما يلي :

1) للشاعر المغربي مالك بن المرحل :

طاف الخيال بوادينا فما زارا
الا وواقع سرب النوم قد طارا

2) « كتاب روضة الانس ونزهة النفس » .

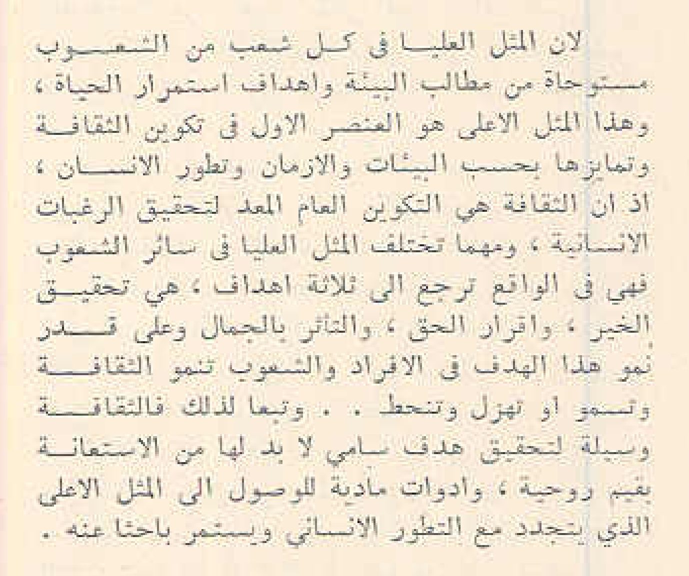
أصول الثقافة المغربية

للأستاذ : الحسن السايح



ليست الثقافة الا تعبيرا دقيقا عن خلجات الفكر الانساني وتجاوبه مع الطبيعة والزمان . . فهي وليدة الانسان عندما يستعمل فكره لمعالجة مقتضيات الحياة وتفهم مظاهر الطبيعة والكون محدودة في بيئتها وزمان انتاجها . . ولكن مع ذلك فصلتها قوية بالتاريخ لان مركزها الشخصاني يقر دائما صلتها التسلسلية (بالماضي) كعمل تجريبي ، يمد الفكر بالخبرة (وبالمستقبل) كهدف لنشاطها ، وصلتها قوية كذلك بالشخص نفسه لانه نقطة ارتكازها يتسلسل فيه عمل الوراثة والتكوين الفسيلوجي .

ولتحقيق التجاوب بين الشخص وبيئته يتحتم علينا في عصر الحضارة ان نهتم بالثقافة اهتماما بليغا حتى لا يظل توجيه الثقافة ايحاء عفويا وانما نسعى الى تخطيط معالمه ومدى تناسقه مع معطيات البيئة والشخصية ، وذلك لتوتي الثقافة انتاجها بطريقة رياضية واضحة ، ولذلك فليست الثقافة كما عبر احد علماء الاجتماع : (الا عبارة عن اجماع ما يتبقى للشخص ليعمل به في حياته وسلوكه) بل هي مدارك النشاط الخلاق ، واذا اردنا ان نعرف اليوم تنوع الثقافة التي يجب ان نفزع اليها ، فان ذلك يرتبط ارتباطا وثيقا بالشخص المواطن ، وعملية التاريخ السلالي في تكوين معالم تفكيره ، وبالبيئة نفسها وما تستجيب له من مطالب وتستوحيه من معطيات .



لان المثل العليا في كل شعب من الشعوب مستوحاة من مطالب البيئة واهداف استمرار الحياة ، وهذا المثل الاعلى هو العنصر الاول في تكوين الثقافة وتمايزها بحسب البيئات والازمان وتطور الانسان ، اذ ان الثقافة هي التكوين العام المعد لتحقيق الرغبات الانسانية ، ومهما تختلف المثل العليا في سائر الشعوب فهي في الواقع ترجع الى ثلاثة اهداف ، هي تحقيق الخير ، واقرار الحق ، والتاثر بالجمال وعلى قدر نمو هذا الهدف في الافراد والشعوب تنمو الثقافة وتسمو او تهزل وتنحط . . وتبعا لذلك فالثقافة وسيلة لتحقيق هدف سامي لا بد لها من الاستعانة بقيم روحية ، وادوات مادية للوصول الى المثل الاعلى الذي يتجدد مع التطور الانساني ويستمر باحثا عنه .

وان ثقافة كل شعب هي لبنة في هيكل الثقافة العامة الانسانية تتفاعل مع بعضها ويؤثر كل واحد منها في الآخر ولا غنى لهذه عن تلك مهما ظهر لنا ان بعضها ضئيلا ضعيف التاثير .

والثقافة لها وظيفة سامية هي تجهيز الشخص بالاستعدادات العقلية والنفسية واليدوية لمواجهة الحياة ومشاكلها والتغلب على صعابها ، ومن ثم فلا بد من تآزر الثقافات المختلفة لتقوية الشخصية الانسانية اذ لا يمكن انعزال الشخص في مجتمع خاص وعدم اتصاله بمختلف الثقافات الاخرى والا فسيبقى

متخلفا عن ركب التطور العام ولعل اقوى دليل على تطور حضارة كل بلاد وتقدمها هو فى مقدار تعرفها على مختلف الثقافات واستيعابها لهذه الثقافات المختلفة ، ومن نتاج الثقافة وانصهارها وخروجها الى حيز الوجود يبدو لنا ما يسمى بالحضارة الانسانية اذ الثقافة هي دافعة الى تنظيم النشاط والخلق والابداع وكلما ارتقى الانسان فى عمله وتنظيمه وخلقه فهو يكون فى الواقع يشيد حضارة انسانية ، وتسمو الحضارة كلما سمت الثقافة واعطت طاقة من الجهد والابتكار والتحويل والبناء .

واذا اردنا ان نبحث فى شعب ما عن درجة ثقافته وماهيتها فنحن فى حاجة الى التعرف على سيكلوجية افراده وجماعاته والى التعرف على الادوات المادية التي اعانت تاريخه على التحرك لنعرف مدى سمو عقله وروحه . . . ومتانة شخصيته .

وقد شاع خطأ ان المغرب معبر الثقافات ، وذلك نظرا لموقعه الجغرافي بين الشرق والغرب فوسموه بانه حلقة وصل بين الثقافتين الشرقية والغربية ، واظن ان هذا الراي يفند علينا قوة شخصيتنا وهو يكاد يتهمنا بفقدان ذاتية الثقافة المغربية فلسنا معبر ثقافات ، وانما نحن شعب له ثقافته الخاصة وذاتيته الاصلية وسوف نجد من خلال العرض التاريخي جزءا من هذه الشخصية واستقلالها ، وهي ككل الشخصيات المستقلة تاخذ وتعطي ، وتحتفظ بما يصلح لمقوماتها وتلفظ عنها الرواسب .

وقد ابتدع بعض المفكرين فكرة الشرق والغرب واخذوا يضعون الشعوب فى الطرفين حسبما تمليه مصالحهم تارة فى هذه الكتلة الشرقية واخرى فى تلك الكتلة الغربية وانا لا اصدق نفسي حين اساير هذه النزعة ، فلن يقر التاريخ ابدا هذه الفكرة ، وهي الى الاصطلاحات الجغرافية اقرب منها الى الاصطلاحات العلمية ، ولو شئت ان تقيم الفرق على اسس دينية فان هذا التقسيم سيفاجئك نهاية فى كل بلاد من البلدان ، واذا اردت ان تقسمها على اساس الثقافة فان هذه الثقافة تسلسلت مع الانسان فى الازمان ، فليست الفلسفة اليونانية وليدة الغرب بل هي متطورة على اسس الفكر الشرقي وليست الشيوعية وليدة الشرق او الشرق الاوربي فلها اصول من العهد القديم ونظريات بعض الفرق الاسلامية وفلسفة هيجل وفورباخ وماركس الخ . . والذين يعمدون الى البحث عن الفوارق يستندون على اجزاء مبعثرة من الماضي والحاضر ، ويتكلفون لذلك ادعاء هو الى الخطابة والجدل اقرب منه الى الفلسفة والبحث العلمي .

واثارة شرقية المغرب اوغربيته هي فكرة خاطئة لا تحمل لنا كثيرا من اليمن ولا تساعدها اية مستندات على اعتبارها كحقيقة واقعية والشيء المحقق تاريخيا هو ان الصلة بيننا وبين الشرقيين كانت مستمرة ومنظمة وكانت ذات اثر فى حياة المغرب العقلية والسياسية والاقتصادية .

ولكن ليس معنى هذا اننا جزء من العالم الشرقي ، فاقد لشخصيته وكيانه ، وكل ما نملك من علم وثقافة هو عن باب هذه بضاعتنا ردت الينا حسب تعبير الصاحب بن عباد ، والشيء المحقق حاضرا هو اننا اتصلنا بالغرب اتصالا وثيقا ، اتصلنا به مكرهين واتصلنا به راضين ، وتاثرنا به على اية حال من الاحوال . . ولكن ليس معنى هذا اننا نفقد مقومات الشخصية المغربية لتنصهر فى الحضارة الغربية او اننا نشعر بمركب نقص ازاء طغيان هذه الحضارة فلنا شخصيتنا البارزة فى خصائصها الفيسلوجية والسيكلوجية . . ولنا طبائع تميز شخصيتنا كشعب بارزة فى حياتنا كافراد مستقلين وفى مجتمعنا كافراد فى هيئة .

والرجل المغربي مشهور بذكائه الخارق ونظرته الى الاشياء نظرة شمولية كلية وفى محاولته دائما ان يربط النتائج بعضها ببعض وكان مؤسس علم الاجتماع (ابن خلدون) نموذجا لهذه الشخصية ذات الفكر الشمولي المحلل كما ان المغربي دقيق الملاحظة قلما يسلم احد من انتقاده ولا يجازف فى الاستسلام حتى يحيط بجوانب النقص والكمال ، ولذلك كان ابن شرف وابن رشيق القيروانيين من اعلام الفكر الانتقادي فى الدراسة الاسلامية والغربية ، ولذلك اشتغل رجال الفكر فى المغرب بالشرح والتعليق اكثر من التاليف ، وقد انتقد بعض الشرقيين على المغاربة اشتغالهم بالتعليق والشرح والتشبيه ، واتهم فكرهم بالضحالة والمحل فاجابه مغربي على البديهة بقوله : نحن يشغلنا تصحيح اغلاطكم على التاليف . كما ان من خصائص نفسية المغربي افراطه فى الاحترام حين تظهر له امارات الاستحقاق وهذا الافراط يظهر فى القالب بمظهر التقديس والاجلال ومظاهر هذا التقديس ، كالسجود لمن يتولى اموره فيخلص له العهد ، والافراط فى الغيرة عن الشرف الى حد

استصغار العظائم واستعذاب الموت ، والجندي المغربي مشهور بشجاعته الفائقة حيث تاكل الحمية قلبه ويرى في القتال طريق الثار والانتصار .

والمغربي على العموم يالف بلاده ولكنه شغوف بالتنقل والسياحة ولذلك تضم الخزانة المغربية آلاف الكتب في الرحلات كما ان المعجم التاريخي يحتوي على مآت الرحال كتب عنهم كثير من المواطنين في القديم والحديث وكثير من المستشرقين امثال ماسنيون وغيره . وهذه المظاهر قد يشارك المغربي فيها كثير من الامم ولكنها اصلية في افراده متكتلة في شخصية سكانه .

الحضارة المغربية القديمة

وكانت الحضارة المغربية القديمة مرتكزة في عدة مدن مغربية صميمة عريقة في القدم مؤسسة قرب المروج والينابيع كما هو الشان في المدن القديمة (1) ونذكر من مراكز الثقافة القديمة مدينة سلا التي ذكر الزياني في الترجمانة الكبرى ان بناتها كانوا برابرة ؛ ومدينة سجلماسة ودمنات وفي كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ذكر لعدة مدن عريقة في القدم كفنط قرب اسفي وازمور المؤسسة قبل العهد الفنيقي ، ويذكر ميكيل طارديل في (بحثه عصر الفنيقيين الاول بالمغرب) ان العلاقات البحرية بين طرفي البحر الابيض المتوسط اقدم من الفنيقيين بكثير ولعلها نشات في العصر الحجري الجديد ويؤكد هذا بما في الكتب المقدسة عن قوارب صيد وكذلك بوصف هيردوت تجارة الذهب وبما ذكره شرابون وتيميو واقاصيص الميسولوجيا اليونانية . ولكن الثقافة التي كانت مرتكزة في هذه المدة عفى عليها التاريخ اذ القرطاجنيون محقوا معالمها كما قضى الرومان على حضارة قرطاجنة من بعد وكما فعل الوندال بحضارة الرومان من بعدهم ونقل مؤلف (مظاهر الحضارة المغربية) عن الفريد بيل في كتابه ديانة الاسلام في بلاد البربر ، ان البرابرة بعد احتلال الوندال فقدوا كل ما استمرؤوه من الحضارة القرطاجنية والرومانية على انه من كل ماتبقى يمكن ان تلخص الثقافة المغربية في هذه الحقبة المظاهر الآتية : 1) في الفلاحة 2) في العوائد 3) في الدراسة .

اما في الفلاحة والزراعة فان الآلات البدائية المستعملة دالة على ان البربر كانوا شعبا فلاحيا وانها تماثل الحياة الفلاحية التي كانت منتشرة في حوض النيل وبلاد آسيا ، مما يدل على ان هناك تبادلا تجاريا في اساليب الري والفلاحة . وفي الآثار الموجودة ما يبرهن على وحدة التقاليد الفلاحية او على الاقل ما يبرهن على ان البرابرة من سلالة اسيوية نقلت عوائدها الى المغرب بعد مرورها بوادي النيل .

وأما في العوائد فان هناك مظاهر متحدة بين حياة العرب في الخيام وحياة البربر في النوايل ايضا حيث تشابه جو البيئة البدوية في الجزيرة وبعض اطراف المغرب الا ان البربري في الجبال كان ياوي الى الكهوف والمغاور .

وتطورت السكنى في المغرب الى البناية الكبرى المعروفة (بالمدشر) كما تطورت الى القرية في المجتمع العربي اما لباسهم فانه البرنس الذي لا يختلف كثيرا عن العباءة لان الطقس البارد في فصل الشتاء يتطلب دثارا اكثر احاطة بالجسم كله .

وكانوا يؤثرون ان يحلقوا شعورهم ويحتفظون (بالقرن) الذي هو من بقايا الطوطمة البدائية في المغرب بعكس العرب الذين يحتفظون بالشعر نظرا للحرارة في اقليمهم اما المراة فكانت تتزين وتتبرج وتهتم بوشي وجهها ويديها وتخضب بالحناء وتضع في ارجلها الخلاخل الفضية .

---

1) كان الاصطلاح القديم هو اطلاق موريتانيا على المغرب الاقصى وتوميديا على الجزائر وزوجيتان على تونس وكان بين المغرب والجزائر قطر صغير يسمى (ملفا) وبينها وتونس قطر يسمى (لوسكا) اما برقة فتسمى مرتيكا وبنطاليوليس اي المدن الخمس ، اما قارة افريقيا فكان اسمها ليبيا وافريقيا تطلق على تونس وطرابلس وهذا الاصطلاح يوناني قبل الرومان بكثير وذكر الاستاذ ميكيل طارديل في بحثه عصر الفنيقيين بالمغرب (المنشور بمجلة تطوان العدد الثالث والرابع) ان مدن ليكسوس وقادس واوتيكاهي اقدم المؤسسات في غرب البحر الابيض المتوسط ويلاحظ أن لكسوس قد شيدت في الفترة المتراوحة بين منتصف القرن الثاني السابق للميلاد ودخول القرن الاول ومن خلال الحفريات الجارية بهذه المدينة يستبان ان معظم هذه البنايات حطت واعيد استعمالها في بعض الجهات ثم حدث هدم اخر عند الفتح الروماني في عهد (كلاوديوس) بعد وفاة (بتولوميو) والصراع مع (ايدمون) كما قام مسيو (ج سانطاس) سنة 1954 بابحاث حرفه في (جزيرة الصويرة) الصغرى فظهر ان بها مركزا فنيقيا دام قرون واستمر حتى اواخر العصر الروماني وكان في الغالب سوقا للتبادل التجاري .

اما الاقتصاد فقد ساد نظام المبادلات حياتهم وكانوا ينتجون بعض الآلات الفلاحية والاسلحة البدائية للدفاع عن حوزتهم مع صياغة بعض انواع الجواهر كما تاجروا فى الحيوانات المفترسة مع الرومان ، وفى عاج الفيل الافريقي الذي انقرض نهائيا من افريقيا اما المعتقدات فقد كانت الوثنية منتشرة فى المغرب فى عهد ما قبل التاريخ حيث عبدوا الشمس ومظاهر الكون وحملوا بعض عوائد الفراعنة اثناء هجرتهم عبر وادي النيل وحيث وضعوا موتاهم فى كهوف نحتت فى حجارة الجبال بعد صبغها ودفن الاثاث بجانبها استعدادا لحياة ثانية ، وعرفوا فى صلواتهم السجود وهو من مظاهر العبادات الشرقية ودال على نسبة ارومتهم الى بلاد المشرق كما كانوا يختتنون حسب التقاليد السامية القديمة . والمراة البدوية سيدة منزلها قد ينتسب اليها الابناء وسادت عادة تعدد المراة ، ويرى اندري جوليان فى (تاريخ افريقيا الشمالية) ان عادة شيوع المراة لرجال متعددين لم تكن معروفة عندهم ، والمراة نشيطة فى ميدان الصناعة حيث تنسج الزرابي وتنقش الاواني وتشارك فى الرعي . . . والحياة الاجتماعية لها طابعها الخاص حيث كان نظام المشيخة والحكم الجماعي هو القانون المعمول به والمستمد من العوائد المعبر عنها بازرف والشيخ ينتزع وظيفته من شجاعته العسكرية عندما تبتلي القبيلة بحرب فيظهر قوة باسه فى الدفاع عنها .

اما الثقافة الخطية فقد عرفوا الخط الحميري وكتبوا به على بعض آثارهم فى الحجارات التي عثر عليها فى الاطلس الصحراوي قرب كلومب بشار .

وجماع هذه التقاليد والعوائد والانظمة هو الذي نعبر عنه بالثقافة المغربية القديمة وهو نواة الثقافات التي حلت بعد بهذه الديار ولا شك ان عوامل تشابه البيئة العربية والبيئة المغربية فى كثير من مظاهر الحياة اقامت وحدة بين العنصرين بعد الفتح الاسلامي كما سترى بعد ذلك .

وترك لنا التاريخ معالم هذه الثقافة سواء فى الآداب اللسانية او فى المظاهر المعمارية اذ هناك حكايات ونوادر واقاصيص على السنة الحيوانات اوردها الكاتب البربري (ابوليوس) فى العهد الروماني ، وعرفت فى البلاد الرومانية وتاثر بها الادب الغربي كما خلف لنا (اليزلان) من الاطلس المتوسط قصائد شعرية تمجد البطولة والفروسية اما فى المظاهر المعمارية فهي تبدو جلية فى بناء القلعة والمدافن الهرمية التي قلنا سابقا انهم تاثروا فيها بحضارة وادي النيل ، ثم تطور هذا الفن بعد الاتصال بالرومانيين والحضارة الاسلامية فيما بعد .

وكان التعبير الجماعي عن الفرح بفن الرقص المعتمد على الايقاع والتصفيق والنقر . وكان (الحيدوس والاحواش) رقص يعتمد على الموسيقى المحركة ، وعلى المظهر الانيق حيث يكون استداريا وقد اسس (يوبا الثاني) معهدا موسيقيا بمدينة شرشال فى العصور القديمة (فى القرن الثاني قبل المسيح) ثم الف اول معجم فى المعارف ، وفى الانساب البربرية .

وكان التمثيل شائعا عند البربر القدماء عرف فى عهد يوبا الثاني فى مدينة شرشال والغالب ان له اصولا مصرية اذ هو فى الاصل اناشيد وتصاوير يستعطف الرب ويتوسل اليه بواسطته .

كما عرفوا فى عهد يوبا النحت الصنمي حيث نحتوا من الحجارة آلهتهم وعبدوها .

وقد صور البربري القديم سواء على الصخور او على بيض النعام او على الخزف وترك لنا التاريخ الاثري مجموعة من اخاطيط ورسوم تعبيرية .

اما الشعر الملحمي فهو من طبيعة اللغة البربرية فقد عرفته قبل الرومان وفى عهد الرومان ايضا حين تاثروا بالادب القصصي والمسرحي الروماني بل ان البربر فى العصور الاسلامية كتبوا ملاحم رغم ان هذا اللون فى الادب افتقد فى الادب العربي ومن ذلك ملحمة (الصابي) بلغة تشلحيت كما فى دائرة المعارف الاسلامية ولم يبق هذا الشعب البربري وحيدا فى الشمال الافريقي اذ سرعان ما جاءت جالية فى القرن الثاني عشر من الشرق ، واقامت مدة احد عشر قرنا فى افريقيا ، وهذه الجالية هي الدولة الفنيقية ، وبما ان هذه الدولة تنتهي فى نسبها الى الكنعانيين الساميين فقد تآلفت بسرعة مع البربريين ، وسرعان ما اسست مدنا مهمة على طول افريقيا الشمالية كبنزرت فى تونس والجيجل فى الجزائر وسلا وطنجة فى المغرب وينقل ميكيل طاراديل عن (بلينيوس) ان هذا المؤرخ لا يذكر تاسيس مدينة ليكسوس بل يذكر تاسيس معبدها بما يدل على ان بناء المعابد سابق على تاسيس المدن وبالتالي بوجود فترة طويلة من صلاحية الاستكشاف والمبادلة التجارية قبل انشاء مراكز المستعمرات .

ونشر الفنيقيون (2) حضارتهم البحرية والبرية في المغرب واقتبس البربر خطهم وتركوا الخط البربري المعروف باللوبي والمشتق من الحميري وهو اقدم من الخط الهيروغليفي المصري وقد ازدهرت الحضارة الفنيقية ايما ازدهار ، وتركت اثرا ادبيا تجلى في المؤلفات التي كانت في الخزائن القرطاجنية في الشمال الافريقي ، وبقي النفوذ الفنيقي هو الوحيد الذي تلقاه الاهالي وتاثروا به قبل الفتح الروماني ويقول ميكيل طاراديل ان هذا النفوذ كان فاصلا في تكوين ثقافة مغربية ذاتية يجعلنا نرى ان الاسم المناسب في تاريخ المغرب للفترة المتراوحة فيما قبل سقوط قرطاجنة خلال الحرب الثانية ونشاة البيوت المحلية الحاكمة المعروفة والتحاق المغرب بالامبراطورية الرومانية (هو القرطجني الموريطاني) . ولكن الغزو الروماني عفى على هذه الاثار ، وبدون شك فهذا هو العنصر الثاني الملحق للثقافة البربرية ونستطيع ان نتعرف من خلال الحضارة الفنيقية على مدى فعالية هذه الثقافة في بلادنا ، اذ ان الفنيقيين شعب فلاحي وتجاري ، ظهرت آثاره الفلاحية في غرس البساتين وحمل بعض انواع الفواكه الى المغرب وهو تجاري بما ينتج من ادوات فلاحية ومنزلية كالاكواب والصحون والاباريق وتجاري في بعض الصناعات اليدوية كالنسيج مثلا ، على أن الفنيقيين كانوا من الشعوب التي قهرت البحار ، ويظهر ان اجدادنا لم يتاثروا في هذه الناحية البحرية بالبحرية الفنيقية ، او لعل التاريخ لم يكشف لنا عن عبقريتهم في هذا الميدان ، اذ نحن نعثر في تاريخ المغرب على الحركة القرصانية التي ساء فهم الناس لها والتي هي متاخرة كثيرا عن هذه الحقبة التي نتكلم عنها الان، وبجانب هذه الثقافة العلمية التي ورثها اجدادنا عن الفنيقيين كانت توجد ثقافة روحية دينية ظهرت في هيكل معبد (بعل) ومعبد (قانيت) هذه المعابد التي آوت التفكير الديني الفنيقي ومعلوم ان الفنيقيين تاثروا بعدة ديانات قبل ظهور المسيحية في الشرق واختلف على بلادهم الانبياء ولكن طابعهم الديني كان توحيدا او بنزع منزع التوحيد . . . وكان الكهنة الفنيقيون يسيطرون على العقلية الشعبية بطقوس تهدف الى تسخيرهم لعبادة بعل وتقديم القرابين البشرية ليكون لهم مستندا ومعينا في الحياة ، ويطول بنا الكلام لو اردنا ان نستقصي مظاهر العبادة الفنيقية ولكن المهم ان اجدادنا تاثروا بهذه الثقافة الفنيقية (3) وكانت العنصر الثاني الفعال في التفكير المغربي القديم وان اقدم مؤلف نعرفه كشاهد على الاثر الفنيقي هو كتاب (ماجون) Magon وهو كتاب يتناول الفلاحة واساليبها وقد ترجم الى اللاتينية وكان عمدة الرومانيين في هذا الميدان ، اما التاثير الاقتصادي فالآثار اليوم تؤكد انهم منذ القرن السابع ق . م . قد افرغوا في جزيرة الصويرة المنتوجات التي حملوها معهم من شتى المراحل التي قطعوها من السواحل اللبنانية الى الشواطىء المغربية ومنها الصحون المجلوبة من جزيرة قبرص وروديس واواني الفخار المجلوبة من المدن الاغريقية . وبجانب هذا التاثير الفلاحي كان هناك تاثير عقيدي حيث عرف البرابرة لاول مرة عبادة الكبش (عمون) وعبادة بعل وتانيت ويوزيدون كما في رحلة (حانون) ومن المعلوم ان القرطاجنيين هم شعب تجاري وفلاحي وهذا من احدى عوامل الخلاف بين قرطاجنة وروما التي كانت عبارة عن شعب عسكري يفتح البلدان لاستغلالها فلاحيا

---

(2) الفنيقيون من الكنعانيين الذين هاجروا بلاد الشمال سنة 3500 ق.م. وسكنوا فنيقيا حسب الاسم اليوناني نسبة الى كلمة فنكس اي النخيل او اللون الاحمر واستمرت حضارتهم زهاء (3170 سنة) وينقسم عصر ازدهارهم الى عصر صيدا وعصور صور .

(3) كانت السفن الفنيقية تمخر عباب البحر الابيض المتوسط حيث تحمل حضارتهم الى باقي الاقطار النائية وقد اسسوا في طرابلس مدينة (برسيوم) اي الارض الكثيرة المياه واسسوا في تونس زوجيتان كما اسسوا قرطاجة بتونس سنة 840 ق.م. وقرطاجنة معناها المدينة الحديثة ، اسستها اميرة فينيقية (اليسا) وفي سنة 1215 ق.م. انتصر بنو اسرائيل على سكان فلسطين الكنعانيين فهاجر هؤلاء وهم اصحاب مدنية عريقة الى افريقيا الشمالية حيث حملوا معهم في الكتابة والقراءة واساليب فلاحية وصناعية واسسوا عدة مدن ، وفي سنة 611 اكتشف الفنيقيون (الصوريون) شاطىء القارة الافريقية كما روى ذلك هيرودوت وهم الذين بنوا اصنام هرقل بطنجة وحملوا الينا صناعة الزجاج ثم ضاعت مدنيتهم بعد انتصار اسكندر المقدوني عليهم فخلفهم على عرش المدنية الفنيقية احفادهم القرطاجنيون الفارسة .

وليمد روما بخيراتها (4) ؛ وقد ظل القرطاجيـــــون معتنين بتنمية العمران والاقتصاد طيلة وجودهـم في المغرب ويذكر الربان حنون في رحلته ان القرطاجيين خرجوا في متن سفينة عظيمة ليؤسســوا المدن ومنهـا تميتيرية (المهدية) وسلو وحصن فريكون وغيتة وعكرة ومليطة وارنبي ، حتى نهر لكسوس (وادي ســوس) واجدير وروسادير (مليلية) في الشمال المغربي .

في منتصف القرن الثاني 146 ق . م . هاجـــم الرومانيون بلاد المغرب (5) وتصدى اجدادنا للدفاع عن بلادهم في حروب تسمى في التاريخ المغربي بالحرب البونيقية ... واستمر الحكم الروماني ستة قرون اي انتهى في منتصف القرن الخامس بعد المسيح ... وقد خلف الرومان اثرهم الثقافي سواء في ميدان العلوم او في ميدان الاداب او ميدان الفنون المعمارية وغيرها .. بل ان اعاظم المفكرين والادباء اللاتينيين لهم اصـــل افريقي مثل اوغوستينوس وفريانوس وكرتيلياتوس.. ويكفي ان يكون اكبر مؤلف مسرحي عرفته روما وهو طيرنسيوس من قرطاجنة الافريقية .

---

4) وصف التوراة الفنيقيين بانهم تجاريون فلاحيون ملاحون ويصفهم هردوت بان لهم ذوقا وفنا لا حد له كما يظهر في وصف هيكل هرقل الذي كان فيه عمودان يتألقان في الظلام ويرى سترابون اليوناني انهم علما فلك ورياضيات وهم معلمو اليونان .

5) هاجم الرومان قرطاجنة سنة 264 ق.م. بعد ان عاشت قرون تأوي ازيد من مليون نسمة وتكون قاعدة امبراطورية افريقيا المتحكمة في البحر الابيض المتوسط باسطولها العتيد وان تكون من ممتلكاتها (اسبانيا) وكان لها دستور سام وصفه ارسطو بالكمال والاستقرار وحسن التدبير ، وكانوا يحملون تجارتهم الى الساحل الاطلسي المغربي كما ذكر حنون في رحلته ، وظل المغاربة يتعاملون تجاريا حسب اساليب قرطاجنة الى عصر (ياقوت الحموي) سنة 626 كما بسط ذلك في كتابه معجم البلدان

من هـو احـق بمواساتـك ؟

قال اكثم بن صيفي احـق من شركك في النعم شركاؤك في المكــاره اخــذه بعضهــم فقـال :

وان اولـــى البـرايــا ان تـواسيــه
عنـد الســرور لمـن واسـاك في الحـــزن

ان الكـــرام اذا مــا اسهلــوا ذكـــروا
مــن كــان يألفهـم في المنـزل الخشـــن

ترجمة فقيد الاسلام الشيخ
محمد بن المدني بن الحسني

للاستاذ : محمد المنوني

كلمة اولى

سعدت بالاقامة في الرباط خلال عام 1374 – 54 – 1955 في ايام كانت عامرة بالاتصالات برجال العلم والادب الذين لا تخلو منهم هاذه المدينة العظيمة في كل وقت وحين ، ومن حسن الحظ ان كان من بين الذين سعدت بلقائهم علامة مغربي كبير ، ومحدث اسلامي شهير ، المغفور له الشيخ محمد المدني ابن الحسني في مجالس كانت بمثابة ندوات علمية وادبية : افادات متناثرة متلاحقة : حديثية وفقهية وتاريخية واصولية ... انشادات يرسلها عند المناسبة كالسحر الحلال ، تعابير فنية من الطراز الاول تتخللها توريات بديعة ، اخلاق عالية ولطف وبشاشة .

وقد كان – من بين ما قيدت عن الراحل الكريم خلال هذه المجالس – معلومات عن ترجمته ، ثم انضاف لها بعد حين معلومات جديدة نثرها المترجم في الاجازة التي تكرم بها على كاتب السطور ، وبعد هذا بقي الموضوع بحاجة الى التتميم والتكميل ، وذلك ما اطلعني عليه ابن الفقيد وخلفه : الكريم ابن الكريم بن الكريم ، علامة العصر سيدي عبد الكريم ، وقد جاء من ذلك كله هذه الترجمة الصغيرة التي تتناول نبذة من حياة الفقيد العظيم ، والتي اقدمها تذكارا لتلك المجالس العلمية العامرة ، واداء لبعض حقوق علمائنا الكبار ، ومساهمة في احياء ذكراه الثانية بعد ما فاتني – لاعذار قاهرة – المشاركة في ذكراه الاولى ، وسأسير في هذه الترجمة حسب التصميم المصدرة به هذه المقدمة .

اولية المترجم

بنو الحسني علميون يرجعون للسيد الشريف المولى عبد السلام بن مشيش ، ويعود تاريخ استيطانهم بالرباط الى القرن الثالث عشر للهجرة ، وقد ظهر فيهم بالعلم قبل المترجم :

(1) والده الشيخ الغازي الذي تبرز في الحساب والتوقيت والتعديل ، وتوفي بالاسكندرية مرجعه من الحج في صفر عام 1357 ، وقبره بها عند مشهد الشيخ ابراهيم السنوسي المغربي .

(2) عم المترجم الشيخ محمد العلامة الواعظ الشهير المتوفى في رجب عام 1341 .

مولده ومتعلمه الاولى

ولد بالرباط في ربيع الاول فجر يوم المولد النبوي عام 1307 الذي توفي فيه والده ، ثم قرأ القرءان الكريم والمتون العلمية بالرباط ومراكش التي سافر اليها عام 1312 صحبة جده الوزير السيد الحاج عبد السلام التازي الرباطي المتوفى عام 1325 هـ .

وقد تلقى هذا المتعلم الاولى على (1) الاستاذ السيد علي السوسي الدمنتي المتوفى بالرباط عام 1323 تقريبا .

ماخذه للعلوم

عاد للرباط عام 1318 فاخذ في قراءة العلوم الاسلامية والعربية على مشايخ بلده وهم :

2 – القاضي الشيخ عبد الرحمن بن بناصر بريطل الرباطي العلامة الكبير المتسع المشاركة الحافظ في كل فن متونا عديدة المتوفى في صفر عام 1363 هـ .

وهو اول اساتذة المترجم وعمدته الذي اخذ عنه اغلب العلوم المتداولة من النحو والصرف والبيان

والعروض الى المنطق والاصول والتوحيد الى الفقه والفرائض والحساب والتوقيت والتعديل ، مع الموطا والشمائل .

3 — القاضي الشيخ الجيلاني بن احمد بن ابراهيم الرباطي العلامة الحافظ المفتي المتوفى عام 1336 ه .

قرا عليه جل المختصر الخليلي من اوله الى الاجازة مع بعض التحفة والزقاقية والخلاصة .

4 — الاستاذ الشيخ احمد بن قاسم جسوس الرباطي العلامة الاديب الكبير المترسل المتوفى عام 1331 ه .

اخذ عنه ما يناهز النصف من المختصر الخليلي وجل مختصر السعد على التلخيص وورقات امام الحرمين والجزرية في القراءات وهمزية البوصيري من قولها « ليته خصني برؤية وجه » الى اخرها ، والشمائل ، والاربعين ، والشفا واوائل الموطا ، والرسالة .

5 — القاضي الشيخ ابو حامد المكي بن محمد بن علي البطاوري الشرشالي الرباطي شيخ جماعتها وعمدة الفنون بها ، المتوفى عام 1354 ه .

قرا عليه جل البردة ، وبعض الهمزية البوصيرية من قولها « ومسير الصبا بنصرك شهرا ... » مع اواخر الموطا .

6 — القاضي الشيخ احمد بن موسى الرباطي العلامة الدراكة الحافظ المتوفى عام 1328 ه .

اخذ عنه بعض المختصر والخلاصة والجمل .

7 — عم المترجم الشيخ محمد ابن الحسني العلامة الواعظ الشهير تقدم ذكر وفاته قرا عليه همزية البوصيري من قولها : « واتاها ان الغمامة والسرح ... » ، وجمع الجوامع لابن السبكي ، والحكم العطائية ، وادب الدنيا والدين للماوردي ، ومعيد النعم ومبيد النقم لابن السبكي ، والتنوير لابن عطاء الله ، وبعض الشفا .

8 — الوزير الشيخ ابو شعيب بن عبد الرحمن الصديقي الدكالي الشيخ الامام المحدث المفسر الحافظ الكبير المتوفى عام 1356 ه .

سمع منه الصحيح الجامع الذي يرويه عن الاشياخ الاربعة الشيخ سليم البشري والشيخ علي الصالحي والشيخ محمد الطموي والشيخ احمد الرفاعي محشي بحراق جميعهم عن الشيخ منة الله عن الامير باسانيده في فهرسته ، كما سمع منه بقية الكتب الستة والموطا باسانيده المبسوطة في اجازته للمترجم .

بقية اسانيده في الصحيح الجامع

زيادة على الشيخ ابي شعيب فان المترجم قرا الصحيح الجامع للبخاري بين رواية ودراية على اشياخه ابن موسى سماعا من لفظ الشيخ لجميع الصحيح عدة مرات بالمشهد السائحي ، وجسوس سماعا من لفظه لاوائله واواخره واجازة لباقيه بالمشهد المذكور ، وعمه ابن الحسني سماعا من لفظه لاوائله واواخره بالمسجد السائحي : ثلاثتهم عن شيخ الشيوخ الامام الشهير ابي المحاسن العربي بن محمد بن السائح الشرقي العمري الفاروقي المكناسي ثم الرباطي المتوفى عام 1309 عن الشيخ عبد القادر الكوهن الفاسي باسانيده المذكورة في فهرسته . كما سمع كل الصحيح بقراءة الغير على شيخه ابي حامد البطاوري مرة وبعض مرات اخرى ، عن الشيخ ابي الحسن الدمنتي باسانيده في فهرسته المطبوعة .

اجازاته

اجازه من اشياخه المذكورين : البطاوري مرتين الاولى عامة والثانية خاصة بفهرسة ابي الحسن الدمنتي حسب اقتراح المستجير ، وجسوس بتاريخ اواخر ربيع الثاني عام 1330 ه ، والشيخ ابو شعيب بتاريخ 7 رجب عام 1338 .

كما اجازه العلامة الامام المحدث المسند المهاجر الشيخ (9) محمد بن جعفر الكتاني المتوفى عام 1345 مرتين 1328 — 1344 ه وكاتبه مرارا من فاس والمدينة المنورة ، ومن طريقه يسند حديث الرحمة المسلسل بالاولية : عن الشيخ حبيب الرحمان بن امداد احمد الهندي الحسيني ، عن الشيخ عبد الغني الدمشقي الميداني ، عن محدث الشام عبد الرحمان الكزبري ...

وممن اجازه بالمغرب ايضا (10) العلامة النوازلي المفتي الكبير الشيخ المهدي العمراني الشهير بالوزاني الفاسي المتوفى عام 1342 و (11) العلامة المشارك الحيسوبي الميقاتي الشيخ المهدي متجينوس الرباطي المتوفى عام 1344 .

ومن المشرق اجازه عام 1352 ه اربعة من اعلامه: (12) الشيخ عبد الباقي بن ملاعلى الانصاري الايوبي الهندي اللكنوي و (13) الشيخ ابراهيم بن عبد القادر البري المدني و (14) الشيخ محمد بدر الدين بن

يوسف المغربي الدمشقي مدرس دار الحديث بهـــا و (15) الشيخ عمر بن ابي بكر باجنيد الراوي عـــن الشيخ احمد بن زيني دحلان المكي .

نبـــوغ مبكـــر

اخذ يبدو نبوغ المترجم المبكر من عـام 1323 هـ حين كان عمره لا يتجاوز 17 سنة ، وبعد ست سنوات او اقل من اشتغاله بالتعلم ، ففي هذا الابان اخرج اول مؤلف له : (الفتح القدسي ، والمنح الاوسي ، في شرح قافية ابن عمرو الاوسي) وهو اسم شرح كتبه اذ ذاك على قافية ابن عمرو الاوسي الرباطي التي وضعها في المديح النبوي ، وعارض بها قصيدة الشمقمقية .

وقد اثارت هذه الباكورة الاولى من المترجم موجة من الاستحسان والاعجاب في اوساط اشياخه الثلاثة : بريطل والبطاوي وجسوس ، وذهب الاعجاب بالاخيرين منهم الى حد ان كتب كل منهم تقريظا على حـــدة ، للتنويه بهذا الموضوع البكر المبكر ، وهذا ما املاه علي المترجم من التقريظين : كتب ابو حامد البطاوري :

« للـــه مـــا افــادنـــا
عنــوان هـــذا الدفتـــر
مـــن همـــة ســريـــة
دون علاهـــا المشتـــرى
اعيـــذه مـــن كـل ســو
بالبـــاريء المصـــــور

الى ان قـــال :

تبارك من ابدى غرائب صنعـــه
وابدى من الاحسان ما جل عن عد
وعنوان اشراق البداية مـوذن
بان نهاية العلى طالع السعـــد »

وكتب ابو العباس جسوس عقبه :

« الحمد لله على كماله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وءاله ، قد عن لي ان اكون بعد هذا السيد الحلاحل ، القاضي الفاضل ، مصليا ، اذ كان ــ حرسه الله تعالى ــ مجليا ، فاقول حامدا مصليا :

قد جئت على اصلك ايها الشاب الظريـــف ، وانسيت ايها المولى الشريف ، الاخضري وابن العفيف، وبرزت على الاقران ، وصار دون ما ارتقيت اليـــه القمران .



فقيـد الاسلام المدنـى بـن الحسنـى

يـا مـن لعبـت بـه شمــول
مـا احســن هــذه الشمائــل

ولم يزل الادب معشوق شريف الطبع ورقيقه من كل مدني ، فكيف لا تهواه وقد سماك قطب الزمـــان مولانا الـــائحي ــ قدس سره ــ سيدي محمد المدني

وقلمـا ابصـرت عيناك ذا لقـب
الا ومعناه ان فكرت في لقبـــه

والله يبقيك ويقيك ويرقيك ويزيد في معناك ، ويسني سناءك وسناك ، ثم قال :

حفظـت يا نجـل الكـرام السبـق
ودمت تبدي كــل حــن مونــق
للــه مـا صــرت اليــه طامحـا
مــن ادب غــض وعلـم مفــدق

أبنت عن فضـل غزيـر وزنـه
وهمـة علـى الـدراري ترتـق

والمـرء ينبـي عن حجـاه قولـه
وقد نرى صنعا كثيـر الرونـق

بقيـت محـروس الجنـاب طالعـا
كوكـب سعـد بمحيا مشـرق »

هذا واذا كان التاليف المتحدث عنه يتناول ـ الى جانب السيرة النبوية ـ اللغة والادب ، فان المترجم قد شفعه في طور الطلب ايضا اعوام 25 ـ 26 ـ 1327 بموضوعات حديثية ليبرهن على تمكنه من التاليف في هذا الابان ، وليلوح لما سيكون له من مستقبل في علم الحديث بعد علم اللغة والادب ، وسترد اسماء هذه الموضوعات الحديثية اثناء تعداد مؤلفات المترجم .

انتصابه للتدريس

ابتدا من عام 1332 ، وكان كلما ختم كتابا افتتح ءاخر ، ولم يزل مواظبا على التدريس الى اواخر عمره حيث اعترته الامراض التي حالت بينه وبين اعز شيء عليه في الحياة .

وقد اقرا تفسير القرءان الكريم ، وصحيح البخاري ، والشفا ، والمختصر الخليلي ، وجمع الجوامع وتلخيص القزويني ، والورقات لامام الحرمين ، والمرشد ولامية الافعال ، وغير ذلك من الكتب المتداولة .

كما درس كتبا لم تجر العادة بقراءتها او تدريس بقلة : فقد اقرا قوانين بن جزي ، وعمدة ابن دقيق العيد ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وزاد المعاد لابن القيم ، وتنقيح القرافي ، ومرتقى الاصول لابن عاصم ، والفية السيرة للعراقي ، والمعلقات ، ومقصورة ابن دريد ، وقصيدة بانت سعاد ، وذخر المعاد للبوصيري ، ونصيحة ابن جعفر الكتاني .

وكان غالب تدريسه ببلدة الرباط ، ودرس قليلا بغيره : فقد درس افتتاح صحيح البخاري بالمسجد الاعظم من طنجة عصر يوم 28 جمادى الاخرة عام 1354 وانشد هناك قوله على منوال الصحابي السيد بلال :

الاليت شعري هـل ابيتـن ليلـة
بطنجـة حيـث مـاؤهـا وجنـان

وهل اردن ماء الحديـد بمنهـل
وهل يبدون منها مجاز ومرشـان

كما اقرا نفس الموضوع بجامع المواسين من مراكش الحمراء ، ذات المواقف المشرفة البيضاء والحمراء على حد تعبير المترجم ، وذلك بين العشائين عام 1365 ، وانشد هناك قول القائل :

بالله ان وطئت مراكشـا قدمـك
وجزت يوما على تلك البساتيـن

ان لا تقدم امرا قد هممت بـه
حتى تحيي سكان المواسيـن

مؤلفاته

تبلغ موضوعات المترجم نحو الستين بعضها تام، وبعضها كالتام ، والباقي غير تام ، وهذه اسماء القسم الاول منها مرتبة ـ في الغالب ـ على تاريخ تاليفها .

1 ـ « الفتح القدسي ، والمنح الاوسي ، في شرح قافية ابن عمرو الاوسي » جمعه عام 1323 ، وتقدم انه التاليف البكر للمترجم .

2 ـ « نفائس الدرر ، على باب الخصائص من المختصر » الفه عام 1325 عند قراءته للمختصر على شيوخه ، وجرى في تقرير كلام المتن على الوجه الحديثي مع ابداء ما على شارحيه من البحوث ، وقد قرظ عليه بعض اصدقائه .

3 ـ « حسن المرافقة ، بتقرير باب المسابقة » الفه زمن الطلب ايضا عام 1326 وسلك فيه مسلكه في سابقه .

4 ـ « منح المنيحة ، بشرح النصيحة » اسم شرحه الحافل على النصيحة الاسلامية العظيمة التي الفها الامام الغيور محمد بن جعفر الكتاني ، ابتداه في 15 محرم عام 1327 ، واتمه في صفر عام 1328 وتم تخريجه وتحريره عام 1330 ، يقع في مجلدات اربعة وكراريس110 معتادة، وقد اطلع عليه كثيرا من اصدقائه واشياخه الذين قرظه منهم ابو حامد البطاوري بقصيدة من ابيات 25 مصدرة بكلمة .

5 ـ « المرقاة في نظم الورقات » نظم فيها الورقات لامام الحرمين عام 1335 ، وقد شرحها بعض اصدقائه، وقرظ عليها شيخه ابو حامد .

6 ـ « زبدة لامية الافعال » تلخيص لها بحذف الشواذ في ابيات 90 نظمها عام 1338 .

7 ـ « التخصيص ، لاحاديث التلخيص » املاه عند ختمه لتلخيص القزويني للمرة الثانية عام 1340 .

8 ـ « مقدمة الرعيل ، لجحفل محمد بن اسماعيل » اي البخاري ، وضعه في التحريض على السنة المطهرة واقتفائها .

9 ـ « مفتاح الصحيح » تناول فيه اسانيده الى صحيح البخاري وتفصيل تراجم رجال سنده اليه المسلسل بالمغاربة والاندلسيين والفقهاء المالكية .

10 ـ « الميزان الفسيح لبسملة الصحيح » حرر فيه تخريج حديث الامر ذي البال المتعلق بالبسملة ، وانفصل على ما للحافظ ابن حجر وغيره من شدة ضعفه .

11 ـ « اخبار البخاري » عقد فيه ترجمة للبخاري على وجه لطيف ، ومنزع طريف ، لا على سنن المؤرخين وارباب التراجم والمعاجم .

12 ـ «رباعيات البخاري» وهو «الفوائد الابداعية، من فوائد وصية البخاري الرباعية » تكلم فيه على وصية البخاري التي يقول فيها : « اعلم ان الرجل لا يصير محدثا كاملا في حديثه الا بعد ان يكتب اربعا مع اربع » الى آخر الوصية التي نقلها القاضي عياض في فهرسته والقسطلاني والسيوطي والمقري في النفح .

وهذه الموضوعات الخمسة كلها املاها المترجم تباعا عند افتتاحه للصحيح اولا عام 1341 .

13 ـ « اريج الزهر ، وتفريج البصر ، بتخريج احاديث المختصر » املاه عام 1343 عند ختمه للمختصر الخليلي بحضور بعض مشايخه ، وخرج فيه الاحاديث الواردة بالمختصر الخليلي تصريحا او تلويحا وعددها 23 حديثا واثر واحد .

14 ـ « اهلة المسترشد ، لادلة المرشد » يحتج فيه لمسائل « المرشد المعين » ـ في الفنون الثلاثة ـ بالكتاب والسنة .

15 ـ « زبدة المرشد » رجز ملخص له الى ثلثه مع حذف ادلة العقائد الكلامية على سنن السلف .

16 ـ « الاشراف ، على اسباب الخلاف بين الايمة المجتهدين » الفه بمناسبة ختمه لرجزية ابن عاصم « مرتقى الاصول » واطال فيه النفس ، ويسمى ايضا « ارتشاف السلاف ، من اسباب الخلاف » او « القول المنتقى ، في ختم المرتقى » ، وقد قرظه العلماء السادة : المهدي الوزاني ، والمكي البطاوري ، واحمد البلغيثي ، وبو شعيب الدكالي ، والرافعي، وابو العباس سكيرج ، والزموري قاضي البيضاء ، ودنية المؤرخ .

17 ـ نظم رسالة محمد بن جعفر الكتاني في كتب السنة ، المسماة : « الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة » .

18 ـ « دليل الجنة من الكتاب والسنة » .

19 ـ « لبانة الاسعاد لبانت سعاد » .

20 ـ « ردع المتكر ، لنجاسة المسكر » .

21 ـ « النفور ، من عواقب وغوائل السفور » .

ومما لا يزال غير تام من مؤلفات المترجم :

22 ـ « اقامة الدليل ، لمختصر خليل » شرح على المختصر الخليلي يستدل لصوره بالكتاب والسنة او القواعد الاصلية ليعلم المنصوص من المستنبط، مع بيان المرجح خلافه والاحتجاج له ، شرع في تاليفه عند تدريسه له اول مرة عام 1339 ، ووصل فيه الى باب الحج واكثره لا يزال في المبيضة والذي خرج منه سبعة كراريس تبتدىء من الاول الى قول المتن « كشكه في يوم عرفة هل هو العيد » آخر باب الوضوء ، ولهذا الشرح اسم ثان وهو « منار السبيل ، لمختصر خليل » فهذه اثنان وعشرون من موضوعات المترجم ، وفوق هذا توجد له رسائل عديدة في املاءاته على ختمات المتون العلمية الاخرى ، كما ان له قصائد شعرية في موضوع النصح والارشاد لابناء وطنه ، وواحدة من هذه القصائد توجد بتمامها في مفتتح الجزء الثاني من « الاتحاف » ومطلعها :

بني قومي افيقوا من منام
وجدوا في المعالي باهتمام

وقد كانت هذه القصيدة كلها ضمن المحفوظات التي يستظهرها الفوج الاول من تلاميذ معهد مكناس عقب تاسيسه .

هذا ولا ادع الحديث عن هذه المؤلفات دون ان اشير الى الروعة التي تتسم بها كثير من عناوينها التي جاءت من النوع المطرب المرقص .

كما اذكر ان لائحة هذه المؤلفات تفيد ان المترجم كان يساوق بكثير منها دروسه في ابان الطلب ثم في مرحلة التدريس ، واذا دل هذا على شيء فانما يدل

على المثالية التي كان يتلقى بها دروسه في طور التعلم كما يدل على مدى الجهد الذي كان يبذله في اعداد دروسه ايام التدريس مما يجعلها دروسا جامعية من الطراز الممتاز ، وبهذا يكون كثير من مؤلفات المترجم تقدم حلقات متسلسلة من بعض دروسه العظيمة .

نباهتـــه

انتدبه المولى يوسف للحضور في مجلس درسه الحديثي ، ثم انتدبه بعد ذلك ابنه جلالة الملك محمد الخامس للحضور في مجلسه الحديثي ثم للتدريس في صحيح مسلم اعوام 1357 وما بعدها ، واعطى دروسا للامراء في المدرسة الملكية بالرباط ، وترأس امتحانات جامعة القرويين مرارا .

اما المناصب الادارية التي شغلها فقد عين عام 1348 عضوا بمجلس الاستيناف الشرعي الاعلى ثم ترقى الى رتبة مستشار ثم صار نائبا لرئيس هذا المجلس ثم رئيسا له ، ومن 19 شعبان عام 1371 اضاف له جلالة محمد الخامس قضاء القصر الملكي ، ثم تخلى عن ذلك كله ابان الازمة المغربية .

وفـاتـــه

توفي عصر يوم الاثنين 25 شوال عام 1378 الموافق 4 مايو سنة 1959 طيب الله ثراه وروح روحه في اعالي الجنان .

تعليـق ختامـي

يستخلص من عرض حياة المترجم : انه احد علماء المغرب الافذاذ ، بما له من المشاركة التامة في كثير من فروع المعارف الاسلامية ، وبما له من التبريز في عدد من هذه الفنون ، وبما له من التخصص الكامل في علوم الحديث ، حسبما يستنتج هذا من العلوم التي درسها المترجم في طور التعلم ، ومن نبوغه المبكر ، ومن الفنون التي اقراها في مرحلة التدريس ، ومن الموضوعات التي كتبها .

وبقي بعد هذا ان نحاول استخلاص مكانة المترجم العلمية من خلال دروسه التي كانت ابرز عنصر في حياته الثقافية ، وهذا ما يحدثنا به احد الملازمين للاخذ عنه وهو الاستاذ الكبير الشيخ محمد المكي الناصري في الخطاب الذي القاه في تابين الفقيد بمناسبة ذكرى وفاته الاربعينية ، والذي سجل فيه ارتساماته عن معارف المترجم ودروسه في القولة التالية :

« ... فقد احاط ــ رحمه الله ــ علما وفهما بفروع عديدة من الثقافة الاسلامية الواسعة النطاق ، وبرز فيها حتى اصبح العلم الفرد الذي يشار اليه بالبنان ، وكان تبريزه بشكل خاص في علوم الشريعة وعلوم الحديث واللغة ، والادب والتاريخ ، ولن يبالغ احد من معاصريه اذا وصفه بانه كان على راس الحفاظ والمحدثين في العالم الاسلامي خلال هذا القرن ، فقد احيا بمجالسه العلمية ، واملاءاته الحديثية ، سنة الحفاظ السابقين ، وتقاليد « الاملاء » العريضة في عصور الاسلام الفكرية الزاهرة .

لقد امتاز شيخنا ابو عبد الله بوفرة الاطلاع وسعة الافق . والمشاركة الدقيقة في عدد لا يحصى من فروع العلم والثقافة ، وكان من شيوخنا القلائل الذين اخذوا من كل فن بنصيب ، وجمعوا بين القديم والحديث جمعا متناسبا لا تنافر فيه ولا اضطراب ، وكانت روح الاعتدال والتوازن غالبة عليه لا تدع للتطرف والتعصب اليه سبيلا .

اما صناعة التدريس ، فقد كان فيها الرائد والخريت الذي لا يضاهى بين الاقران ، وكانت دروسه بمثابة محاضرات جامعية من الطراز الجامعي الممتاز ، يسودها التسلسل والمنطق، وتطبعها السلاسة وحسن البيان ، لا تشويش فيها ولا غموض ، ولا خلط فيها ولا فضول ، وكان يساعده على ذلك ذهن وقاد ، وعقل متزن ، وبديهة حاضرة ، وذاكرة قوية ، ولسان طلق بليغ ، وفن خاص في حسن الاستطراد وحسن الاستشهاد .

وكان ــ رحمه الله ــ مثلا عاليا في ضبط النفس وقوة الاعصاب ، يجلس الساعات الطوال ــ ولاسيما في « ختماته الشهيرة » ــ على حال واحدة ، لا يتحرك ولا يهتز ولا يعبث بشيء من اعضائه او اطرافه ، ولا يغير الهيئة التي جلس عليها من بداية المجلس الى نهايته ، على غرار ما نقله التاريخ عن بعض كبار المحدثين الاولين ، وكان ــ بالرغم من ذلك ــ لا تمل العين مرءاه ، ولا يمل السمع صداه ، فكان نبراسا لتلامذته بعلمه وحاله وسمته رحمة الله عليه .

ولعل استاذنا ـ رحمه الله ـ هو اول العلماء المغاربة المعاصرين الذي كان يلقح دروسه العامة بمعلومات قيمة عن النهضة الاسلامية القائمة في الشرق ، وعن رجالاتها البارزين في ميدان الاصلاح والوطنية والسياسة والادب ، كلما وجد لذلك مناسبة، فقد كان من دابه التنويه بهذه النهضة ، وتعليق الآمال الكبيرة عليها في انهاض المسلمين وتحرير ديارهم ، ولفت انظار طلابه اليها ، واحاطتهم علما بتطوراتها ، مما اثار في نفوسهم النخوة الاسلامية ، واحيى في قلوبهم روح الاعتزاز بالعروبة والشرق ، وبعث فيهم روح الطموح والتحرر ، وحب الاصلاح والتجديد ، وجعل معركة التحرير القائدة في المشرق حاضرة امام اذهانهم دائما .

لقد كان ـ رحمه الله ـ على صلة وثيقة بعصره، عارفا بالشخصيات المعاصرة ، ملما ـ على الخصوص ـ بحياة المشرق الثقافية والادبية والسياسية الماما بالغا لم يكن عند كثير من المشارقة انفسهم ، يعرف رجالات المشرق ، ويعرف اتجاهاتهم في مختلف الميادين معرفة كافية ، ويطلع على آثارهم اولا باول : لا يترك صحيفة ولا مجلة ولا كتابا ورد من الشرق الا ويلم به الالمام الشامل الكامل ، ولا يبخل باشراك تلامذته في ذلك ، بفضل الاشارات والتلميحات والاستطرادات التي كان يتحين لها الفرص ما بين الدرس والآخر ، الامر الذي جعله ـ بحق ـ احد الرواد الاولين لقافلة الشباب الوطني ، وللحركة الوطنية في هذه البلاد » .

وبعــــــد :

فرجائي الذي اختم به هذه العجالة ، هو نشر موضوعات المترجم الصفار ـ تباعا ـ في هذه المجلة وامثالها ، مع التفكير في وسائل نشر المؤلفات الكبار ، ولاسيما شرح النصيحة الجعفرية ، والمخرج من شرح المختصر الحديثي ، والله ـ سبحانه ـ ولي التوفيق.

كثرة الاكل في نظر السلف

ذكر بن عبد البر وغيره ان عمر رضي الله عنه خطب يوما فقال : اياكم والبطنة فانها مكسلة عن الصلاة مؤذية للجسم وعليكم بالقصد في قوتكم فانه ابعد من الاشر واصح للبدن واقوى على العبادة ، وان امرءا لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه ، وقال علي رضي الله عنه المعدة حوض البدن والعروق واردة عليها وصادرة عنها فاذا صحت صدرت العروق عنها بالصحة ، واذا سقمت صدرت العروق بالسقم ، وقال الفضيل بن عياض اثنتان يقسيان القلب كثرة الكلام وكثرة الاكل ، وقال لقمان لابنه يابني لا تاكل شيئا على شبع فانك ان تتركه للكلب خير لك من ان تاكله .

معركة الزلاقة في الميزان

للأستاذ : المهدي البرجالي



بعد تفكك الدولة الاموية في الاندلس وقيام نظام الحكم « الدويلي » المتجسم فيما كان يسمى بحكم الطوائف اضحى الوضع في شبه الجزيرة الايبيرية على شكل لم يكن معه محيص من انقلاب الموازين السياسية والعسكرية لصالح الجماعات او باحرى الجيوش الافرنجية المعادية لوجود العربي في ذلك الصقع المتعرب ، لقد كان للمراقب السطحي في اواسط القرن الخامس ان يحدس دون خشية غلو ان استمرار الكيان العربي في الاندلس لم يعد له من الفرص الايجابية الا قدر محدود جدا ، وان تحقيق امتداد الحياة بهذا الكيان لم يعد قضية يقينية قطعية كما كان يتراءى ذلك في عهود الفاتحين الاول او حتى في عصور المهاجمين — المقاومين من الامويين ومن اليهم ؛ وكان مما اضاف الى هذه الحتمية السياسية قرنها الوقوعية ما كان عليه الوضع في العدوة المغربية قبل انتصاب عهد المرابطين من تفكك وانحلال وما كان يشوبه من ارتباك وغموض .

وليس من الحكمة — كما اقدر — استقصاء جزئيات هذا الوضع بل ولا ما اعقبه لان ذلك لا يرتبط بصميم موضوعنا ارتباطا جوهريا الا ان الذي يعنينا خاصة هو ملاحظة ظاهرة التبادل التأثيري غير المباشر في الموقف السياسي في كل من العدوتين ؛ هذه الظاهرة التي قد تفسر كثيرا من التيارات التاريخية المشتركة بينهما ، وذلك خلال عدة فترات من تاريخهما القديم . فقد كان هناك شبه ارتباط قدري يحدد احيانا — ولو بصورة شكلية — نوع الاتجاه الذي كانت تسلكه الاحداث في المغرب والاندلس ؛ وكان الطريق الى هذا الارتباط يكتسي احيانا صبغة الفتح (دخول الاسلام الى الاندلس) او الغزو (التدخل المرواني في المغرب) او التضامن (التدخل المرابطي في الاندلس) ، ونفضي احيانا اخرى الى مظاهر من التسرب الديني والتمازج الحضاري (الاسلام الاندلسي) او الى اشكال من الاتحاد السياسي والاداري (الوحدة المغربية الاندلسية على عهد المرابطين وغيرهم) . وعلى ضوء هذا الاعتبار يجوز لنا ان نجد بعض التعليل للتغيير الحاسم الذي طرا على الوضع بالاندلس محددا مصيرها لاجيال متعددة بعد ان تغيرت وجهة الاحداث بالمغرب نتيجة التطور السياسي — الحكومي الذي حدد الوضع بالبلاد بعد نشوء الحكم المرابطي . كان من المعقول اذن وقد انتصب في العدوة الافريقية نظام مستقر ومكين — غداة تسلم ابن تاشفين لمقاليد الحكم بالمغرب — ان تفضي الاحوال في العدوة الاندلسية الى ما يماثل ذلك من الثبات والاستقرار ، ولكن نظام الطوائف كان اكبر من عقبة حائلة في وجه هذا الاحتمال السياسي . والذي يمعن النظر طويلا في طبيعة النظام الطائفي في ذلك الوقت يتجلى له مدى ما يمكن ان يكون هناك من صعوبات امام اية بادرة لتحديد الوضع بالاندلس على النحو الذي سارت عليه الامور في العدوة المغربية تحت حكم المرابطين ؛ ولكن ظروفا معينة

ـ لم تكن وليدة الوقت ولم تكن لها صبغة موضعية ، بل انها كانت تتصل بالوضع العربي العام في البلاد ـ هذه الظروف لم يكن لها الا ان تساهم في تعديل مجرى الاموروتوجيهها توجيها اكثر معقولية وواقعية، فقدامكن « للوحدات » الطائفية المتنافرة قبلا ان تتماسك وتنسجم نوعا ما ، وامكن للاتجاهات المتدابرة والنزوات المتناقضة ان تتقارب وتتلاقى لتتبلور في ارادة عربية جامحة ، مقاومة العدو المشترك مقابل اي ثمن كان .

والذي يتقصى حقيقة الامكانيات العسكرية الرهيبة التي كانت تتوفر عليها جيوش « الفونسو » السادس مع ما يقابلها من ضعة وهوان في سلوك المسؤولين العرب وانحلال سياسي واجتماعي «نسبي» في وحدات المجتمع العربي يمكنه ان يدرك بكل يسر حوافز هذه الارادة « الطائفية » التي حدت بالاندلس المسلمة الى الارتماء بين احضان ابناء الصحراء من المرابطين ، واذا كان لنا ان نرسم الخطوط العريضة للموقف السياسي والعسكري في شبه الجزيرة غداة التدخل المرابطي فاننا سنلحظ هذا التقلص المريع في رقعة مناطق النفوذ الاسلامية بعد ان استعاد (الفونسو) طليطلة حيث اصبحت اسبانيا الوسطى تحت رحمة المسيحيين ، بل ان الامتداد الهجومي الاسباني قد اصبح يتخذ شكلا تهديديا اشد وطأة واعمق اثرا ، وذلك حينما تم لجموع (الفونسو) محاصرة سرقسطة حيث قوى الاحتمال بامكانية وقوع القطاعات المتوسطة من اسبانيا تحت طائلة الغارات المسيحية العرمة ، كل هذا بالاضافة الى التضامن السياسي الذي امكن للممالك المسيحية ان تحققه غداة توفقها الى انجاز نوع من الاتحاد اضحت معه كل تلك الاقاليم الصغيرة وهي تشكل قوة سياسية وعسكرية مترامية .

من نافلة القول اذن ان نؤكد ـ بعد ذلك ـ ان الوضع بالنسبة للمسلمين في الاندلس قد اصبح ذا احتمالات انفجارية مهولة بالصورة التي لم يعد معها محيد عن الاختيار بين الانمحاق التدريجي وبين التماس العون الخارجي مهما يحمله هذا العون في تضاعيفه من مخاطر محتملة على الانظمة القائمة آنئذ في البلاد وعلى الرغم من ان مصدره كان يتمثل في دولة فتية وقوية لا تزال « نواياها » الخارجية موضوع الكثير من نقط الاستفهام (دولة المرابطين) ، والكثير من النصوص التاريخية التي تتصل بالموضوع تكاد تتفق على القول بان المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية و « اسير اغمات » كان اشد « الطوائفيين » حماسا للاستنجاد باسير المرابطين يوسف بن تاشفين رغم ما كانت توجه اليه من مؤاخذات على ذلك . وليس هناك ما كان يدعو المعتمد ـ بحق ـ الى التحمس وحده لاستدعاء المرابطين لان اخطار التوسع الاسباني كانت تهدد فعلا كل وحدات الكيان العربي بتلك الديار ، ولان مظاهر الهوان التي كان يصبها « الفونسو » على امراء المسلمين كانت تعمهم جميعهم بدون استثناء ، بل ان بعض هؤلاء الامراء كان يتلقى من ضروب المذلة ما هو اشد قسوة وفظاعة مما كان يوجه احيانا الى المعتمد .

ومع ذلك فقد كان ابن عباد بحق ـ من بين جميع ملوك الطوائف ـ رجل البادرة الاندلسية التي استدرجت ابن تاشفين الى ربوع اسبانيا وقادت المرابطين الى الالتحام مع النصرانية الاسبانية الزاحفة في بسيط الزلاقة ؛ والذي يبدو انذلك راجع الى ماكان يتميز به صاحب اشبيلية من شعور مرهف جعله يحس اكثر من زملائه الآخرين بوطأة الهوان ومرارته وبعي ذلك اصدق الوعي واعمقه ، هذا بالاضافة الى ما كان يغمر نفسية المعتمد من روح التقدير لبعض القيم المعنوية المثالية ، هذا التقدير الذي كان يتمثل في حرصه على الاحتفاظ بحسن السمعة وطيب الذكرى وجمال الاحدوثة ، ونفوره من قساوة احكام التاريخ وانتقادات الاجيال القابلة وكل ما يتناول الشخصية بالتنقيص او التشويه .

وقد كان بدر منه بالفعل ما جعل هذه المشاعر تزداد في نفسه تركزا ورسوخا ، ولهذا فقد اصبح يتملكه الشعور بان عليه واجب التكفير عن الاخطاء الماضية بسبيل من التلبس بروح التضحية والتجرد والكفاح ، وهذا ما يفسر موقفه المشرف في حرب الزلاقة وما ابداه من ضروب الشجاعة فيها وما تحمله من مكاره واهوال في خضمها مما يعتبر كرد فعل نفسي ناشيء عن الشعور بالخطيئة القومية التي كان يقدر انه تمرغ في وحلها من قبل .

وعلى كل فقد انفذت كتب الاستغاثة الاندلسية الى « امير المومنين » يوسف كما شاء المعتمد ان يلقب امير المغرب المرابطي ، والكتاب ـ ان صح نصه ـ ومضمونه على الاقل صحيح ولا ريب ـ فهو يبرهن على مدى الوعي الحقيقي الذي اكسبته الحوادث امراء الاندلس المسلمة حيث دخل الوجود العربي حينئذ في اخطر

مراحل تاريخه وكان من الطبيعي ان تلتقي خطوط التاريخ بعد ذلك فى هذه النقطة الحساسة ، فالعدوتان — كما اشرنا اليه سابقا — كانتا تتبادلان فى كثير من الفترات صنوفا من الاندفاق السياسي والعسكري يشد على التوالي احداهما الى عجلة الاخرى ، وكان الدور هذه المرة دور مغرب ابن تاشفين .

على اننا اذا ما حللنا موقف يوسف ازاء الحالة التي خلقتها رسالة الاستغاثة الاندلسية فاننا نستخلص من ذلك انه كان جانب من التعقيد ، فالحرب مع هؤلاء « الايبريين » لم يكن له بها قديم عهد ، ثم ان الموقف فى جنوب شبه الجزيرة حيث يتركز النفوذ العربي يسوده كثير من الغموض المحير ، فامراء الاندلس لم يكونوا على درجة متساوية من الحماس لهذه « المغامرة » المجازفة ، بل ان البعض منهم كانت تنقصه الكثير من مشاعر الاخلاص لها والثقة فى نتائجها والولاء للقضية التي ترتبط بها ، هذا بالاضافة الى ان تزحلق محور السلطة (وكان يتجسم الى حد ما فى شخص يوسف) الى خارج البلاد لم يكن مما يساعد على زيادة استقرار الدولة او يضاعف من سلطتها ونفوذها الداخلي ، ولعل كل هذه المؤثرات او بعضها على الاقل ساهم فى رسم ملامح هذا التلكؤ والتلبث اللذين بدوا على موقف امير المسلمين غداة اتصاله بوقد الاستصراخ الاندلسي .

الا ان قوة الجاذبية السياسية الاندلسية للمغرب وجلال الموقف من الوجهة الدينية والتاريخية لم يدعا لزعيم المغرب المرابطي مجالا فسيحا للمزيد من التدبر والتريث ، بل كان من شان ذلك — على العكس — ان يقوده اخيرا الى اتخاذ قرار التدخل الذي كان بداية لموقعة حاسمة (نسبيا) فى تاريخ الاسلام باوروبا الغربية .

وموقعة الزلاقة لا تستمد اهميتها فقط من النتائج العسكرية والسياسية العامة التي انبثقت عنها ، بل انها تكتسي بعض الاعتبار كذلك من ناحية المدلول الخاص الذي كان لها ، هذا المدلول الذي برهن على ما للتخطيط العسكري عند الجيش المرابطي من فاعلية ودقة واحكام .

فقد كان ابن تاشفين — كما كان جيشه — ينطوي على الكثير من مشاعر الغيرة والحماس وقوة الايمان والعقيدة ولكن ذلك لم يكن كل ما كان يتوافر للجيش المرابطي من مميزات فقد كانت قيادته (وتتمثل قبل كل شيء فى شخص يوسف) تدرك ان التكتيك الحربي — اذا احسن استخدامه — يكون اعلى قيمة فى بعض المواطن من الشجاعة والحماس المجردين ، ولا شك ان نتائج هذا التفكير كانت اساسا لاختيار الاسلوب المنهجي الذي احتذاه المرابطون ، هذا الاسلوب الذي ينطوي على الدقة فى التكتيك والتناسق فى التحركات والستراتيجية فى اختيار المواقع ، كما يعتمد على عنصر المباغتة المذهلة والتخفي المبيت والمداورة المحيرة بالاضافة الى وسائل الضغط على اعصاب العدو وارباكه بالمفاجئات الطارئة والمناورات المحرجة والنوايا الغامضة .

ولم يكن الجانب المسيحي باقل استعدادا وتهيؤا فقد كان هناك شبه تحالف مقدس ضم فى حظيرته — الى جانب العناصر الايبرية متطوعين كثيرين من اقاليم عدة باوربا الغربية .

والواقع ان عدد المحاربين كان بالنسبة للفريقين مرتفعا جدا ، وليس من السديد هنا ان نتحدث بلهجة احصائية فقد تباينت الروايات فى هذا المجال الى حد الاغراق المسف احيانا ، على ان كل ما يجوز استخلاصه من تضارب الروايات هو الوفرة المديدة التي كانت لدى المتقابلين وان كانت النصوص ترجح ان المسيحيين كانوا اكثر تفوقا فى هذا الميدان . فاذا وضعنا فى الاعتبار بعد ذلك روح الحماسة الدينية المضطرمة التي كانت تذكي نفوس الجميع وطبيعة العقلية النفعية التي كانت تحفز غير قليل من مسلحي الافرنج وخاصة المتطوعين ادركنا مدى ما كان يتوقع لهذه الملحمة المرتقبة من ضراوة فى اللقاء واستمرار فى الفتك وشمولية فى التحطيم وخطورة فى النتائج .

على انه — من جانب اخر نكاد — نتيجة لتباين الشواهد — لا نبلغ مرحلة الجزم فى حقيقة الروح الجوهرية الواقعية التي قادت المحاربين او بعضهم على الاصح الى التلاقي الرهيب على بسيطة الزلاقة ، اما اذا قدرنا ان المسيحيين وخاصة المتطوعين منهم كانوا يستهدفون فى المحط الاول الدفاع عن كيان القومية الايبرية عن طريق العمل على اقصاء العناصر الغريبة عنها ، واذا افترضنا ان الاندلسيين كانوا يقدرون موقفهم على اساس انه دفاع عن الملكية المشروعة المراد انتزاعها قسرا وقهرا ففي اي اطار يمكننا ان نضع مرامي ابن تاشفين من الحملة باعتبار الهدف المثالي الاعلى (مع غض الطرف طبعا عن التعليلات السابقة) بعد ان نلحظ مبادأته العدو — كما

تقصه الرواية العربية ـ بالمقتضيات الاسلامية الثلاثة الشهيرة : الاسلام او الجزية او الحرب ؟ هل كانت غزوة دينية صرفة ؟ ام ان يوسف تدرع بذلك الى اصابة مرامي سياسية بعيدة من تعزيز للقومية العربية في شبه الجزيرة وتامين للاوضاع في منطقة غربي المتوسط .

ارجح الظن ان الامر كان في ذهن الامير المرابطي من الازدواجية والتشابك الى حد الابهام ، فقد كان الامير ينطوي فعلا على الكثير من مشاعر الحماس الديني المضطرم ولكنه لم يكن يجهل بالضرورة ان الامر يتعلق ايضا بصراع مستعر بين كيانين قوميين متمايزين : العربي والايبري ، وعلى هذا فقد كان من الجائز ان تكون مشاعره من هذا القبيل مختلطة مزدوجة حيث انه لم يكن ضروريا آنئذ اقامة الكثير من الحدود الفكرية بين بعض المبادىء والاهداف التي تتصل بهذا المجال ، ومع ذلك فقد كانت تصرفات يوسف خلال الحملة تصطبغ بكثير من الالوان الدينية التي لها اعتبارها (عرض الاسلام على الاعداء) الامر الذي يبيح القول بان الاعتبارات الدينية كان لها في ذهنه ـ وهو يقود الحملة ـ وزن وتقدير له مغزاه ، وعلى كل فقد كان يوسف بعرضه المقتضيات الثلاثة وقبوله مشروع الاقتراح المسيحي في التزام العمل بهدنة موقتة قوامها ثلاثة ايام قبل ان ينشب العراك كان في كل ذلك منسجما مع تقاليد الفروسية العربية واصول الادب والقواعد الحربية الاسلامية ، ولكنه لم يكن هذه الكرة متناسقا كثيرا مع ما كان يتميز به من سبر للاغوار واستطلاع للنوايا ، فقد كادت الاحبولة الافرنجية ان تجوز عليه ، بل انه اوشك ان يتلظى بجحيم عواقبها لولا يقظة سابقة من جانب المعتمد اكسبته اياها خبرة عتيقة باساليب الافرنج الحربية واحتكاك مباشر بخططهم السياسية والعسكرية : لقد كان محددا كيوم للقاء يوم الاثنين 15 رجب 479 هـ (26 اكتوبر 1068) ولكن « ميكيافيلية » الفونسو قضت بان يتم التناجز قبل ذلك بيومين ؟ ووشكان ما اصبحت الملحمة المرتقبة امرا واقعيا عندما باغتت جموع المسيحيين المعسكر الاسلامي الذي كان ـ نتيجة ليقظة المعتمد ـ وكانه على موعد مع النضال .

والواقع ان الروح الوطنية ـ الدينية التي آلفت ـ الا في فترات اخرى ـ بين حشود المسيحيين كانت عاملا فعالا في ايقاد جذوة الحماس في قلوب لم يكن لها من هدف الا سحق قوى العدو واقصاؤه عن التراب الوطني ، ولكن هذه الروح المسيحية المضطرمة لم تغن القيادة الافرنجية ـ هي الاخرى ـ عن اللجوء الى وسائل الغزو المعنوي بطريقة او اخرى مما كان يناسب الاوضاع العسكرية السائدة آنئذ (ومن امثلة ذلك : اثارة الاعصاب بوسائل صناعية كالقرع الشديد على الطبول احيانا) .

واذا كان لنا ان نربط العلة بالمعلول والسبب بالمسبب فانه سيكون في وسعنا ان نعزو لتخطيطات يوسف كثيرا من القيمة والاعتبار بصفتها عاملا اساسيا كان له اثره الفعال في توجيه دفة المعركة لصالح القضية الاسلامية ، فقد لجأت القيادة المرابطية بوحي من يوسف طبعا الى انتهاج طرق تقنية لاشك انها كانت اساسا لتعديل الموقف من اساسه بعد ان بدا يتخذ شكلا خطيرا بالنسبة للمسلمين ، وبعد ان تنمر رجال الفونسو وكادوا يلوون بمصابرة وجلد الجنود الاندلسيين ، ولم تكن هذه الطرق التي اتبعها المرابطون ارتجالية مبتسرة ، بل انها كانت مصممة تصميما دقيقا دل ـ بحق ـ على ما كانت تتوافر عليه قيادة يوسف من نضج عسكري كبير ؛ ومن ذلك :

1) التزام روح السرية والدقة في التخطيط الستراتيجي العام .

2) توزيع المهام والمسؤوليات توزيعا هادفا ودقيقا (الجيش الاندلسي للصدمة الاولى ـ طلائع القوات المرابطية للقيام بدور النجدة والمؤازرة ـ قلب الجيش المرابطي لتطوير المعركة وتامين فرص النصر النهائية فيها) .

3) الاعتماد على وسائل الحرب النفسية في مقارعة الخصم : دور الافيال التي كان يقاتل عليها المرابطون في اثارة الرعب والارتباك في صفوف المسيحيين والتاثير على اعصاب خيولهم .

4) استغلال الطاقات الشعورية الانفعالية عند المسلمين : استثارة مشاعر الحماس الديني والقومي وتوجيهها توجيها هادفا يتفق والاحوال العسكرية التي كانت تسود جو المعركة .

ومع ذلك فمن الضروري الاقرار بان الجانب المسيحي كانت تتوافر له ايضا كثير من العوامل المساعدة والملائمة ؛ ولكي نتصور ذلك جيدا علينا ان نحدد في اطار ضيق عوامل الهزيمة والفوز في هذه

المعركة الحاسمة بالنسبة لهذا الجانب او ذاك ، وعلى ضوء ذلك يمكننا ان نلحظ وجود تكافؤ نسبي فى الفرص والامكانيات والمشاعر عند الطرفين كما تبرهن عليه المقايسة الآتية :

من الوجهة النفسية : حماس ديني مضطرم شعور ملح بان الامر يتعلق بتقرير المصير وتوطيد الكيان ، تآزر العناصر المختلفة تحت تاثير هذه الاحاسيس .

من الوجهة السياسية : توحيد النزعات والاتجاهات السياسية ولو بصورة سطحية .

من الوجهة العسكرية : تنظيم الجيوش ووضع التخطيطات العسكرية الدقيقة .

ولعل فى هذه النقطة الاخيرة بالذات يختل ميزان المقايسة حيث يبدو بعض الاختلاف النسبي بين الفرص المهياة للفريقين ، فقد كان المسيحيون يتوفرون فعلا على اعداد ضخمة من المقاتلين ، وكانوا بذلك يمثلون تفوقا عدديا بالنسبة للجيش الاسلامي ، ولكنه كان ينقصهم الادراك الصحيح للقيمة التي يمثلها التخطيط الستراتيجي الدقيق ، ومن ثم كان مصدر كثير من العوامل التي وجهت سير المعركة ضدهم واصابتهم بالهزيمة والاندحار ، فمنهاج القيادة المسيحية لم يعن واضعوه بمبدا توزيع المهام والمسؤوليات ، بل اعتمدوا اسلوب التظاهر العددي فقذفوا فى الميدان باهم ما كان يتوافر لهم من امكانيات عسكرية دون ان يحتاطوا لما قد يكون هناك من طوارىء واحتمالات ، وكان من عوامل الفوز للقيادة الاسلامية انها لجات الى طريقة معاكسة (طريقة الاحتفاظ بالاحتياطي من المقاتلين الذين يفترض لهم ان يتدخلوا فى الوقت الملائم) فكان ذلك عاملا على استمرار الطاقة فى الهيكل الحربي الاسلامي ونضوبها التدريجي عند القوات المعادية .

فالنصر على هذا الاساس ـ كان فى بعض الجوانب الهامة ـ ذا اصول ستراتيجية تخطيطية اكثر منها اخلاقية او معنوية ولو ان هذا الجانب كان هو ايضا من العوامل المساعدة الهامة .

وعلى كل فقد افضت الواقعة الى نهايتها ، وكانت هذه النهاية قاسية مؤلمة بالنسبة للمسيحيين المندحرين ومن ثم فقد كان من الطبيعي ان تخلق فى المعسكر الاسلامي جوا نفسانيا ملؤه الشعور بالاعتزاز والشموخ وقد تجسم ذلك بالفعل فى تظاهرات دينية وشعبية رجت اصداؤها شبه الجزيرة والشمال الافريقي ، بل جاوزت ابعادا اناى من ذلك بكثير .

وان من يتفهم الجو النفساني القاسي الذي كان يعيش فيه المسلمون الاندلسيون قبل المعركة وما اعقبه من انفراج بعدها يمكنه ان يستسيغ او على الاقل يجيز كل هذه المغالاة فى النكاية بالاعداء وتقدير النتائج المترتبة عن هزيمتهم تقديرا متطرفا فى التفاؤل ، والواقع ان ظاهرة التفاؤل هذه لم تفتأ تجتاح جميع الاوساط الاسلامية بشدة منذ ان لاحت بوارق الظفر للجيش المرابطي فى الزلاقة ، وقد كان لهذا التفاؤل ـ بحق ـ بعض ما يبرره ، فعلى الرغم من ان المعركة لم تؤد حقيقة الى التمكن من معاقل العسكرية الاسبانية وتدمير الطاقة الاسلامية الممدة لها ـ فقد كان لها من التاثير غير المباشر ـ مع ذلك ـ ما حدا بالباحثين فى مختلف العصور الى اعتبارها من احداث التاريخ الحاسمة ومعالمه البارزة الهامة ، فقد وضعت من حيث الاعتبار السياسي الصرف حدود تيار تاريخي كان المفروض ـ لو تم له الوصول الى نهايته ـ ان يفضي الى تغيير كثير من معالم تاريخ العصر الوسيط كما نعرفه اليوم ، ويقلب كثيرا من الاوضاع التاريخية التي تتصل بعالم ما قبل العصر الحديث ، فقد كان من الجائز مثلا ـ لو تمت الغلبة الساحقة للافرنج فى سهل الزلاقة ـ ان يرتد المرابطون بعد وقائع دفاعية اخرى الى المغرب ليحضروا استعدادات حملة هجومية جديدة ، ومما كان يعزز هذا الاحتمال ان جنوب شبه الجزيرة لم يكن كله خالصا للمسلمين فقد كانت بعض الاقاليم منه ولاسيما فى الناحية الغربية ـ كالبرتغال مثلا ـ لا تزال توجد تحت نفوذ عناصر مسيحية غير مسؤولة احيانا وذلك ما كان من شانه ان يزيد فى حراجة موقف المرابطين وهم فى حركتهم التقهقرية المحتملة . اما الاوضاع التي يجوز ان تنشا عن كل ذلك فتتمثل فى امكانية قيام حالة عسكرية خطيرة لم يكن لها الا ان تهدد « الوجود » العربي فى شبه الجزيرة وتاتي على آخر مظاهره فى نهاية الشوط ، وحينذاك لايصبح امام المرابطين فيما لو عاودوا الجولة مع القوى المسيحية الا فرصا ايجابية ضئيلة لتحقيق انتصارات « مسرحية » كما كان الشان فى واقعة الزلاقة ، بل انهم قد لا يجدون فى شبه الجزيرة حينذاك موطىء قدم امين يمكنهم من شن حملات منظمة ومامونة الظروف ، وقد تمتد ـ مع ذلك ـ محاولات « النزول » المغربية فى البر الايبري ، وقد يستفحل التهديد المغربي للشواطي والاقاليم الجنوبية الاندلسية ولكن الاضطرابات السياسية التي خلقتها دعوة ابن تومرت فى المغرب لم يكن لها الا ان تساعد على التخفيف من هذا الضغط المغربي المحتمل .

ومع ما كان يتوافر عليه النظام الموحدي ــ بعد ذلك ــ من عناصر القوة والاقتدار ، فانه كان من العسير عليه جدا ان ينجح ــ الا بمعجزة ــ فى اعادة فتح حقيقي وحاسم ، وشاهد ذلك ما ينطوي عليه موقف السعديين بالنسبة الى الاندلس من مدلولات عميقة لها قيمتها الاستدلالية الاستنتاجية ، فقد برهنت السلبية الواضحة التي تميز بها موقف السعديين من الاندلس بعد اقصاء العرب عنها بالمرة ان سياسات اعادة الفتح فى هذا القطر ليست شيئا مضمون النتائج وميسور المنال ، ان هناك بحق كثيرا من الفوارق الهامة بين عصر الموحدين والسعديين سواء من حيث الاحوال الداخلية : (قوة بناء الدولة الموحدية بالنسبة للدولة السعدية) او من حيث الظروف الخارجية الدولية : (تطور الاوضاع الدولية العامة فى اوربا وبروز الدولة العثمانية القوية) ولكن هذه الفوارق كلها لا تستطيع ان تقوم دليلا حاسما على ان الموحدين كان يمكنهم ان يكونوا اقدر من السعديين على اعادة فتح الاندلس Reconquête فى حالة ما لو تم اقصاء العرب عنها كما حدث فيما بعد على عهد الوطاسيين

نستطيع ان نرى من كل ما تقدم ان هناك كثيرا من اوجه الصواب فيما اعتاد الباحثون المحدثون ترديده من ان انتصار الزلاقة قد ضمن للاسلام وجود اربعة قرون اخرى فى شبه الجزيرة الايبرية ، ورغم اننا لا نعتمد كثيرا مثل هذه الاطلاقات المجردة فاننا ــ مع ذلك ــ لا نستطيع ان نرى فيها تأكيدا فاسدا بالمرة ، وذلك اذا وضعنا فى الاعتبار ولو قليلا مما سلف من الاحتمالات والتخمينات .

*

هذا ومن البين ان نتائج المعركة لا يتحتم مطلقا ان تنحصر فى ارتباطها باستمرار الوجود العربي فى شبه الجزيرة ، بل اننا اذا تأملناها من جانب آخر فاننا نرى انها قد ساعدت على خلق اوضاع دولية جديدة فى غربي المتوسط لم يكن للمنطقة بها عهد منذ بعيد ، فقد كانت الحراب والسهام التي قذفها فرسان المرابطين فى الزلاقة بداية عصر جديد للحياة السياسية بالاندلس افضى فى النهاية الى تمركز النفوذ المرابطي وبالتالي المغربي فى شبه الجزيرة وذلك على حساب الانظمة الطائفية التي كانت لها من قبل ازمة الحكم بجنوب البلاد والتي كانت ــ على مالها من مثالب ــ تمثل الشخصية الاندلسية الصميمة وخاصة فى بعض الاقاليم ، وعلى هذا الاساس فقد نشأ شكل جديد للعلاقات المغربية الاندلسية اصبح فيما بعد صورة مناقضة للشكل الذي كانت عليه هذه العلاقات فى عهد المروانيين ، فقد كان الصراع الناشب آنئذ بين هؤلاء وبين الدولة الفاطمية الناشئة بالقيروان والمنافسة المستمرة بينهما على امتلاك المغرب ــ كان ذلك سبيلا الى ربط عجلة هذه البلاد بالسياسة الاندلسية فى كثير من الفترات ، وبتعبير مغاير ؛ فان الحاكمية والمحكومية التي كانت تميز بعض فترات العلاقات بين المغرب والاندلس فى اواخر عهد المروانيين والتي كانت تشد هذه البلاد احيانا الى ركب الدولة المروانية كولاية محتلة وتابعة ــ قد انبعثت فى صورة معاكسة حيث اصبحت العدوة الاندلسية تدور فى فلك السياسة المغربية وتتأثر بها تأثرا عميق الاثر وواسع المدلول .

ومن الملاحظ ان التبعية الاندلسية للمغرب فى شكلها الجديد لم تكن ذات مظهر مضطرب ومرتبك كما كان عليه الامر غداة اقدام المروانيين من قبل على غزو هذه البلاد ، فقد كان حكم هؤلاء للمغرب عبارة عن فترات متقطعة وغامضة لا تتميز بمدلولات سياسية ودولية بعيدة المدى ، اما النفوذ المرابطي فى الاندلس فقد كان اقوى مظهرا من ذلك وابعد اثرا لانه كان ذا نتائج سياسية عميقة المدلول (استمرار التبعية الاندلسية للمغرب احقابا طويلة) ولانه كان اكثر استقرارا وتمكنا ورسوخا ، وهذا يقودنا الى ملاحظة الظاهرة التاريخية الهامة التي يبدو معها التدخل المغربي ــ وقد اكسبته قوة الاستمرار معركة الزلاقة ــ خطوة اساسية فى بناء الامبراطورية المغربية تلك التي كانت تمتد ــ فى فترات متفاوتة ــ الى حدود ليبيا شرقا وتتاخم المناطق الاستوائية الافريقية جنوبا وتطل على جبال (البرني) عبر الاراضي الاسبانية ــ شمالا وتكاد تتسع اكثر من ذلك لو لم يقف امامها الاوقيانوس العملاق .

*

على ان معركة الزلاقة كان من الممكن ان تكون لها نتائج مباشرة وملموسة اكثر وضوحا من ذلك لو اعتبرت كمرحلة نضالية اولى فقط وكجزء من حملة عربية عامة متتابعة الخطوات وبعيدة المرامي والاهداف ، فقد كان من الجائز فيما لو قدرت على هذا الاساس أن يتم ــ ولو بصورة تقريبية ــ سحق الطاقة العسكرية الاساسية للقوات المسيحية الشمالية الامر الذي كان

من شانه ان يحيل الوضع العربي العام الى ما كان عليه في عهد المرواتيين ان لم يجاوزه بكثير ، ولكن شيئا من ذلك لم يتم الى حد يكاد يثير كثيرا من الريب حول القيمة الحقيقية المباشرة لهذه المعركة ، والواقع انه لو لم تكن لها تلك التاثيرات البعيدة في اعماق التاريخ لما كان — في مستطاعنا — لهذا السبب — ان نتحدث باعتبارها من الوقائع الحاسمة في امتداد الحياة بالعروبة والاسلام في منطقة غربي اوربا ، ويكاد يكون من الانصاف القاء التبعة في ذلك على يوسف لو لم يكن هناك ما يبرر سلوكه الذي حدده — كما يبدو — ما جد على الموقف الحكومي في مراكش نتيجة لوفاة ابي بكر ابنه وخليفته في افريقيا وما اعقب ذلك من فراغ في السلطة المركزية لم يستسغه امير المسلمين كثيرا واضطره بذلك الى الرجوع السريع المغرب . ان تعليلا من هذا النوع قد يكون كافيا لتقدير الظروف التي اجبرت يوسف على هذا الرجوع ، الا ان الاحوال العامة في المغرب لم تكن من الحراجة والسوء بالدرجة التي كانت تدعوه الى اتخاذ بادرة حاسمة ومليئة بالمحاذير من مثل هذا النوع ، فالاوضاع في العدوة الافريقية على العموم كانت على نسبة عالية من الهدوء والاستقرار ، والآثار النفسية الجميلة التي خلفتها اصداء معركة الزلاقة في افريقيا لم يكن من شانها الا ان تساعد على امتداد ظل هذه الاحوال الهادئة المستقرة ، وعلى الرغم من ان اختفاء شخصية من صنف ابي بكر كان من الممكن ان يكون له اثره النسبي نتيجة لما للاشخاص احيانا من تاثير على استقرار الاحوال واضطرابها فان النفوذ المعنوي الذي كان ينعم به يوسف لم يكن يبيح ولاشك امكانية وقوع ارتجاجات محتملة نتيجة لهذا الحادث .

ومهما كان الامر فان قرار الرجوع الذي اتخذه يوسف لم يكن بادرة موفقة من حيث الاعتبار العسكري الصرف وان كانت له حسناته من وجهة النظر السياسية والنفسية ، فعلى الرغم من ان هذا القرار كان يوحي بكثير من مشاعر الاطمئنان للراي العام السياسي بالاندلس ويساعد على زيادة اقرار الاحوال بالمغرب فانه — مع ذلك — قد ساهم في التقليص من النتائج العسكرية المباشرة لوقعة الزلاقة واعان على تطور الاوضاع الناشئة بعدها تطورا لم يكن يتوقعه الكثيرون ، وقد كان من نتائج هذا التطور :

1) تمكن القوات المسيحية من التغلب على الآثار النفسية القاسية التي خلفتها المعركة .

2) نجاح « الفونسو » في استثمار الفرصة الثمينة واسراعه باعادة تنظيم قواته وامدادها بالطاقة ووسائل المنعة .

3) خبو روح الحماس وكسوفها تدريجيا في نفوس المسلمين بعد ان الهبتها مواقف النضال في الزلاقة .

4) مساعدة ذلك على تجدد ظواهر الانقسام السياسي الطائفي في الاندلس المسلمة وتعفن الجو الحكومي مجددا بين ربوعها .

ولا شك ان يوسف كان يدرك كل هذه الملابسات والاحتمالات ويعيها وعيا عميقا ، ومع ذلك فيظهر — عند ما اتخذ قرار الرجوع — انه كان على ثقة من قدرته على التغلب عليها اذا ما اقتضى الحال ذلك وبعد ان يتم له ملء الفراغ الذي خلفته في المغرب وفاة ابي بكر خليفته ، هذا بالاضافة الى انه كان يبدو شديد الحرص على فسح المجال امام مسلمي الاندلس ليمارسوا شؤونهم بانفسهم ويتموا تصفية مشاكلهم السياسية الداخلية بايديهم ولهذا فقد بادر بعد ذلك وحينما اقتنع بضرورة التدخل من جديد — الى اعادة الكرة على الاندلس ولكن — ولو كان قد توفق هذه المرة في القضاء على انقسامات المسلمين فيها — فانه لم يتمكن من تحقيق انتصارات عسكرية على مسيحييها من صنف التي احرز عليها في سهل الزلاقة ، ويلوح ان تطور الاوضاع العسكرية عند المسيحيين والاعباء السياسية التي القاها على كاهله توحيد النظام السياسي للمسلمين — بالاضافة الى نضوب معين نشاطه نضوبا تدريجيا — بسبب الشيخوخة — يلوح ان كل ذلك او بعضه كان من الاسباب التي عاقته عن تحقيق بقية امانيه الكبيرة : هذه الاماني التي تتمثل في العمل على سحق الطاقة العسكرية المسيحية سحقا حاسما والتي لم تكن معركة الزلاقة الا صورة من صورها المرحلية الاولية .

*

وكما انه كان للمعركة — التي هي اهم مظهر للتدخل المغربي في الاندلس — نتائج سياسية وعسكرية معينة، فقد كان لها كذلك ذيول لا تقل اهمية من وجهة النظر الاجتماعية والانسانية ، فقد ساعد نزول ابناء الصحراء في الاندلس — موطن المدنية الاصيلة — على نشوء

حالات اجتماعية جديدة تميزت بعمليات تلقيح حضاري للجماعات الافريقية المتخلفة تلك التي تتمثل في عناصر لمتونة وما في حكمها ، وليس من السديد هنا ان نؤكد ان ذلك كان نتيجة مباشرة لواقعة الزلاقة بل انه كان ثمرة التدخل المرابطي العام الذي لم تكن المعركة النضالية الا نقطة انطلاق كبرى له ، ولهذا فيبدو غير معقول جدا ان نتحدث — في هذه الحالة — عن انقلاب حضاري مسرحي او تطورات اجتماعية انسانية سريعة في حظيرة المجتمع اللمتوني نتيجة الحملة المغربية على الاندلس تلك التي افضت الى موقعة الزلاقة ، ومع ذلك فاننا نستطيع ان نؤكد ان العناصر الواعية من اللمتونيين امكنها ان تتفهم — الى حد ما — قيمة الحضارة الاندلسية وتتاثر بها تاثيرا تتفاوت نسبته وتختلف صوره ونتائجه ، ولعله ما اعتبره ابن تومرت بعد ذلك انحلالا اجتماعيا وانتكاسا خلقيا كان من نتائج احتكاك المغرب المرابطي بالاندلس الطائفية ، هذا الاحتكاك الذي تمت بدوره الاولى في سهل الزلاقة وتطورت بعد ذلك تطورا ملحوظا .

وملاك القول فان الهالة التاريخية الفخيمة التي تحيط بذكرى الزلاقة وتميزها عن كثير من المعارك التي كانت اشد ضراوة وشراسة — تعود في الدرجة الاولى الى مساهمتها في تثبيت قواعد الوجود العربي بالاندلس لمدى احقاب متطاولة وخلقها — فيما بعد — جوا جديدا من الاحتكاك بين ساحلي المتوسط : الشمالي والجنوبي ومساعدتها على نشوء حالات من التفاعل الحضاري النسبي بين العدوتين واعانتها على قيام اوضاع سياسية جديدة في غربي الحوض مهدت فيما بعد لتشكيل ملامح الصورة الضخمة التي كانت عليها الامبراطورية المغربية في العصر الوسيط .

من ينبغي اجتنابه في نظر الحسين بن علي

قال ينبغي للمرء ان لايصاحب خمسة : الماجن ، والكذاب ، والاحمق ، والبخيل ، والجبان ، فاما الماجن فعيب ان دخل عليك وعيب ان خرج من عندك لا يعين على معاد ويتمنى انك مثله ، واما الكذاب فانه ينقل حديث هؤلاء الى هؤلاء ويلقي الشحنة في الصدور واما الاحمق فانه لا يرشد لسوء يصرفه عنك وربما اراد ان ينفعك فيضرك فبعده خير من قربه ، وموته خير من حياته ، واما البخيل فاحوج ما تكون اليه ابعد ما تكون منه ففي اشد حالاتك يهرب ويدعك .

ما قاله التاريخ عن

مدينة المحمدية الحديثة و مدينة المحمدية القديمة

للاستاذ عبد الهادي التازي



على بعد سبعين كيلومترا جنوب غربي الرباط عاصمة المغرب الادارية ، تقع مدينة صغيرة عرفت فى تاريخ المغرب القديم تحت اسم فضالة ، لكنها امست اليوم تحمل اسم « المحمدية » وهي تستعد لمستقبل اقتصادي زاهر باستئثارها ــ من بين سائر المغرب ــ باكبر معمل لانتاج النفط وتكريره ، تابع لشركة « سمير » المغربية الايطالية فماذا يمكن ان نعرف عن فضالة او المحمدية الجديدة ؟

ان المصادر التاريخية التي نتوفر عليها تتضافر على انها من الاماكن القديمة ، وان ميناءها الحصين والمهم كذلك قصد منذ ايام بني مرين اي حوالي القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلادي ، فلقد حلت به على هذا التاريخ فئة من التجار المسيحيين الذين وردوا عليه من ايطاليا اي مدينة جنوة ومدينة فونيز وردوا عليه عن طريق البحر الابيض المتوسط ، ونزلوا المرسى حيث استوردوا القمح والشعير وبعض الفواكه الجافة (الزبيب والتين) .

ويعتقد بعض المؤرخين الافرنج ان هذا الميناء احتل من طرف بعض الدول الاوروبية بعيد ذلك ايام الغزو البرتغالي لبعض الشواطىء المغربية ، وخاصة مدينة انفا (الدار البيضاء) سنة 874 (1469/1470) واستمر هذا الاستيلاء ــ يقول المصدر الافرنجي ــ زهاء قرنين من الزمن ، بيد ان الذي تؤكده الاصول التاريخية المغربية ان فضالة ظلت بعيدة عن كل استيلاء اجنبي ، وكل ما فى الامر ان عاهل المغرب على ذلك العهد ــ ويتأكد لدي انه من الوطاسيين ــ اذن لنفر من التجار بمباشرة نشاطهم الاقتصادي فى مقابلة عوض ، واعطاهم الحرية فى اقامة بعض البناء داخل القصبة العربية ، ولعل فى هذه الفترة تم تشييد البناية البرتغالية التي تحتفظ المدينة باثرها الى الآن . وفى القرن الحادي عشر الهجري (السابع الميلادي) جهز الميناء فى بعض الظروف سفنا من اجل شن الغارات والقرصنة كذلك .

ولدى شهر رجب 1186 (سبتمبر اكتوبر 1872) اتجهت انظار السلطان سيدي محمد بن عبد الله الى مدينة فضالة ، ونحن نعلم سلفا طموح هذا العاهل لاستغلال خيرات البلاد ، وهكذا نراه ــ بعد ان يزود المدينة بمسجد لاقامة الشعائر الدينية ــ يتجه الى السوق التجاري ليشيد دكاكين فسيحة يزاول فيها التجار المسيحيون واليهود كذلك نشاطهم التجاري ، ومن الوقوف على ميزانية الدولة على عهد هذا الملك العظيم نعرف ان الجبايا كانت تبلغ ــ من ميناء فضالة فقط ــ فى هذه الايام خمسة الاف وثمانمائة وثمانية وسبعين ريالا ، واثنين وثمانين جزءا . بيد ان هذا النشاط لم يلبث ان تقهقر موقتا بعد وفاة السلطان محمد الثالث هذا .. تلك هي فضالة بالامس او المحمدية العلوية ، فماذا تكون المحمدية القديمة ؟

لقد عنيت الوثائق التي تهتم بامر النقود القديمة بتحديد الاماكن الجغرافية للمعامل التي ضربت فيها تلك النقود ، وكانت هذه العناية دون شك باعثا لرجال البحث على تتبع الامور على ما يجب وقد كان مما اثار الانتباه فى هذا الصدد وجود قطع نقدية اربعة تحمل جميعها اسم « المحمدية » .

الاولى ترجع لتاريخ 1002 هجرية (1593/1594) وقد نقش عليها : « الحمد لله رب العالمين . ضرب بالمحمدية حاطها الله عام اثنين والف . ابو العباس احمد المنصور بالله » .

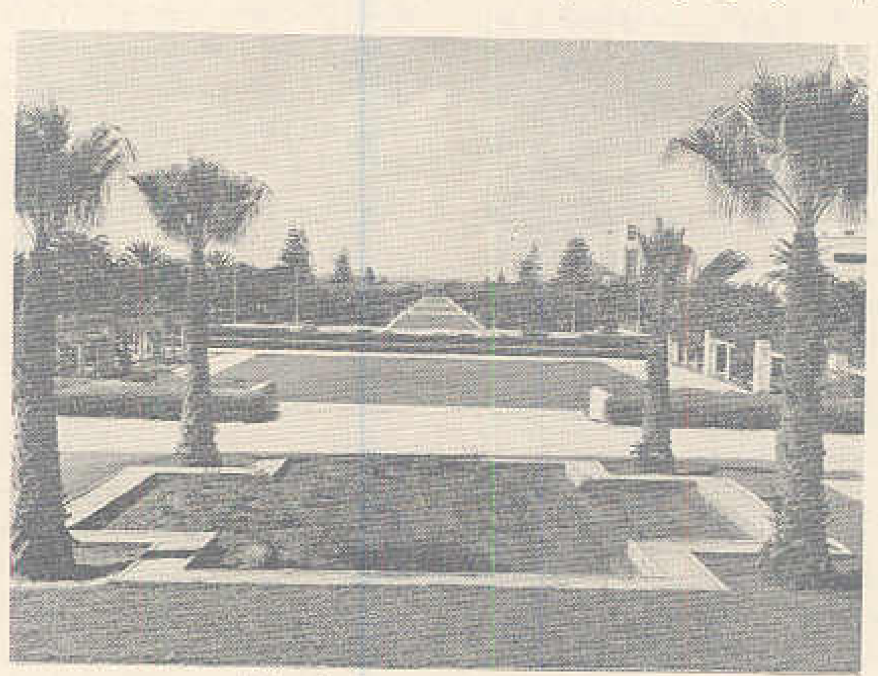
والثانية ترجع لنفس التاريخ بيد أن بعض ما نقش عليها لا يتحد مع جميع ما نقش على الاولى ، لقد كتب فيها : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا . بسم الله الرحمن الرحيم عبد الله الامام ابو العباس احمد المنصور بالله ابن الامام ابي عبد الله محمد الشيخ المهدي بن الامام القائم بامر الله .

ضرب بحضرة محمدية حاطها الله عام اثنين والف » .

اما القطعة الثالثة فتحمل تاريخ 1006 هجرية (1597/1598) وقد نقش عليها ما يلي : « انما يريد الله .. الآية . بسم الله الرحمن الرحيم . عبد الله الامام ابو العباس احمد المنصور بالله امير المومنين ابن الامام ابي عبد الله محمد الشيخ الخليفة ابن الامام القائم بامر الله الشريف الحسني . ضرب بالمحمدية حاطها الله عام ستة والف » .

وتحمل الرابعة رقما ضائعا بعد الالف ، وقد نقش عليها ما يلي : (بسم الله الرحمن الرحيم . عبد الله الامام ابو العباس احمد المنصور بالله امير المومنين ابن الامام ابن عبد الله محمد الشيخ المهدي ابن الامام القائم بامر الله الشريف الحسني انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ، الآية .. ضرب بالمحمدية حاطها الله عام ...والف) .

فاين تقع « المحمدية » السعدية ؟ لقد كانت هي بالذات مدينة تارودانت التي تقع جنوب الرباط على بعد خمسمائة وستة واربعين كيلومترا ، والتي ظلت نحوا من عشرين سنة عاصمة للسلطان محمد الشيخ مؤسس الدولة السعدية ، ولقد اكد هذا علماء تارودانت بصفة لا تحتمل الشك بل وان كتب التاريخ تحتفظ برسالة مؤرخة فى 11 ربيع الاول 1011 (فاتح سبتمبر 1602) تنص على اسم الحضرة المحمدية التي يقصد بها ــ بكل تاكيد ــ مدينة تارودانت التي جعل منها المرينيون عاصمة لبلاد السوس ، والتي عن طريقها عزز المغرب ــ فى الماضي ــ صلاته التاريخية بممالك السودان .



من حدائق (المحمدية) الحديثة



الشباب ! كلمة ضخمة فخمة ! ان فاتها وقـار لفظ الشيخوخة وما فيه من دلالة على الحكمـة والرزانة والخبرة والتجربة والروية وامعان النظـر للصدق فى الحكم والاصابة فى الهدف ، فقد اعربت عن الفتوة والنشاط والعزيمة والحماس ، والحيويـة المتوقدة ، وتفتح الملكات الخام لتلقي ما فى الحياة . بل لاستيعاب الحياة وعبها عبا .

فالشباب من الامة كالربيع من العام . فهـو زهرتها اليانعة . وثمرة غرسها الذي تتعهده بالسقي خلال سنين . وذخرها القوي تعده لمستقبلها . وعدتها التي تدفع بها فى صدر الخطوب . وهو جمالها وقوتها وهو آمالها المرتجاة . وغدها المرتقب . ان صلح صلحت به . وان طلح شقيت به . ونظرة ـ ولو عابـرة سطحية ـ الى قديم التاريخ وحديثه ، والتفاتة ـ ولو خاطفة سريعة ـ الى حركات الامم والشعوب . تكفيك لان تلاحظ فى يسر المكان السامي المرموق الذي يتخذه الشباب فى مصاف الامكنة ومراتبها. فلقد اصطفى الانبياء من الشباب أخدانا . وجعل منهم المصلحون اعوانا . وارسلهم زعماء الشعوب وقادة الحركات لسانـا . فكانوا فى كل امر ولكل حال قلوبا واعية. وآذانا مصغية لتلقي الدعوات ونشرها . ولنقل المبادىء واذاعتهـا والنضال دونها . والسعي لاقرارها. والعمل على العمل بها بما امتاز به الشباب من حماسة وحرارة واخلاص فى العقيدة واستمساك بالراي والنظر .

الا ان الكمال لله ! فان للشباب عيوبا كمـا ان للوردة شوكا !

ولعل اوضح عيوب شبابنا ، نحن ، واكبرهـا واجدرها بالعلاج فيما يبدو لي هي :

1 ـ اهماله للواجب .

شبابنا يطوح بالواجبات جانبا لسبب متنـاه فى البساطة فيما أرى . وذلك هو أن هذا الشباب لا يشعر بالمسؤولية . لذلك فهو من ثمة لا يشعر بان عليـه واجبات . بل ان من شبابنا من لا يلتفت حتى الـى واجباته نحو نفسه . فتعم فى حياته الفوضـى . وينتشر فى جوانبها الاضطراب . فتنتج عن ذلـك الحيرة وتعشى عينه عن تبصر معالم الطريق .

فحبذا لو اختط شبابنا لنفسه ورسم لمشاريعه هدفا . وحسب لقدمه خطاها. فتبين ما يريد. وعرف ما يبغي فسعى لتحقيقه . وهذا ليس صعبا ولا شاقا عليه . فالمسألة فيه كما هي فى غيره مسألة ارادة لا اكثر ولا اقل . يقول المثل الفرنسي : « اذا اردنـا استطعنا » . والشرط فيه بعد، هو الشعور بالمسؤولية فالحياة لم تخلق عبثا . ولم نوجد فيها لناخذ بالجانب اللين السهل منها . وان كنا نود هذا جميعا قلما يتاح ان لم نقل انه لايتاح الا بالعمل والكفاح فى سبيله احيانا كثيرة كفاحا ثقيلا مضنيا ليسلس قياده . ويطـوع عنانه . ولعل كبت الرغبات الجامحة وقمعها ان يتصل من هذه الملاحظة بسبب . فان فورة الشباب وغليان الغرائز فى دور المراهقة حري ان هو لم يجد ما يحده . وان هو لم يوجه التوجيه الصالح . وان هو لم ينظم . بان يقود الى اوخم العواقب ويسفر عن اقبح النتائج .

فيجب اذن ان يكبح شبابنا رغباته وان ينظـم سبيل ارضائها . ووسيلة التنفس عنها . فعنـد الابيقوريين انفسهم وهم اصحاب مذهب اللـذة فى الفلسفة القديمة ان الانسان لا يستطيع ارضاء شهواته

كلها وان كانت السعادة عندهم تستخلص من ارضائها. لذلك فهم يذهبون الى ان يحد الانسان شهواتـــه اي يحصرها ويضيق مجالها . وبذلك فقط يحقـــق السعادة .

على ان اللذات عندهم ــ عند زعيمهم ابيقور على الاقل ــ ليست هي لذات الجسم وحدها . اي اللذات الحسية . بل انها لكذلك وقبل ذلك للذات الروحيـــة المعنوية العقلية التي ترضى ملكات اخرى في الانسان غير ملكاته وطاقاته المادية المحض . فيجب ان يلتفت لهذا من مذهبهم وفي كلامنا . فانت مثلا قد تشتهـــي التمتع من منظر حسن مونق او الاستفادة من خاطر جميل صقيل . لكنك لو ذهبت تحاول تحقيق كل ما تشتهي لاخطات تحقيقه ولعدت بالحسرة والخسارة . بـــل وبالالم الذي سعيت في ان تتجنبه وتتلافاه .

هذه واحدة .

2 ــ اما الثانية فهي العصيان في البيت وفي المدرســـة

ينسى شبابنا او يتناسى ــ انقيادا منه لرايه ، واعتدادا بنفسه واغترارا باحلامه ــ ان للكبير عليه حق الاحترام . وان هذا الكبير ــ في المنزل كان كابويه ام في المدرسة كاساتذته ــ اخبر منه بالحياة لانه اسبق منه اليها ، فهو لذلك قد استفاد منها تجارب لما تتح بعد له، وتلقى عن الطبيعة والناس دروسا لم تحصل بعـــد للشباب الغر الذي ما عدا ان خطا خطوته الاولى في هذا العالم . والمثل العامي صادق كل الصدق في قوله « من فاتك بليلة فاتك بحيلة » .

لذلك فنسيان الشباب او تناسيه لهذه الحقيقة يجعله يتمرد على اسرته فيرى خطأ ما توجهه اليـــه وتؤثره له ، وعلى مدرسيه فيعتبر ارشادهم لغوا لايلبث ان يسوس عقله منه كما يسوس جلبابه من الغبـــار . فتكون النتيجة الحتمية لهذا ان ينشا معوج السبيل . منحرف القصد . لا يعرف صحيح امره من خاطئه او على الاصح يعتبر خاطىء هذا الامر صحيحا بحيث يجني بذلك على مستقبله . ويكون كلا على امته وعبئا على غيره .

لذلك يحسن بشبابنا ويجدر ، ان يحلوا توجيهات آبائهم وذويهم وارشادات اساتذتهم ومدرسيهم محلها اللائق من العناية والرعاية وان ياخذوا بها في مختلف شؤونهم . فذلك فوق انه اجدر بهم واجدى عليهم ، يتمشى مع ما أمر به الدين الكريم في هذا الصدد .

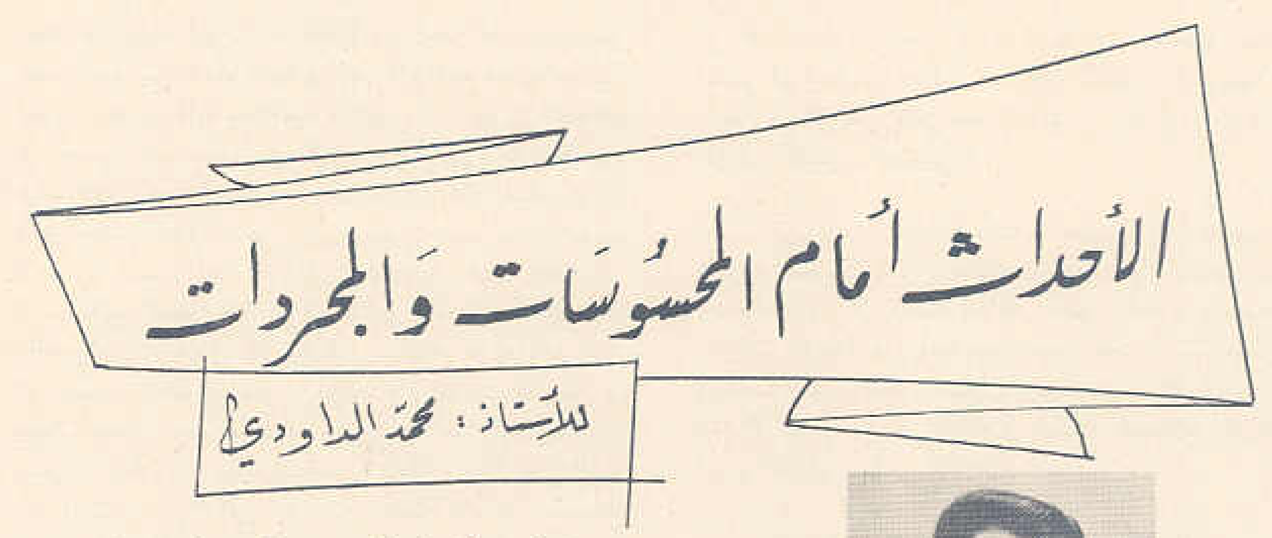
وعلى ذكر الدين ننتقل الى العيب الثالث وهو :

3 ــ اهمالـه الديـــن

وهنا نلاحظ ان رعاية التعاليم الدينية في تصرفات الشباب وفيما ياتي من عمل . ضعيفة واهية ان لـــم نقل ان اعماله تنحسر عن كل مسحة دينية . فلقد نأى الشبـاب بجانبـه عن الشعائـر الدينية كالصلاة مثلا. وابتعد كثيرا عن الالتزام بأوامر الدين والتحاشـــي لنواهيه . غير ان مرجع ذلك فيما اعتقد الى البيئة التي تكتنف الشباب ويعيش في محيطها . والمنزل منها بنوع خاص . والحقيقة اننا نظلم الشباب كل الظلم ان نحن القينا عليه كل المسؤولية في هذا الصدد . فمما لايقبل جدلا ان القدوة الصالحة للشباب ابواه . فالشباب منذ الطفولة يكون سريع المحاكاة لابويه ، سهل الانطباع على ما يعودانه عليه وعلى ما يبدو له من سلوكهما . وهـل ينتظر عاقل من شاب شب في احضان ابوين غير متدينين او غير امينين ان ينشا متحمسا لمباديء دينه مستمسكا بالاخلاق القويمة ؟ نعم ان من الآباء لمن يامرون ابناءهـم بالفروض ويزجرونهم عن النواهي. لكن ذلك يكون منهم بصورة مجردة اعني من غير ان يكون عملهم هم في ذلك قدوة تحتذى بحيث ان الطفل يسمع منهم ما لا يراه فيهـم فليعرف الآباء والامهات ان قواعد السلوك تستمد منهم اي من تصرفاتهم . فهي لهذا لا تغرس في الاطفـال عن طريق الاوامر والنواهي السلبية المجردة عن الاقتداء البعيدة عن الاحتذاء ثم ان الشباب من ناحية اخـــرى ليتخبط في خضم من الضلال تتلاطم امواجه بالعمايات ان توهم ان العالم يستطيع الحياة السعيدة الفاضلة في كنف المروق عن الدين واقلال شأنه . فهذه الحيـــاة السعيدة لا تتأتى بغير دين يعصم النفوس . ويطهرها. ويقيها نوازع الشر وهواجسه . ويسمو بها ... الى السمو .

وعندي ان العالم سيظل حائرا يتخبط في دياجير العداوة والغواية والضلال تتناهبه الاطماع . وتتقاسمه المباديء الحديثة المفتعلة لانها من صنع البشر لا من عند الله ، روعي فيها جانب الارض وتنوسي جانب السماء. وذلك الى ان يهتدي فيعود الى الدين او يعود اليـــه الدين . وليس كـــن الشباب ســن انسب لغرس الروح الديني ونشر افكاره في النفوس .

وعسى ان نعرض في حديث آخر لبعض عيوب شبابنا مفصلة ذات امثال .



يعرف علماء المنطق الانسان بانه حيوان ناطق ؛ وهم يقصدون بذلك انه قادر على استعمال لغة صوتية ذات مقاطع وكلمات وجمل للتفاهم مع غيره من بني جنسه ، وتنقسم اللغة الصوتية عادة الى نوعين. النوع الاول الانفعالي او الوجداني . والثاني النوع الرمزي .

يعرف علماء النفس اللغة بانها الوسيلة التي يمكن بواسطتها تحليل اي صورة او فكرة ذهنية الى اجزائها او خصائصها . والتي بها يمكن تركيب هذه الصورة مرة اخرى فى اذهاننا او اذهان غيرنا بواسطة تاليف كلمات ووضعها فى ترتيب خاص ولا يطلق على الكلام لغة بالمعنى العلمي الا اذا ادى هذا الكلام وظيفته السيكلوجية وهي التحليل التصوري والتركيب، ويبين « تورنديك » فى كتابه « الانسان واعماله » ان وظيفة اللغة لا تقتصر على التعبير فقط ولا انها وسيلة لنقل افكار المتكلم الى السامع فحسب بل لابد من انها تحدث استجابة عند السامع . ويعزي تفوق الانسان الذهني لدرجة كبيرة الى قدرة على استعمال اللغة الراقية . فهي الوسيلة التي تمكنه من استخدام ما عنده من قدرة على التفكير وعن طريق اللغة يدرك الانسان كما يعبر عن المكانية والزمانية والملكية والعلة والمعلولية والجمعية والاستثنائية .

ونريد الآن ان نقف عند المعنى اللغوي لنتبين المقصود من العبارة المطلوب الكلام عنها ، واعني « الاحداث » .

ان المعنى اللغوي هو الفكرة والواحدة البسيطة التي تثيرها الكلمة فى ذهن السامع او القارىء سواء أكان ما يمثلها فى الخارج شيئا محسوسا مثل ورق او مجردا مثل الحرية ، وكذلك الفكرة المركبة من مجموعة افكار بسيطة ، ولكي نعرف كيف تنشا الفكرة عند الانسان نفترض طفلا راى اباه لاول مرة فى حياته ان هذه الرؤيا تصحبها عادة صورة بصرية ادراكية قد تكون غامضة اولا وغير محدودة وقد يستمر الطفل مدة من الزمن قصيرة او طويلة لا يميز اثناءها اباه عندرؤيته ولكن بتكرار رؤية الطفل اباه وسماعه صوته وشمه رائحته وتنبيهه لمناغاته وملاطفته وهنهنته اياه تتكون فى ذهن الطفل صورة اوضح عن ابيه .

فعند ما يرى الابن اباه ويشعر انه هو الشخص الذي رآه من قبل ـ اي عندما يدرك ان ثمة تشابه بين هذا المدرك الحسي والصورة الذهنية التي عنده ـ عند ذلك يكون قد كون فكرة عن ابيه فالشعور بالمماثل بين المدرك الحسي الجديد والصورة القديمة هو حجر الاساس فى تفكيرنا كما يقول « وليم جيمز » فى كتابه « اصول علم النفس » من هذا يتضح ان كل مرة يرى فيها الطفل اباه تترك فى ذهنه صورة لهذا الاب . وتوضح الصورة التالية بعض ما غمض فى الصورة السابقة حتى تتكون الصورة الذهنية الكاملة ، او يتكون عنده « المعنى والفكر » ولا ارى مانعا من ذكر القصة التالية لتلقي ضوءا على قيمة المحسوسات فى تعليم الاحداث فقد جاء فى كتاب « تقرير ومذكرات عن بدائي افيرون » انه حدث فى سنة 1799 ان تشرت

مجلة المناقشة الفرنسية خطابا من احد الفرنسيين يصف فيه صبيا متوحشا فى نحو الحادية عشرة من عمره وجد فى غابة بمقاطعة « افيرون » وذكر الخطاب ان الصبي كان صورة من الانسان البدائي وقد وجد هائما على وجهه فى اطراف الغابة التي كان يعيش فيها، وقد احضر هذا الصبي الى باريس حيث عرض على الجمهور تسعة ايام . وكان منظره متوحشا حقا فهو لا يستطيع النطق ولا يعرف المشي المعتدل ويدمدم كالحيوان ، ويجهل كل وسائل الحياة حوله وقد عهد الى طبيب شاب اسمه « ايطارد » وكان يشتغل فى معهد للصم والبكم ليشرف على تربية هذا المخلوق الذي سمي « فيكتور » وقد شخص « ايطارد » التأخر الذي عند الصبي وعزاه الى انه حرم وسيلة التفاهم مع الناس وهي اللغة وشرع « ايطارد » فى تعليمه اللغة وما يحيط به مدة خمس سنوات ، ولنستمع الى « ايطارد » نفسه يحدثنا كيف علم هذا الصبي اللغة يقول الدكتور « ايطارد » وكان علي الآن ان اتقدم بهذا الصبي الى مرحلة التجريد ، وكنت اتقدم وانا اخشى ان اسير فيها طويلا وان يصادفني ما لا قبل لي بالتغلب عليه ولكن لم اصادف شيئا من هذا ، وكانت محاولتي هذه المرة تعليم الصبي امداد الاطوال والمساحات فأحضرت كتابين من مقاسين مختلفين وكان تجليدهما واحدا ثم اشرت الى الاول ففتح « فيكتور » كناشته واشار الى كلمة كتاب التي فيها ثم اشرت الى الكتاب الثاني فأشار الى نفس الكلمة مرة اخرى وكررت العملية فكرر الاشارة . اخذت الكتاب الصغير وامسكت به امام « فيكتور » وجعلته يلمسه بيده ويضع يده على غلافه كله فلما وضع يده غطت كل الغلاف ، ثم طلبت اليه ان يضع يده على غلاف الكتاب الكبير فلما وضع يده لم تكد تغطي نصفه ، ولكي الفت نظره الى الغرض من هذه العملية نبهته الى الجزء الباقي غير المغطى وجعلته يمد اصابعه على هذا الجزء ولم يستطع ان يفعل هذا الا بعد ان كشف عن جزء من الغلاف يعادل الجزء الجديد الذي غطاه ، وبعد هذه التجربة التي حاولت بها ان يدرك « فيكتور » الفرق بين مساحة الكتابين سألته عن اسمها مرة اخرى فتردد « فيكتور» وشعر ان نفس الكلمة « كتاب » لا يمكن اطلاقها على كل منهما بدون اي وصف مميز لما ادركه من فرق بينهما . وقد كان همي ان اصل به الى هذه النقطة عند ذلك كتبت على بطاقتين كلمة « كتاب » ووضعت كل واحدة على كتاب ثم كتبت فى بطاقة ثالثة كلمة « كبير » وفى رابعة « صغير » ووضعت كل بطاقة بجانب زميلتها فى المكان المناسب على الكتاب . وبعد ان وجهت « فيكتور» الى التسمية الجديدة نزعت البطاقات وخلطت بعضها ببعض ثم اعطيتها له ليضعها على الكتابين فوضعها كما ينبغي ، ولكن هل يكفي هذا للتأكد من انه كون فكرة على كل من الكبير والصغير ؟

لكي ازداد تأكدا احضرت مسمارين احدهما كبير والثاني صغير وجعلته يلمس الفرق بينهما ثم وضعت على كل منهما بطاقة تحمل كلمة « مسمار » وقدمت له بطاقتين احداهما عليها كلمة « كبير » والثانية عليها كلمة « صغير » وسلمتهما له « فما كان منه الا ان وضع كل بطاقة فى مكانها الصحيح بطريقة تثبت انه فهم معنى الكلمتين .

ولعل هذا المثال يوضح لنا كيف ان الصبي « فكتور » لاحظ ووازن وادرك الفرق والتشابه ثم جرد المعنى الذي يدل على صفة الكبير والصغير ، واخيرا عمم هذا التجريد بتطبيقه على حالات اخرى لم يكن له بها عهد كما فعل مع المسمارين .

وبهذه الطريقة ايضا يصل الطفل العادي الى تكوين فكرة عن المجردات مثل الطول والقصر والخوف والغضب الى آخره .

بعد ما عرفنا مبادىء عن تعليم اللغة وكيف يبدا بالمحسوسات ثم ينتقل الى المجردات لابد لنا من القاء نظرة على الادراك ما دام هو الوسيلة للتعرف عن المحسوسات ومن ثم المجردات لنتبين كيف تتم عملية الادراك هذه فى ميادين الحياة المختلفة . يطلق الادراك اصطلاحا فى علم النفس على العملية العقلية التي تتم معرفتنا للعالم الخارجي عن طريق التنبيهات الحسية كان ادرك ان هذا الشيء الذي هو امامي « كتاب » وان لهذا الكتاب مميزات خاصة من لون ومن اتجاه فى المكان ومن طول وعرض وسمك وبروز ومن وضع بالنسبة الى وبالنسبة للمنضدة والى ما يحيط به من اشياء . ولا يقتصر ادراكي لهذا الكتاب على هذه الخصاصة الحسية بل يشمل ايضا معرفة استخدام هذا الشيء فان ادرك ان هذه الاشكال السوداء التي تسمى الكلمات انما هي رموز تفيد معنى من المعاني الى ما هنالك . والاحساسات هي المواد الاولية التي لا يتم الادراك دونها وهي تميز الادراك عن التذكر وتصبغه بصبغة الواقع . وعملية الادراك ليست عملية منعزلة منفصلة بل هي الاساس الذي تقدم عليه سائر الوظائف العقلية وكما يقول « بارتلي » فى كتابه « بداية علم النفس التجريبي»

انها الفرد باجمعه وهو يعمل . فهي العملية الديناميكية التي بفضلها يتصل الفرد بالعالم الخارجي ويستجيب له استجابة مباشرة وحيث ان العالم الخارجي هو بالقياس الى الانسان عالم اجتماعي في معظم نواحيه فتصبح دراسات الادراك عند الانسان هي دراسة السلوك الاجتماعي . وعلى ذلك فان القيام والحاجات تؤدي دورا هاما في تنظيم الادراك .

ومن التجارب الطريفة التي توضح اثر القيام والحاجات في كيفية ادراك العالم الخارجي نذكر تجربة العالمين « بروز وكدمر » وملخص هذه التجربة انه عرض على مجموعة من الاطفال قطع من العملة يزداد حجمها بزيادة قيمتها مثلا فرنك وفرنكان وريال وعشرة ريالات ومائتي فرنك ثم طلب منهم بواسطة جهاز خاص ان يوسعوا او يضيقوا فتحة دائرية مضاءة بحيث تكون مساحة الدائرة مساوية في تقدير الطفل لمساحة كل عملية . ثم طلب منهم القيام بالعملية ذاتها دون عرض العملة . ثم اجريت التجربة ذاتها على مجموعة اخرى من الاطفال ولكن استبدل بقطع النقود قطع من الورق المقوى الرمادي اللون كانت احجامها مساوية لاحجام النقود . ولكن دون ان ترد في اثناء الحديث اي اشارة الى النقود .

وبالمقارنة بين نتائج التجربتين اتضح ان الاطفال في التجربة الاولى بالغوا في تقدير احجام النقود بنسبة تتراوح بين 15٪ و 35٪ وكانت المبالغة تزداد بوجه عام كل ما زادت قيمة العملة . اما الاطفال في التجربة الثانية فانهم قدروا احجام الدوائر تقديرا لا يختلف الا قليلا عن الحجم الطبيعي مع الميل الخفيف الى تصغير الحجم . ومن الطريف ان نذكر ان تجربة النقود هذه قسم فيها الاطفال الى مجموعتين الاولى من ابناء الاغنياء والثانية من ابناء الفقراء فكانت المبالغة في التقدير لدى الاطفال الاغنياء تتراوح بين 10 ٪ و 25 ٪ في حين ارتفعت هذه النسبة لدا الاطفال الفقراء فاصبحت تتراوح بين 25 ٪ و 50 ٪ .

والآن كيف يدرك الانسان ما حواليه ولنبدا بادراك المسافات والابعاد والعوامل التي تساعد على ذلك هي عوامل بصرية واول من اشار اليها هو « ليوزدودافيي نسي » من اكبر علماء عصر النهضة وفنانيها وقد سرد هذه العوامل البصرية على الوجه التالي :

اولا : التباين بين الضوء والظل

ثانيا : المنظور وهو اما خطي او تفصيلي او هوائي

ثالثا : سرعة الحركة

رابعا : تزيح البصرين او اختلاف المنظر بالعينين

ثم العوامل العضلية واول من اشار الى هذه العوامل هو الفيلسوف الانجليزي « بركلي » سنة 1709 ويقول ان حاسة البصر لا تدرك سوى الضوء واللون وان ادراك الخصائص الهندسية للاشياء يتوقف على ارتباط اللمس بحركات الجسم ويذكر من هذه الحركات العضلية حركة تكيف العين لرؤية الاشياء القريبة والبعيدة وحركة التلاقي في حالة الابصار بالعينين .

وهنالك الموضوعية لصياغة المدركات فان بعض الاشياء تفرض وجودها في ادراكنا دون سواها من الاشكال واننا نرى الاشياء ولكن لا نرى ما بينها من ثغرات ، وقد اهتمت احدى المدارس الحديثة في علم النفس وهي مدرسة « الكيشطلت » والتي تسمى مدرسة الهيئات بهذا الموضوع اهتماما خاصا .

وهنالك الخداع البصري الهندسي فالصيغة المدركة بكونها كلاله مميزاته الخاصة هي غير مجموع مميزات اجزائية . ويكتسب كل جزء كيفيته الخاصة تبعا لوضعه بالنسبة الى الصيغة الكلية فقد يبدو اقصر او اطول مما هو عليه في الواقع .

وهنالك الخداع الحركي والمقصود به ادراك حركة المكانية حيث لا توجد اشياء تتحرك . وبعد ان عرضنا موجزا للادراك وعرفنا عوامله ارى اننا قد بلغنا شوطا نستطيع بعده ان نتكلم عن تلميذنا الابتدائي ونعني به الطفل من السابعة الى الثانية عشرة لنرى كيف يجب ان تعلمه وما نقطة البدء في تعليمه . كل ذلك في ضوء علم النفس الحديث وتجاربه .

لا يحدث تغيير جوهري في الصفات الاساسية في قدرة الطفل على الادراك في هذه المراحل عما كان سابقا فالحواس يكاد يكتمل نموها في السنة السابعة ولكنه مع ذلك يحدث تقدم مقطوع به في قدرة الطفل على التمييز الحسي للموضوعات الخارجية فنلاحظ مثلا ان ابصار الطفل يتحسن كما انه يستطيع ان يمارس الاشياء القريبة من بصره . سواء اكانت قراءة ام عملا يدويا لمدة اطول من تلك التي كان قادرا عليها في سن مبكرة عن ذلك ، كما ان الادراك البصري الواضح لا يصبح مقصورا على الاشياء القريبة من العين ، انما

يتعداها الى ما هو بعيد عن مجاله البصري ، كما نلاحظ زوال طول النظر الذي يصاب به حوالي 80 ٪ من اطفال مدارس الرياض .

أما فيما يتعلق بالسمع فان دقة سمع الطفل تنضج في السابعة ، ويلاحظ تقدم ملموس في قدرة الاطفال على تمييز الانغام الموسيقية حتى الحادية عشرة . ونتوقع ان يتطور ذلك من اللحن البسيط الى النغم المعقد هذا وان حاسة الطفل اللمسية في مرحلة اقوى منها عند البالغ فقد ثبت ان دقة التمييز اللمسي تقل بمقدار النصف تقريبا في سن السابعة عشرة عنها في سن السابعة ، ونلاحظ انها في سن الثامنة اقوى عند البنات منها عند البنين .

ونلاحظ تغييرا هاما في الحاسة العضلية وهي الحاسة التي تقدر بها الحركات والاوضاع في الاطراف كالايادي والاصابع ، فقد دلت البحوث التجريبية على ان هذه الحاسة تتحسن من سن السابعة الى الثامنة عشرة وذلك لان الطفل في سن الثامنة عشرة يمكنه ان يميز فروقا في الوزن تصف تلك التي يمكن ان يميزها في سن السابعة . ودقة الحاسة العضلية عامل هام من عوامل المهارة اليدوية ، وهذه الدقة تنمو وتطرد في هذه المرحلة على وجه الخصوص لذلك يجب ان يعنى بها في مرحلة التعليم الابتدائي لانها وسيلة صالحة تساعد الطفل في اكتشاف جزء كبير من معرفته عن العالم الخارجي اذ انه يولع ولعا شديدا في هذه السن بالاتصال المباشر بالاشياء عن طريق تجربيبة اياها في الحركة والوزن والدفع والوضع وما الى ذلك . ولذلك يجب ان تعرض وسائل الايضاح التي تستعمل في دروس المدرسة الابتدائية عن طريق الموضوعات المجسمة التي لا تتيح للطفل فرصة الادراك البصري فحسب بل تيسر له ايضا تجريبها عن طريق مسكها بيديه وتحريكه اياها . والذي نود ان نشير اليه هنا هو ان الميزة الرئيسية لهذه المرحلة من النمو من حيث علاقتها بالتربية والتعليم ان الطفل يتعلم فيها بواسطة الممارسة اي بادراك المحسوسات التي تعرض له في ممارستها عمليا .

ونلاحظ ان الطفل في المرحلة الابتدائية يفكر بواسطة الصورة البصرية فهو بصري اولا وقبل كل شيء ، لذلك يجب ان يراعى فيما يتقدم للناشىء في هذه المرحلة ان يكون واقعيا مصورا بصريا ولاشك انه كلما سار الزمن بالطفل نحو دور المراهقة كلما ضعف فيه هذا التصور البصري ويحل محله الفاظ وكلمات ولذلك يجب ان يتذكر المعلم دائما انه حينما يتحدث الى الطفل في التاسعة من عمره انما يتحدث الى شخص يختلف تماما عنه في وسائل تفكيره . فبينما يستعين الكبار في تفكيرهم باللغة والكلمات نجد ان الاطفال في هذا السن انما يستعينون بالصور البصرية . ولا يقتصر الامر على طريقة الدرس بل على مادته ايضا اذ ينبغي ان تراعي في منهاج هذه المرحلة ان يكون ملتصقا، بشدة، بمحيط الطفل اليومي وخبراته المباشرة . ولاشك ان اكثر المواد تجريدا في هذه المرحلة هي الحساب لذلك يجب ان يقلل المنهج في هذه المادة الى اقل ما يمكن وتحذف منه الكسور الاعتيادية والعشرية او الكميات المطلقة لان الطفل لا يمكنه تصويرها تصويرا بصريا. ويجب ان اشير الى ان دراسة الحساب اذا ما نتجت من حياة الطفل اليومية كشراء ما يحتاج اليه في يومه او الاشغال كان عمله في الحساب اقل تجريدا واقرب اليه من العمل الآخر .

وبعد ان عرفنا صدق هذا المبدا وهو ان الاطفال يدركون المحسوسات ، اما المجردات فهي بعيدة عن ادراكهم ولابد من الوصول اليها ان نتوسل بوسائل اخرى. هذا مع العلم بانه لايتم ذلك الا بعد بلوغ مرحلة من النضج الكافي . فعلينا اذا ان ننظر الى المواد الدراسية التي نقدمها الى الطفل بمقدار ما تستوعبها مداركه فلا تقدم له من المواد الدراسية الا ماهو ملائم ومشوق وباعث على الاهتمام فعلى المعلم والحالة هذه أن يربط المواد بميول الاطفال النامية ولا حاجة لنا الى تبسيط وتحديد هذا المبدا السابق الذي وصلنا اليه على مواد الدراسة بل نكتفي بذكر نماذج محدودة .

ففي الجغرافية مثلا اذا اتخذت هذه المادة وسيلة لتعريف الطفل بالدنيا والحياة وربطت بالحياة اليومية للطفل بدلا من جعلها مجرد حقائق تحفظ من الكتب ثم تسمع اصبحت الجغرافية قريبة من ادراك التلاميذ يميلون اليها ويهتمون بها .

وليذكر المعلم ان الاطفال يهتمون عادة بمظاهر الحياة البدائية وكيف يعيش الاطفال في البلاد الاخرى وكيف تصنع الملابس وتعد . وهم فوق ذلك يميلون بوجه خاص الى السياحات والرحلات .

اما في التاريخ فان الالمام بتطور الامم والشعوب من اكثر الموضوعات تشوقا وخاصة اذا ارتبطت تلك المعرفة بحياة الطفل في العصر الذي يعيش فيه .

ودراسة التاريخ لكي تكون مشوقة مجدية يجب ان تبدأ من الناحية الفردية الخاصة الى الناحية الاجتماعية العامة .

اما في دروس الانشاء فيجب ان تتناول هذا الموضوع من وجهة نظر الطفل . ان هذا الجانب من جوانب التعليم في كثير من الاحوال عمل بغيض للاطفال ولكي نستطيع ان نبث الحياة فيه ونجعله شائقا له وذلك بان نجعله تعبيرا عن حياتهم الداخلية وليذكر كل معلم ان التلاميذ يغتبطون بالافصاح عن انفسهم بالكتابة ان كان ما يكتبون جزءا حقيقيا من حياتهم . وان المعلم الذي يرى تلاميذه معرضين عن درس الانشاء قليلي الاهتمام به هو في الواقع علة هذه الحالة واقول يجب ان تكون موضوعات الانشاء في القسم في اساسها من نوع الموضوعات التي من طبيعة الاطفال ان يكتبوا فيها. فاذا فرضنا ان الضباب كان يغشى المدينة صباح يوم وقد صعب السير وكثرت حوادث الاصطدام فهذا موضوع يلذ للتلاميذ وصفه والكتابة عنه . هنا يقترح المعلم الحديث في هذا الموضوع او الكتابة عنه فيبدأ بعض التلاميذ في وصف ما شاهدوه او ما حدث لهم ووصف الاشياء التي لفتت انتباههم بوجه خاص . كل هذا والمعلم يشجعهم على المضي في هذا الحديث والاسترسال في الوصف حتى اذا وصل التلاميذ الى نقطة الاهتمام والميل الى الموضوع وبدت الحماسة ظاهرة طلب اليهم ان يكتب كل منهم على حدة .

وفي درس الاشياء نقول مبدئيا ان كل طفل يحب الطبيعة ، ثم ان دروس الاشياء هي دروس على الاشياء وبواسطة الاشياء ذاتها وهذا يعني ان درس الاشياء لا يجوز ان يعطى بدون اشياء . ان الاطفال يبدون عندما يصبحون قادرين على الحركة والكلام اهتماما كبيرا فيما يرون حولهم من الاشياء وفيما يلاحظون في الطبيعة ويسألون عن كل ما تقع عليه اعينهم لانهم يريدون ان يتعرفوا عن الحياة . على المحيط الذي يعيشون فيه . وفي الواقع ان كثيرا من حوادث الطبيعة تثير دهشة الطفل وانتباهه ، فالشمس والمطر والهواء والبرق وفقاعة الصابون . والطائرة .. كل هذا يثير في الطفل كلمة لماذا ؟

من الواجب على المشرفين على تربية الاطفال ان يدربوهم على الملاحظة المستمرة النافذة لما يحتكون به وبذلك يكتسب التلاميذ معلومات ثابتة لان ما يقرأ عنه الطفل لا يبقى طويلا في ذاكرته بقاء الشيء الذي يراه ويلاحظه ويفهمه . فالطريقة الصحيحة العامة تنحصر في الملاحظة والاختبار ولهذا يجب ان يكون التدريس حسيا تجريبيا .

وفي تدريس الرسم نقول ان الفن قوة فعالة لها قيمتها الكبرى في حياة الفرد . والطفل فنان صغير يفتش عن الجمال ويكتشفه في الاشياء المألوفة حوله . فهو يستخدمه منذ الروضة والقسم التحضيري كوسيلة للتعبير عما يشعر به ويفكر فيه اكثر من استعماله اللغة للغرض نفسه ولهذا كان الفن في هذه الاقسام وسيلة اساسية لتعليمه سائر المواد الاخرى. وينبغي ملاحظة الطبيعة باشكالها الحية والوانها الساحرة وينبغي ان ترسم وتفسر مباشرة . دون اللجوء الى الهندسة والاشكال الهندسية . لهذا كانت الطريقة الحديثة في الرسم ان يوضع الشيء ذاته امام التلاميذ كي يرسموه لا ان يرسم المعلم على السبورة صورة سابقة لينسخها التلاميذ . فالطبيعة بغناها وبوجوهها اللامتناهية العديدة ينبغي ان تكون النموذج الابدي الذي ينبغي ان يرسمه التلاميذ ويتعاملوا به .

بعد هذه الامثلة الآنفة الذكر التي بينت كيف يجب ان تقرب المادة الدراسية من ادراك التلاميذ الصغار على ان نشير الى الاتجاه التربوي الحديث في الوسائل التي يأنس لها التلاميذ لانها تشوقهم الى الدرس وتقرب المواضيع الدراسية الى اذهانهم وتحاول ازالة التجريد في التعليم وعرضه بصورة محسوسة .

ان المربين الحديثين يؤكدون على وسائل الايضاح واهميتها في التعليم . تلك الوسائل التي بلغت من العناية بها حدا كبيرا اصبح مجالة تنافس مراكز وسائل الايضاح في كليات التربية وفي كل بقعة من بقاع العالم المتمدن .

وبالنظر الى تعدد الوسائل الايضاحية صنفها المربون الى صنفين اساسيين هما :

اولا : وسائل الايضاح النظرية او اللفظية كما يدعوها البعض وتشمل الوصف وضرب الامثلة والقصص وسرد الحوادث التاريخية .

ثانيا : الوسائل الايضاحية البصرية وتدعى بالوسائل المحسوسة او الملموسة ، ومن طبيعة هذه الوسائل ان تساعد الحواس الخمس المعروفة في تقوية المدركات الحسية وجعل تعليم الاطفال اكثر اتقانا وهذه الوسائل على نوعين :

النوع الاول : وهو ما يسمى بالوسائل البصرية في القسم ويشمل .

ا ــ الصور الفتغرافية والصور الفنية وصور الفانوس السحري والصور السينمائية المتحركة والثابتة .

ب ــ الخرائط والرسوم والخطوط البيانية والسبورات ولوحات الاعلانات ولوحات العرض الاخرى .

ج ــ الاشياء والنماذج كالكرة الارضية ونماذج الطيور والجبال والانهار .

د ــ العرض التمثيلي بواسطة الروايات التمثيلية الصغيرة التي تمثل عادة حياة قوم من الاقوام واسلوب معيشتهم وتمثل الازياء المختلفة عند امة من الامم او عند امم متعددة .

هـ ــ المختبرات والتجارب العلمية واستخدام الاذاعة اللاسلكية .

اما النوع الثاني من هذه الوسائل الايضاحية البصرية فهو السفرات والرحلات المدرسية التي يقوم بها الطلبة بصحبة مدرسيهم الى الحقول والانهار والجبال والبحيرات والى المعامل والمؤسسات التجارية والمتاحف والمؤسسات الحكومية والبلدية والمدنية والمحلات العلمية والتاريخية وما شاكل ذلك .

والآن واخيرا عرفنا ان الدراسات النفسية أثبتت قصور الاحداث عن ادراك الحقائق المجردة واستعانت التربية الحديثة بوسائل الايضاح للتغلب على هذه المشكلة فما على المربي الحديث الا ان يحاول جهده في انتقاء الوسائل الايضاحية المناسبة وان يحسن طريقة استعمالها لتؤدي الغاية المطلوبة . وعلى القائمين بتعليم وتقويم عقول ناشئتنا ان ينهجوا النهج القويم الذي قررته ورسمته حسب ما مر في الصفحات السابقة والا فويل للتلاميذ مما يعانون من مشقة وصعوبة ونفور وويل للمعلمين من شبح المجردات المرعب . ان لدى الطفل حواسا يتصل بها بالعالم الخارجي فعليهم ان ينموها التنمية الصحيحة ليجعلوا الطفل يحس بالاحساسات الصادقة .

ان الشخص الذي تنشده التربية هو الذي يجمع بين المعرفة بنوعيها اعني العقلية والعاطفية ، ولكن كيف يصل الى هذه المعرفة !

من الطبيعي ان يصل اليها عن طريق الحواس المختلفة التي هي بمثابة وسائل او ادوات تساعد على بناء وتوطيد الصلة بينه وبين الوسط الذي يعيش فيه .

فعلى قدر صلاحية الحواس وكيفية استخدامها تكون معرفة الفرد وصلته بالبيئة . فاذا كانت هذه الصلة هزيلة ضعيفة كانت المعرفة كذلك ، اما اذا كانت الصلة قوية مدعمة فان المعرفة تكون ايضا مدعمة .

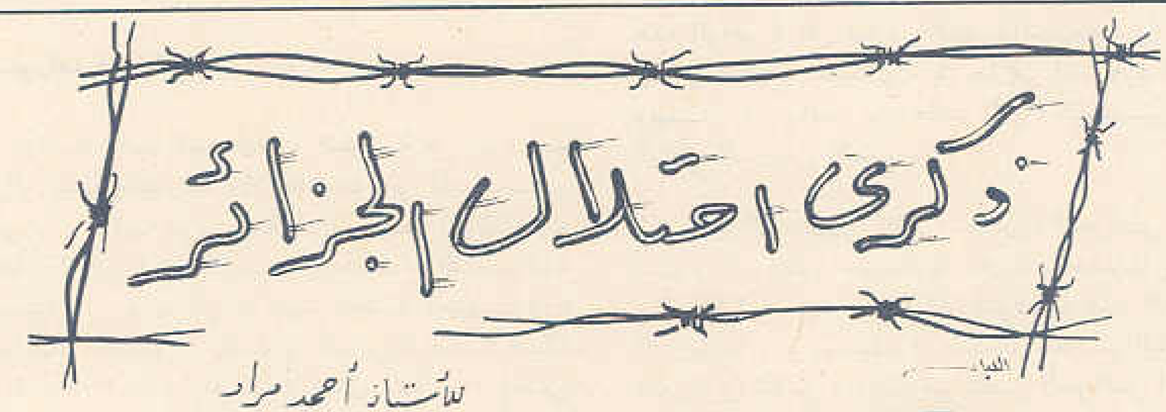
وبما ان التربية ترمي الى تقوية المعرفة عند الفرد حتى يتسنى له حسن الانسجام مع البيئة فالحواس وكيفية استخدامها من اهم النواحي التي يجب العناية بها .

والعناية بالحواس تنحصر في كيفية استخدامها اذ ان السواد الاعظم من الافراد يستخدمون حواسهم استخداما ذاتيا. فهذا الفرد لايستعمل يديه مثلا الا عند ما يلمس الفاكهة التي يود شراءها. بل ان استخدام اكثر الناس لحواسهم اصبح موقوفا على تحقيق المآرب الذاتية والمنافع الشخصية كما يقول الاستاذ «ادمان» في كتابه « العالم والفنون والفنانون » . حقا ان من وظائف الحواس تحقيق الرغبات الشخصية ولكن ذلك ليس كل وظائفها لان وظائف الحواس اكثر واعم من هذا .

فالعين الى جانب كونها وسيلة تساعد صاحبها على ان يتجنب الخطر اذا رآه لها وظيفة في حد ذاتها وهي الرؤية ، واليد وظيفتها اللمس ، والاذن وظيفتها السمع . فاذا احترمنا الحواس ووظائفها على هذا النحو كان استخدامنا لها استخداما موضوعيا .

وفي الختام لا يدرك الاطفال الا المحسوسات فيجب ان نقوي حواسهم وندربهم تدريبا سديدا وان نتوسل بالوسائل الايضاحية للتغلب على المجردات ليفهم التلاميذ ما يقدم لهم بكل شوق ورغبة .





للأستاذ أحمد مراد



تمهيــــــــد :

ان يوم الخامس من يوليو ، له فى تاريخ الجزائر والجزائريين شان واي شان . . انه يعيد الى الاذهان ذكرى مؤلمة سوداء . . انه يوم بداية الاعتداء الفرنسي سنة 1830 على استقلال الجزائر وسيادتها الوطنية . لا ، انه فى الواقع بداية عدوان الاستعمار الاجنبي على مجموعة من الاقطار والشعوب العربية المسلمة .

ففي مثل هذا اليوم انتهكت عصابة من الفرنسيين المتشبعين بروح التعصب والعنصرية حرمة السيادة الجزائرية ، وانقضوا على الشعب الجزائري الوادع ، كما ينقض الحيوان المفترس الجائع على الضحية العزلاء . . . فينشب فيها مخالبه الحادة ، ويمزقها اربا اربا . . .

ذلك ما اقترفته فرنسا ضد الجزائر منذ سنة الف وثمانمائة وثلاثين ، وواصلته بوحشية وشراسة الى يوم الناس هذا . . .

فى مثل هذا اليوم منذ مائة وثلاثين عاما شرع احفاد الصليبيين من الفرنسيين فى تحقيق امل كان يراود نفوسهم قبل عقود من السنين ، وهو احتلال القطر الجزائري لاخفاء الهزائم التي تكبدتها فرنسا يومئذ عسكريا وسياسيا فى الميدان الاروبي ، واستعادة مكانتها الدولية على حساب بلاد ضعيفة مسالمة ، وهكذا صممت فرنسا على غزو الجزائر ظلما وعدوانا ، وتم لها احتلال عاصمة وطننا يوم الخامس يوليو سنة 1830 ، بعد ان حملت الداي التركي على التسليم ، ثم دفعت بها المطامع الاستعمارية الى الاغارة ــ فيما بعد ــ على الشقيقتين المجاورتين : تونس والمغرب .

وفتحت فرنسا بعدوانها ذلك فى تاريخ الامة الجزائرية والمغربية عهدا مشحونا بأفظع ما عرفته البشرية من ضروب الوحشية والطغيان والظلم . . وقد عانى وطننا المنكوب فى هذه الفترة من تاريخه ما لا يخطر على البال ، من الوان البؤس والنكال ، فقد انتهبت ثرواته ، وسلبت منه اراضيه ، واهينت مقدساته ، وديست كرامته وعزته ، ولكن هذا الشعب العربي المسلم ، لم يجنح ابدا الى الخنوع والاستسلام ، ولم يتخل يوما عن مقاومة الاحتلال الاجنبي الهدام ، مقاومة مسلحة كرة ، وسلمية اخرى ، متشبثا فى كل

حال بتراثه الروحي ، وميراثه التاريخي ، رغم الويلات التي حلت به ، ومتمسكا بميزاته وقوميته ، متحديا عوامل المحق والتفرنج والاباحية التي سلطت عليه ، من طرف ساسة اعدتهم المدرسة الاستعمارية .. خصيصا للقضاء على شعبنا بالتدريج منذ الاحتلال الى الآن . .

ثورات متعاقبة . .

ولقد كانت هذه الحقبة الطويلة من تاريخ الجزائر مليئة بالثورات والانتفاضات على المستعمر الباغي . . تعقبها دوما اضطهادات فظيعة ، وانتقامات مروعة ، لا اثر فيها لما يسمى بالعدالة والديمقراطية الفرنسية . . وانما كل ما فيها الحقد العنصري ، والتعصب الصليبي ، اللذان اشتهرت بهما هذه الدولة ضد الاسلام والمسلمين خلال التاريخ ، وبقي ساستها يرثون ذلك الحقد والتعصب ابا عن جد ، الى اليوم والى الغد . . .

انهم بذلوا كل ما في وسعهم من جهد ، ليعفوا نهائيا على التراث الروحي والادبي للشعب الجزائري ، بعد ان جردوه من كسبه المادي ، ولكنهم لم يبلغوا من ذلك مأربا ، وحاولوا بكل قواهم ان يدمجوا هذا الشعب في حضيرتهم ويبتلعوه ، فلم يستطيعوا له هضما ، بل بقيت الجزائر – كما شاء لها القدر – امينة على اسلامها ، وفية لعروبتها ، وظلت صامدة في ميدان المقاومة ، كالطود الشامخ ، وان استطاعت فرنسا بجهازها الاستعماري ان تجردها من ارضها وثرواتها ، وان تغتصب حقوقها من ايدي ابنائها ، فانها لم تستطع ولن تستطيع ان تجردهم من الرجولة والشجاعة ، وقوة الايمان بحق وطنهم في الحرية والاستقلال ، وهذا كفاحهم اليوم – كما كان بالامس – يذيق المستعمرين المعتدين وبال عدوانهم ، ويريهم عاقبة بغيهم وظلمهم ، ولا بد من ان بناء الاستعمار منهار ، امام ضربات المجاهدين الاحرار .

بلاد مات فتيتها لتحيا
وزالوا دون قومهم ليبقوا

دم الثوار تعرفه فرنسا
وتعلم انه نور وحق

مزاعم باطلة . .

والآن – وبعد هذه الكلمة التمهيدية – نريد ان نرجع قليلا الى الوراء ، اي الى ماقبل الاحتلال المشؤوم ، لنرى ما اذا كانت المزاعم الفرنسية ، التي تدعي انعدام وجود دولة جزائرية ابان الاحتلال ، والتي اتخذت مبررا لذلك الاحتلال ، لها نصيب من الصحة ؟ ام ان هذه المزاعم لا ظل لها من الحق والحقيقة ، ولا سند لها من التاريخ الصادق ، بل ما هي الا مجرد افك وبهتان ، وتهافت من جانب الغزاة الفرنسيين على الواقع التاريخي الملموس .

ان الفرنسيين الذين جازوا الجزائر جزاء سنمار ، وقابلوا جميلها بالانكار ، واحسانها بالاساءة والاستكبار ، لم يبالوا ان يقترفوا هذه الجريمة التاريخية . . بسعيهم في طمس معالم التاريخ الجزائري اللامع ، وانكارهم لماضي الجزائر الدولي المزدهر ، وقد سمحت لهم ضمائرهم ان يضعوا الكتب والمؤلفات لتزييف الحقائق ، والكذب على التاريخ ، لاغراض استعمارية بحتة ، ليس لها من روح البحث العلمي او التاريخي نصيب .

الدولة الجزائرية :

ان الجزائر – قبل سنة 1830 – كانت تتوفر لها جميع خصائص وميزات الدولة التامة ، في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، ان الجزائر كانت قائمة الشخصية ، مدعمة الكيان ، ذات مكانة دولية مرموقة ، ونستطيع القول بان وجود الجزائر الدولي قد ظهر في هذا الكون ، وامتد في اعماق التاريخ ، منذ عديد من القرون ، بل قبل ان تصبح فرنسا نفسها ذات كيان دولي بالمعنى الصحيح .

لقد ظلت الجزائر فعلا تتمتع بسيادتها الوطنية ، وكيانها الدولي ، وتتوفر لديها جميع العناصر التي يقوم عليها بناء الدولة ، شأنها في هذا شأن جميع الدول المعاصرة لها يومذاك .

فمنذ العهد الروماني بافريقيا نشأت دول جزائرية متعاقبة بزعامة رجال من العنصر البربري ، وكانت تلك الدول تتعامل مع رومة – على قدم المساواة – في فترات تاريخية ، ونشأت بعد الفتح العربي للشمال الافريقي مجموعة من الدول التي كانت

ـ رغم اسلامها وعروبتها ـ واعتبارها جزءا من الدول الناشئة في المغرب العربي ـ كانت مطبوعة بالطابـــع الجزائري ، وتمتاز بميزات سياسية واجتماعيــــة جزائرية خاصة بها ، وادركت بعضها شاوا لايبارى من العظمة والازدهار ، كالدولة الرستمية وعاصمتها (تيهرت) ، والدولة الحمادية التي كانت عاصمتهـــا بجاية ، والدولة الزيانية وعاصمتها تلمسان وغيرها . .

العهـد التركـي الجزائري :

بدات علاقة تركيا بالجزائر ، في اواخر القـــرن الخامس عشر للميلاد ، ولم تعد ان تكون علاقة امة اسلامية بامة اخرى تجمع بينهما عروة الدين الوثقى ، على ان مجيء هذا العهد قد ادخل على الجزائر تطورا سياسيا مغايرا نوعا ما لوضعها الســالف ، بيد انــه لم يعتبر عهد استعمار او احتلال ، كما يحلو للفرنسيين ان يصفوه ، لما كــان يربط بين الامتيـن الجزائريــة والتركية ، من الروابط الدينية والمعنوية ، ولم يقض دخول الاتراك الى الجزائر على سيادتها واستقلالها ، كما كان الشان مع احتلال الفرنسيين ، اذ لم يتعـد النفوذ التركي مظهره الديني والمعنوي ، حيث كـانت تركيا العثمانية موئل الخلافة الاسلامية .

ومع ذلك فقد تخلصت الجزائر من التبعيـــة التركية بنحو مائتي سنة ، قبل الاعتـداء الفرنسـي عليها ، واضحت سيادتها طليقة من كل قيد ، نقية من كل شائبة تدخل خارجي ، تدبر شؤونهــا كما تملـي عليها مصلحتها القومية .

يقول مؤرخ فرنسي في الموضوع : (اثناء القـرن السابع عشر تخلصت ايالتا الجزائر وتونس من سلطة الباب العالي ، ثم يتابع قائلا : كان للجزائر استقلالها الذاتي ، ولم يكن يربطها بتركيا سوى صلة ادبية ، هي الخلافة الاسلامية ، وكانت اكثـر حريـة في تدبيـــر شؤونها وتقرير مصيرها من الممتلكات الانجليزية اليوم ازاء بريطانيا ، ولم يكن في الجزائر تفريـق جنسـي او ميز عنصري بين العرب والاتراك ، فكلاهمـا ينتسب الى الدين الاسلامي ، وهو عدو كل تفريـق جنسي ، ولذلك نرى الاتراك والجزائريين يقوموـن جميعـــا بالدفاع عن الجزائر، ويتعاونون على طرد الاسبان من بعض الشواطيء الجزائرية ، ففي الحين الذي كان كل شيء يوهم باستيلاء اسبانيا على شمال افريقيا ، خـــاض المعركة ضدها الاتراك والجزائريون معا واستطاعـــوا ان يحرزوا على النصر) وشهد شاهد من اهلها . . .

وهكـذا نرى ان قوات الجزائــر استطاعت ان تطرد اسبانيا من شواطيء الجزائر ، وان تكرههـا على التراجع عن مشاريعها الاحتلالية ، التي كانت تنـوي انجازها في شمال افريقيا ، في اوائل القرن السابـــع عشر ، وليس من اليسير الهين ان تقوم الجزائر بمثل هذا العمل ، وتظفر بمثـل هذا النصر الباهـر ، على دولة قوية مثل اسبانيا يومئذ ، لو لم تكن قد توفرت لها جميـع امكانيات الدولـة وخصائصهـا ونظمهـا السياسية والعسكرية والبحرية ، مما جعلها في طليعة الدول التي يخشـى بأسهـا ويرغب في خطب ودهـا وصداقتها والتعامل معها

علاقات الجزائر الخارجية :

وعلى هذا الاساس كانت للجزائر علاقات سياسية ودبلوماسية خارجية ، تنبيء بوضوح عن اهمية المكانة الدولية ، التي كانت تحظى بها ، فمنذ منتصف القرن السادس الميلادي ، انشئت العلاقات الدبلوماسيـــة ، وعقدت المعاهدات بين الجزائر وفرنسا مما ادى بملكها (فرنسوا الأول) ان يستجد بحليفته الجزائر في بعض الحـروب التـي خاضتهـا فرنســا ضـد اسبانيـا ودول اوربية اخرى ، وفي اواخر القرن الثامن عشر ، عقدت الجزائر معاهدات مع كل من الولايات المتحدة ، وانجلترا ، وهولاندا ، والدانمارك ، ولم تكن الجزائـر في علاقاتها الدولية اقل اعتبارا ، او ابخس وزنا مــن حيث القوة وكمال السيادة ، وخصـائص الدولـــة المستقلة عن اية دولة اخرى شرقية او غربية .

هذه هي الجزائر ، الدولة التي عــاشت حـرة مستقلة عبر القرون والاجيال ، ولكن فرنسا تنكـــر ـ بوقاحة ـ وجودها حين احتلالها لارضها ، وتزعـم ـ من دون حيـاء ولا خجـل ـ انهـا ما جـاءت الى الجزائر الا لتنعم عليها بنعمة المدنية والحضـــارة . . فليـس اكثر افتراء على التاريخ من هذا الزعم الفرنسي الاستعماري المكشـوف

وليس يصــح في الاذهـــان شـيء
اذا احتـــاج النهـار الـى دليـــل

دوافع الاحتلال الحقيقية :

لننظر ـ اذن ـ ما هي الدوافع الحقيقية التـي التي دفعت بفرنسا الى الاعتداء على الجزائر واحتلالها ارضها

والجواب على هذا السؤال نستطيع ان نستخلصه بسهولة من اعمال فرنسا في ارض الجزائر ، منذ شروعها في غزو بلادنا الى حد اللحظة التي نعيشها ، والتي يقوم فيها الكفاح بيننا وبينها :

اولا – كانت فرنسا تهدف الى ايجاد (متسع حيوي) على هذه الضفة الغربية من البحر الابيض المتوسط التي لاتفصل بينها وبين اوربا الا مسافة قصيرة ، وفي ذلك تدعيم لسياستها وهيبتها لدى الدول والشعوب الاروبية ، وفوق ذلك ما قدرت انها تستطيع ان تستحوذ عليه من خيرات ارض الجزائر وثرواتها ، واموالها التي انتهبتها فعلا من خزانة الدولة اثر احتلال العاصمة ، وهذا الدافع سياسي واقتصادي في آن واحد ، والمشاريع الاستعمارية لا تقوم غالبا الا على هذين الاساسين ، وقد صرح الجنرال (جيرار) وزير الحربية الفرنسية اذ ذاك على اثر نزول قواته الغازية في الساحل الجزائري قائلا : (ان هذا الاحتلال يستند الى ضرورات هامة جدا ، اذ يرمي الى فتح منفذ واسع لتصريف بظائعنا ، وايجاد مجالات واسعة للفائض من اهالينا ، وتصدير منتجات صناعتنا وتبادلها مع منتوجات اخرى غريبة عن ارضنا وجونا . . . .)

وصرح وكيل العلاقات التجارية ، مستحثا حكومته على غزو الجزائر ، فقال : (ان المنافع المادية التي تعود على فرنسا من احتلال الجزائر – بصرف النظر عن ملايين الفرنكات الذهبية التي تزخر بها الخزانة الجزائرية – انفع واجدى لفرنسا من كل عمليات الغزو الاقتصادي التي قامت بها حتى الآن . .)

اغتصاب الارض :

وبعد ان رسخت اقدام الاستعمار الفرنسي في ارض الجزائر ، عمد اقطابه الى تطبيق عمليات رهيبة ، ترتكز على سياسة عنصرية قاسية ، يراد من ورائها ابادة شعب كامل عن طريق التجويع والتفقير ، وسلب كل ما في ايدي ابناء الوطن من ارض او ثروة او متاع ، واقصائهم بصفة جماعية نحو المناطق الصحراوية القاحلة ، ليقضوا هناك جوعا وعطشا ، ولذلك امتدت يد المستعمرين الى مصادرة ملايين الهكتارات ، من اجود واخصب انواع الارض من ذويها ، ومنحها دون مقابل لشراذم الافاقيين النازحين من فرنسا الى الجزائر .

ويتجلى هذا العدوان الشنيع ، في التصريح الذي ادلى به المرشال (بوجو) يوم 14 مايو سنة1840 وهو من ابرز القواد العسكريين الذين قادوا حملة الغزو ضد الجزائر ، قال : (في كل مكان ، وحيثما وجدت الارض الطيبة الخصبة ، يجب وضع المعمر فيها ، دون السؤال عن اصحاب الارض . . .)

غارة صليبية :

ثانيا – بالاضافة الى ما اسلفت حول الباعث السياسي والاقتصادي الذي اغرى فرنسا باحتلال الجزائر ، يوجد عامل آخر له اهميته القصوى عند الفرنسيين الذين تميزوا دوما بتعصبهم الديني ، ذلك هو العامل الصليبي . . . الذي كان يستهدف من اول يوم استئصال شافة المسلمين ، ومحق الدين الاسلامي من الوجود ، فالغزو الفرنسي لم يكن يرمي في حقيقته واهدافه الى الاستعباد السياسي ، والاستغلال الاقتصادي فحسب ، ولكنه كان يرمي ايضا الى محو كل اثر للاسلام وتعاليمه ولغته ، ويتضح هذا مما صرح به الدوق (دوكلير) احد وزراء فرنسا اذ قال : (كان احتلالنا للجزائر اخذا بثأر الاهانة التي لحقت بممثل فرنسا ، وارضاء للمسيحيين وذلك بابادة المسلمين ! اشد اعدائهم طغيانا) ويستطرد قائلا (ولسنا بحاجة الى اقتناع جديد بانه لا سبيل الى استقرار الامن في الجزائر ، الا بابادة اهلها عن بكرة ابيهم . . . .)

وفي نداء موجه الى المبشرين الذين رافقوا الجيش الفرنسي ، ليقوموا بدور الغزو الروحي والمعنوي ، الى جانب الغزو العسكري ، يقول فيه الجنرال (دوبرمون) (لقد جئتم لتعيدوا معنا فتح الباب على مصراعيه لتدخل المسيحية الى افريقيا ، واننا لكبيرو الامل ، ان تعم ديانتنا هذه الربوع قريبا)

هذه هي السياسة العنصرية الفظيعة ، التي انتهجتها فرنسا ، من اول يوم وطئت فيه اقدامها ارض وطننا ، وهي سياسة قائمة على السلب والنهب والاغتصاب ، ومحاولة ابادة شخصية الشعب

الروحية والمادية ، باساليب وحشيـة ، تبرأ منهـا الانسانية ، ويتنزه عنها كل ذي ضمير انساني حي .

فماذا كان رد الفعل الجزائري ازاءها ؟

مقاومة دائمة . . وكفاح لا ينتهي . .

عند ما صممت فرنسا على تنفيذ مؤامرتهـا الدنيئة ضد الشعب الجزائري وحكومته ، تلك المؤامرة التي كانت تستعد لها ، وتحيك خيوطها منذ عـدة سنين ، قبل حادثة المروحة المصطنعة .. وحينمـا باغتت الداي بابتداء الهجوم غير المنتظر ، كان الشعب في غفلة من امره ، لم ياخذ للدفاع اهبتـه ، ولا اعـد للنزال عدته ، ولكن سرعان ما افاقته صدمة الاعتداء من غفوته ، وايقظه الغدر الفرنسي من غفلته ، فهب لمواجهة اعدائه ، والذود عن كيانه بكل ما عهد فيه من شجاعة واقدام وتضحية ، بالرغم من استسلام الداي للمحتل ، وتركه سفينة الوطن بين يدي الاقدار هـذه الاقدار التي ابت الا ان تظهر على مسرح المقاومـة الشعبية الجزائرية ، ذلك الرجل المجاهد ، الذي يعـد اول من رفع علم الكفاح في شمالنا الافريقي ، ضـد الاحتلال الاجنبي المغير ..

لقد برز الامير عبد القادر من بين صفـوف الشعب ، ونزل الى الميدان ليقود كفاح هذا الشعـب ضد المحتل الغاصب ، وليسجل في صفحات التاريخ الجزائري اسمى ما عرفه الناس من آيات البطولـة ، وشدة الصمود في المقاومة ، بعد ان حمله الشعـب مسؤولية القيادة الحربية والسياسية ، واولاه ثقتـه الكاملة فبايعه على السير في ركابه ، والانقياد لاوامره . فيا ما اجله من بطل مقدام ، وهو ينهيأ لمنازلة عدوه ، وينشد من شعره الحماسي :

اذا كانـت الابطـال بالجيـش تحتمـي
فـبـي يحتمـي جيشـي وتمنـع ابطالـي

سلـي جنس الفرنسيس (كذا) تعلمي
بـأن منايـاهـم بسيفـي وعـوالـي

ان فرنسا كـانت تمني نفسهـا بانهـا ستجـد الجزائر لقمة سائغة الابتلاع ، هينة الهضم ، فاذا بهـا تجد امامها بطلا مغوارا ، قد آثر الموت في ساح الوغـى دفاعا عن الوطن ، على الخنوع والاستسلام ، وتجـد امامها شعبا ابيا ، يانف من الذلة والهـوان ، ويؤثـر الفناء في عز وشمم ، على الحياة الحقيرة تحت رايـة الاستعمار الاجنبـي

وامام هذه المقاومة التي ابداها شعب الجزائـر مدة سبعة عشر عاما ، وفيمـا والاهـا من الاعـوام ، لجات فرنسا ــ كما عهد منها قديما وحديثا ــ الـى اقتراف ابشع انواع الاجرام ، ضد سكـان القـرى والمداشر والمدن ، تماما كما تفعل اليوم ضد شعبنـا المجاهد ، وقد سجل عليها التاريخ نماذج من الفظائع الوحشية التي ارتكبتها اثناء عمليات الاحتلال ، ستبقى وصمة عار في تاريخها الى الابـد .

ونود هنا ان نشير الى بعضها بايجاز كما سجلها بعض الفرنسيين انفسهم في كتبهم ، حتـى لا نتهـم بالتحامل عليها ، وقد وصف المرشال (سانت ارنـوا) احداها في رسائله فقال (ان بلاد بني مناصر رائعـة حقا ، وهي احدى المناطق الفنية التي شاهدتها فـي افريقيـا ، فالقرى والمساكن متقاربة جدا ، لقد حرقنا ودمرنا كل شيء . . كم من نساء واطفال لاجئين الى ثلـج الاطلس قد قضوا من البرد والبؤس . .)

وذكر (كريستيان) صاحب كتاب افـريقيـا الفرنسية (ان الجيش الفرنسـي بقيـادة الجنـرال « روفيقو » قام بذبح جميع افراد قبيلة العوفية وهم نيام في ليلة 6 ابريل سنة 1832 ، فيقـول (وهكـذا ابيد كل من كان حيا ، دون تمييز بين الشاب والشيخ ، او بين الذكر والانثـى . . .)

وفي كتاب (رسائـل جنـدي) وصـف فرنسـي احدى العمليات المريعة فقال (عند منتصف الليـل ، وتحت ضوء القمر ، كان قد اشتغل قسم من القوات الفرنسية في اضرام نار جهنمية ، اننا نسمع الانـات المتقطعة المنبعثة مـن الرجـال والنساء والاطفـال والحيوان ، وطقطقة الصخور المحترقة وهي تتساقط وتمتزج بطلقات الاسلحة المستمـرة ، في هـذا اليـوم حدث اعنف صراع بين الانسان والحيوان ، فعنـد الصباح ، وبينما كنا نخلي مداخل الكهوف ، فوجئنـا بافظع مشهد يقع عليه النظر ، لقد وجدنا في داخـل الكهوف جثث الثيران والاغنام والحمير المندفعـة بغريزتها الى استنشاق الهواء الذي حرمت منـه في الداخل ، وقد تكتلت بين هذه الحيوانات وتحتهـا جثث النساء والاطفال والرجال الخ . . .)

حـرب عنصريـة دينيـة :

هذا قليل من كثير من اساليب الابادة الفرنسية التي كانت تسعى لمحق العنصر العربي في الجزائر ، واحلال العنصر الاروبي النازح محله ، بغية استعادة بناء الامبراطورية الرومانية في افريقيا ، التي انهار آخر جدار فيها على يد الفاتحين العرب ، في الوطن المغربي . ان فرنسا قد راودتها الاحلام الخادعة ، والاماني الكاذبة ، في مسخ عروبة الجزائر ، حتى تصبح في زعمها جزءا من الوطن الفرنسي ، فوضعت لذلك تصميما استعماريا ، قام على محاربة الدين الاسلامي ولغته ، بدون هوادة او لين ، فحولت اعظم المساجد في اهم المدن الكبرى الى كنائس ، وبعضها الى ثكنات ، كما فعلت في العاصمة وقسنطينة ، واستولت على جميع مخصصات الاحباس الموقوفة على تلك المساجد وبقية المعاهد الدينية والعلمية ، واعتبرت اللغة العربية لغة اجنبية في دارها وبين ذوي رحمها ، يتوقف تعليمها على اذن خاص من ادارة الشرطة ، لا يمنح الا بشروط مرهقة ، فاذا تعذر تطبيقها ، عمدت السلطة الى غلق ابواب المدرسة في وجه الاطفال الجزائريين ، وزجت بالمعلمين في غيابات السجون ، وحاكمتهم كما يحاكم المجرمون .

لقد تسلطت على كل صغيرة وكبيرة في شؤون الدين الاسلامي ، منتهكة بذلك قانون فصل الدين عن الدولة الذي يطبق على الديانة المسيحية واليهودية ، ولا تراعي له حرمة ازاء الاسلام ، امعانا في اهانته والمس بمقدساته ، ومصادرة حريته في ارضه .

ان شعب الجزائر قد قاوم الاحتلال في الماضي ، وما انفك يقاومه في الحاضر ، ولن يفتأ يقاوم في المستقبل لان رصيده من عمق الايمان بحقه لا ينفد ، ولان ايثاره للتضحية من اجل حريته وكرامته لا يحد بزمان .

ان مقاومته المثالية لن يعتريها وهن او ضعف ، بل هي تزداد قوة وصلابة على مر الايام ، لانها مقاومة منبثقة عن ارادة الشعب ، وتستمد كل عناصر قوتها من الشعب ، وارادة الشعب من ارادة الله .

وقد اراد هذا الشعب ان يفتك حريته واستقلاله ويستخلص كرامته وعزته وسيادته عن طريق الكفاح ، ومن اجل ذلك اقدم على حمل السلاح يوم فاتح نونبر سنة 1954 ولن يضعه من يده ، حتى يحرز على النصر الكامل بعون الله وقوته .

خـاتـمـة :

ونود ان نختم هذا العرض التاريخي بالاشارة الى ما ينبغي للعرب عامة ، وابناء المغرب العربي خاصة ان يستخلصوه من هذه الذكرى من العبر والمثلات ، عسى ان يحفزهم ذلك الى التعاون الحقيقي ، والتضامن الفعال من اجل مواصلة النضال المشترك في جميع المجالات ، حتى يتحرر كل جزء من ارضهم ، ويسترجعوا كامل سيادتهم في اوطانهم **« وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »** .

من وصايا عمر في السلوك

عن عمر رضي الله عنه انه قال لرجل وهو يعظه لا تكلم فيما لا يعنيك واعتزل عدوك واحذر صديقك الامين الا من يخشى الله ويطيعه ولا تمش مع الفاجر فيعلمك فجوره ولا تطلعه على سرك ولا تشاور في امرك الا الذين يخشون الله .





نظم الشاعر هذه القصيدة مدة اقامته الاجبارية بالكونغو الاوسط ، وهو ينظر الى الوادي في ثورته ، والى ثبات تلك الشجرة النائمة بشاطئه والتي لاتزعزعها امواجه . فاستمد منها ايمانا بان قوة القهر الاستعماري لا تؤثر في العزائم الصادقة، واليوم وقد قامت الثورة بالكونغو ، واعترف له باستقلاله ، وهو يغالب دسائس الاستعمار ، فمن المناسب ان تسجل « دعوة الحق » ارتسامات الشاعر وتصديق الاحداث .

طغيت فلم تترك لحدك شاطئا ... وثرت فلم تترك لشطك غابا
وسرت كما الحيات في الرمل تلتوي ... فصورت من فوق التراب كتابا
وغالبت اوهام السراب فاصبحت ... حقائق من ماء الحياة صوابا
وخالطت طيات السحاب فاصبحت ... مجالي عبث في الجبال عذابا
اراك مثالا للجلال مصورا ... ورمزا لجد لا يطيق دعابا
وكنت ارى الوادي جمالا مشوقا ... فعرفتني منك الجلال مهابا
رايتك في طبع الخريف محطما ... لكل الذي يلقاه حيث اصابا
وفي كل يوم منك تبدي عواصفا ... تزعزع اركان الجبال غضابا
رايتك تبدو مثل أشمط ناصع ... وان كنت تخفي في المشيب شبابا
تناصر لي فيك الوجود وانما ... تصور من معنى الوجود خطابا
وساءلت عنك الشعر يوما فقال لي ... سأعطيك من كل المعاني نصابا

وما انت الا الدهر في نزواتـه   اتعرف للدهر الخطير متابا ؟

هدوء كايام المودة حينما   تناول كاسات الامان عذابا

وهيج كايام الكفاح اذا التوت   طرائق حرب لا تغب غلابا

طموح كما شاء التعاظم مالك   وشوق الى كسب الحياة نهابا

وعجز كما شاء القناعة جائع   يثور على اطرافه فيحابي

على ان في تلك العبوسة بسمة   كبسمة ليث حين يكشر نابا

وفي الليث من سر الجمال مظاهر   وان جهلت من كل من يتصابى

اذا نحن جسمنا الطبيعة لم تجد   لديها منارا ثاقبا وشهابا

وما الحسن الا في المعاني مخبأ   يسرك ان كشفت عنه نقابا

ولولا فتور في الفتاة محبب   لكانت رسوم الحسن فيها سرابا

تعمق معاني الحسن في كل مظهر   لتدرك سرا في الحياة عجابا

ولا تنسك ثورات الحياة فانها   بناء وان كنا نراها خرابا

تعود تقاسيم الرعود تحديها   اناشيد من اقوى البيان عذابا

ولا ترهبن شتى العواصف انها   هجاء لمن لا يتقون صعابا

عجبت من الوادي وطغيان حده   فاسمعني الوادي المحق خطابا

* * *

لاعجب من قدري لديك ، شجيرة   تقوم بحدي لا تخاف عبابا

وكم مرة حاولت قلع اصولها   ولم آلها دفعا لها وضرابا

وارسلت موجاتي عليها محطما   ولكن موجاتي تعود ضبابا

تعيش انفرادا في ثبات معاند   يرى الضعف عجزا والتاخر عابا

وكم مثلها حطمت دون تأهب   واكثر منها قد جعلت خرابا

وكم من صخور غالبتني فاصبحت   باحضان موجاتي الغضاب ترابا

ولكنها اعيت علي فلم اجد   سبيلا يؤديني لها ورحابا

اراها امامي ضاحكا بي هازئا   متى فتحت ازهارها تتصابى

وفي كل يوم تستطيل عروقها   بعمقي وبقلبي هززهن رقابا

قد اتخذت قواي ماء حياتها   وعاشت بموجي جيئة وذهابا

* * *

الا ايها الوادي صدقت معلما   وابديت فصلا حاسما وجوابا

فاين احتكام القاهرين اذا غدا   معاني في نفس الضعيف عذابا ؟

اذا آمن المستضعفون بنفسهم   اطاقوا كفاحا دائما وحرابا



وافتنا هذه القصيدة العذرية الرقيقة التي جادت بها قريحة الدكتور الاديب تقي الدين الهلالي يعارض بها القصيدة الغرامية المشهورة للاديب الاندلسي ابن زيدون فاحببنا ان نتحف بها قراء دعوة الحق في عددها الممتاز :

هل بعد عشر مضت بالبين تكوينا   يغير الدهر يوما حكمه فينا
وهل ظلام الاسى الغاشي لانفسنا   يجلوه نور ابتهاج من تلاقينا
متنا ونحن مع الاحياء بعدكم   من لوعة واسى قد كاد يفنينا
وما لنا باعث الا لقاؤكم   فالبين يقتلنا والوصل يحيينا
فالشمس ليست بشمس بعد بعدكم   والبدر ليس ببدر في نواحينا
عم الظلام فلا نور يلوح لنا   الا سنى امل يبدو احايينا
يامن لقلب غدا بالشوق محترقا   يذيقه الوجد آلاما افانينا
يا جنة كان فيها عيشنا رغدا   ولذاتها من رحيق الانس تسقينا
رضوانها بالرضا والبشر يلحظنا   وماء كوثرها السلسال يروينا
وريح ازهارها بالعطر تبهجنا   وظل اشجارها الالفاف يؤوينا
وخمرها دون غول السكر تشملنا   والطير فوق افانين تغنينا
والدهر في سنة والسعد منتبه   حال بها شرقت غيظا اعادينا
حتى اتانا مريد البين يخدعنا   بالاكل من دوحة الآمال يغرينا
لما اكلنا من المحظور بان لنا   انا اقتطفنا رزايانا بايدينا
فاصبح الوصل بينا والصفا كدرا   والانس حزنا وكاس الراح غسلينا

وقد هبطنا وامر الله ليس له / رد الى الارض اشتاتا مثاوينا
فالشمل مفترق والهم مجتمع / والشوق يبسطنا والياس يطوينا
لو كان شوق مقل جسم صاحبه / لكان عن طائرات الجو يغنينا
وان عتبنا على الايام جفوتها / او اشتكينا لها مما يعنينا
فقد عتبنا على من ليس يعتبنا / وقد شكونا الى من ليس يشكينا
لا ياس من رحمة الوهاب ان له / لطفا بعاصفة الباساء مقرونا
عسى الذي قد شفا يعقوب من حزن / ورد ملك سليمان سيشفينا
يا نازحين وهم فى القلب قد سكنوا / وغائبين وهم فى الذكر تاووتا
انا نحييكم مع كل شارقة / وكل غاربة دوما فحيونا
وطالما هب من ارجائكم ارج / مع الصبا فملا طيبا مغانينا
ما سرنا بعدكم شيء يلذ لنا / الا وذكراكم تاتي فتشجينا
ولا غفونا غرارا فى مضاجعنا / الا وطيفكم باد يناجينا
وزادني حزنا علمي بانكم / مثل الذي انا لاقيه تقاسونا
نعلل النفس بالآمال نبسطها / حينا وتغلبنا اشجاننا حينا
فالقلب منفطر والدمع منهمر / والصبر منعدم والشوق يبرينا
انا قرانا الاسى يوم النوى سورا / لكننا لم نلق الصبر تلقينا
بان الحبيب فلا شيء يصبرنا / عنه ولا شيء فى الدنيا يسلينا
من كانت الراح والاوتار تشغله / فما اقام على الحب البراهينا
والحب ذو درجات لاتعد وقد / حزنا اعاليها بين المحبينا
خلع العذار غدا فى الحب مذهبنا / بحنا استرحنا ولم نعبأ بواشينا
حتى لقد عدل العذال عن عذل / لما راوا قولهم بالحب يغرينا
وليس يشقي وصال بات مختلسا / والقلب يخفق خوفا من مراعينا
والحب دون عفاف لابقاء له / فليس غير الهوى العذري يرضينا
احبابنا ما شككنا فى وفائكم / ولا نرى انكم فينا تشكونا
وان يكن خال بعد دون وصلكم / فانتم على وداد لا تحولونا
ونحن نعلم لاريب يخامرنا / بانكم مثل ما نلقي تلاقونا
والغدر فى الحب ذنب ليس يغفره / الا الذي حاد عن نهج المحقينا
لا خير فى ثقة ليست مبادلة / بين المحبين اخلاصا وتمكينا
عليكم من سلام الله اطيبه / ما غنت الورق فى الاغصان تلحينا
وفاح مسك وما هب النسيم على / روض يضاحك فيه الورد يسرينا
وما تحرك قلب من صبابته / فعاد تحريكه بالوصل تسكينا

بمناسبة ذكرى تأسيس القرويين

معقل الملّة

للشاعر المدني الحمراوي



حصن توقل ذروة الاحقاب … كالطود في متموج صخاب
يبلي الزمان وليس يبلى عمره … ما زال غض ملامح واهاب
قهر القرون فالمته مهابة … وكذا تكون مهابة الغلاب
هبت اعاصير الدهور بقربه … وشموخه كالطود بين هضاب
تتعاقب الاجيال حوله رابضا … بين الخطوب وتحت كل ضباب
ما نال من عزماته وشموخه … عصف الزوابع او هياج عباب
لاذت بحوزته المنيعة ملة … فغدت بامنع معقل وجناب
وتفتحت ازهارها في حضنه … وتناسقت في منظر جذاب
وتنمت روح الامان بظله … فترعرعت في تربة الاخصاب
وتأرجت نفحاتها حتى غدت … تنشي وتنعش روضة الالباب
وبدت لها في المغربين عجائب … ملات روائعهن كل كتاب

*

يا معهدا قد اشرقت في جوه … زهر الهدى وكواكب الاداب
سبق المعاهد حين اوقد شعلة … ومشى يقود الركب في اعجاب
افدي حصانا شيدتك على تقى … تبغي جزيل مبرة وثواب
ذهبت بفضل نقيبة قد جللت … بالفخر كل عقيلة وكعاب
هن النساء اذا صلحن تفتقت … عن فعلهن عظائم الاحقاب
واذا راين فرايهن مسدد … واذا رمين اصبن عين صواب
واذا بنين المجد جاء مؤزرا … واذا هدمن فلا تسل بخراب
اين الايادي من يد ابقت على … روح الكتاب ومهجة الاعراب ؟
اسدت الى دين الهدى ولسانه … ما ليس يحصر فضله بحساب
فتالقت انواره بين الورى … وتغلغلت في وهدة وهضاب
واستمسكت بعراه كل جماعة … كانت تكابد كثرة الارباب

فتوحدت دينا ودنيا امة كادت يمزقها هوى الاحزاب
وتعربت فى لمحة حتى غدت للعرب اصدق شيعة وصحاب
وغدت لها بالمغربين مواقف طاب الحديث بهن كل مطاب
وقفت بوجه الدهر تملي امرها وتقول : دالت دولة الارهاب
وتأسست فى الارض دولة وحدة بالحق جاءت فى اجل كتاب
تبنى على الحق الصريح حياتها وعلى السواء وصالح الاسباب
وتدين بالرحمن وحده خالقا لا هيكل يبنى ولا انصاب
وترى الحياة فضائلا يسمو بها عيش الورى عن خسة ومعاب
والناس فيها اخوة ، انسابهم موصولة الاحسان والانساب
لا يستبد الاغنياء بما لهم او يركب الفقراء متن شغاب
لكنه الاحسان يمحو خلة وخصاصة ويعين كل مصاب
والعقل مرجع من اراد حقيقة لا باطل من مرية وكذاب
فالعقل والدين الحنيف تعارفا وتجاوروا فى الفة الاصحاب
ما هو الا رحمة سعدت بها امم الورى من خالق وهاب
بزغت على الآفاق نورا ساطعا بالحق يجلو ظلمة الالباب
ويضيء من سبل الحياة مجاهلا راعت بكل مخاطر وتباب
الناس فيها هالكون اذا بغوا وتجاوزوا فى الامر حد صواب
وشريعة الرحمن تعصم جمعهم من غائل الاهواء والاوصاب
جاء الكتاب بهديها متالقا بين القيوم وباطل خلاب
كشفت عن الدنيا شقاوة محنة القت شدائدها بكل رحاب
الحق والايمان اس بنائها وتحرر من شهوة وكذاب
وشعارها عدل يشرف شانها لم تنتشر بمكايد وحراب

*

كم للملك على المعاهد من يد بيضاء ترفل فى نفيس ثياب
لكنها ترجو المزيد وتبتغي عونا يشجع همة الطلاب
ومعاهد الدين الحنيف اذا علت نلنا بها فى العز كل طلاب
واذا هوت فالشؤم فينا واقع يغزو البلاد بمحنة وعذاب
تلك المعاهد عصمة ودعامة وامانتا من قاصم الاصلاب
فتداركوا اصلاحها ان شئتمو عز الحياة وعزة بمآب
وتداركوا الطلاب فى اخلاقهم فقد التووا فى مهمه وشعاب
ماذا ترجي منهموا ان اصبحوا يوما ائمة شيبنا وشباب !

*

يا ايها العلماء اين جهودكم للدين والاصلاح والاحساب ؟
هلا اعتبرتم بالمشايخ قبلكم لم يرقبوا فى النصح اي عتاب

كم صارحوا بالحق كل مضلل ... وترصدوا للنكر بالابواب
وتحملوا كيد الطغاة بعزمة ... لا تستكين لصولة الارهاب
هذي الحياة تجددت احوالها ... واتت بكل غريبة وعجاب
فتجددوا فى فكركم وتحرروا ... من ربقة التجميد والاغراب
ودعوا القشور الى اللباب فانما ... تلك القشور سراب كل يباب
صونوا الامانة اذ حملتم عباها ... واستسهلوا فى الامر كل صعاب
ذودوا عن الدين الحنيف وبشروا ... بشريعة القرآن خير كتاب
وامشو الى الميدان دون تردد ... لا تقبعوا فى البيت والمحراب
فى كل واد علموا وتحدثوا ... حتى يعم النصح كل جناب
ان الشباب تحيرت افكاره ... وراى الهداية مثل لمع سراب
فالله فيه ، فعالجوه تهذبوا ... جيلا مريض الفكر والاعصاب
اعماه عن نهج الهداية بهرج ... من خادع التمدين والالقاب
لا تطمعوا فى هديه بلسانكم ... لكن بصالح قدوة ومتاب
ان الائمة اصلحوا بسلوكهم ... قبل السؤال وقبل كل جواب
فمتى نراكم تضربون بسيركم ... مثلا لهذا الجيل والاعقاب ؟
انتم حصون الدين انتم جنده ... انتم حماة فضائل الاداب
ولديكمو الفصحى ترجى نصرة ... حتى تعود لعزة وشباب
فتحركوا ان الخطوب تفاقمت ... ودهت بكل بلية ومصاب
فتن توزعت العقول وفرقة ... وتفرنج فرس البلاد بناب
وتهتك كشف الحياة سفاهة ... وتبرج وصم العفاف بعاب
وتعجم فى منطق ومظاهر ... ومفاسد غمرت بسيل لعاب
والملحدون تنمرت ذؤبانهم ... لما اختفت عنها ليوث الغاب
كاد السعار يحز فى احشائها ... ويشب نار الحقد فى الاقتاب
فتنبهوا ـ علماءنا ـ من غفلة ... ان الحوادث انذرت بخراب
لاتقعدوا عن نصرة الحق الذي ... لقي الهوان بباطل الاذناب
ان « الرسالة » تستحث جهادكم ... كي تستقر امورنا بنصاب
تلك الرسالة طوقت اعناقكم ... بعهودها فى مشهد وغياب
والمعهد القروي حصن دعاتها ... من غيركم فى تلكم الاعتاب ؟
فاستلهموا تاريخه وتذكروا ... وقفاته فى سالف الاحقاب
واسترجعوا بشباتكم امجاده ... ان كنتمو حراس ذاك الباب
هيا الى العمل المفيد فاننا ... عفنا كلاما دونما اتعاب
والله ينصر حزبه ان اخلصوا ... وينيلهم شرفا وحسن مآب

بعد عشرين عاماً

للشاعرة الفلسطينية : فدوى طوقان

غدا ، في ليالي الشتاء الطوال الكئيـب   ـة ، عبر ازدحام السنين
وقد يبس الزنبق الابيض الغض ،   وارفض بين غضون الجبين
غدا ، اذ يجف الرحيق الشهي   ويذوي الربيع ويفنى العبير
فتقتل هذي السنون الغوالي   ويذبل هذا الشباب النضير

غدا ، حين تنساك درب الغرام   وقد حسر الدهر ظلك عنها
فتنكر وجهك حين يلوح   وتنكر وقع خطاك عليها
وتمسي لديها غريبا كأن لم   تكن منك يوما ، ولا كنت منها
وترجع انت وما في يديك   سوى لفتات الحنين اليها

غدا ، حين تبخل شمس الربيع   عليك بدفء الشعاع وتبقى
رهين صقيع الماء كأن   برودة كهف سحيق القرار
مضت تترب فيك وئيدا   وتغزو كيانك عرقا فعرقا
وانت بقايا رماد خبت   فلا نار فيك ولا بعض نار

غدا ، حين يركض نهر السنين   بعيدا بعيدا وما من رجوع
لامواهه وهي تجري وتجري   وتنصب في بحر هذا الوجود
فيلقفها ذرة ذرة   وتفنى باحضانه وتضيع
وانت تحدق عند المصب   وتأسى على ذاهب لا يعود

هنالك سوف تعيدك للامـ   ـس ، مهما نأى ، لفتة الذكريات
وتلقى فتى اسكرته الحياة   فلون بالطيش احلامها
هناك سيمثل في ناظريك   الكليلين ظل لطيف فتاة
وتبسم انت ، وفي تنهدة   تقول : سقى الله ايامها

وتأخذ ديوان شعر قديم   لشاعرة غيبتها القبور
وتقرأ ابياته فتشم   عبير شبابك بين السطور
ستلقى شبابك في كل سطر   ندي الحواشي طريا غرير
وفي كل حرف تعود الحياة   لاشياء كنت بها تزدهي
هنالك تعلم أن ربيعـ   ـك باق بشعري فما ينتهي



يا حبيبي . ذكريات الامس لم تبرح خيالي
كيف تغفو مقلتي عن حبنا عبر الليالي

لا تلمني ، ان ترامت بي امواج البعاد
لا تملني ، لم يزل يخفق للحب فؤادي

غير ان القلب هزته نداءات شجية
صعدتها فى دجى الليل قلوب عربية

وجفون مسها الضيم ، ففصت بالدموع
فاستطارت شعلة الحب لهيبا فى ضلوعي

وتراءت لي وراء الدمع اعلام البشائر
فوهبت الحب قربانا وبايعت الجزائر

يا حبيبي . ربعنا بالامس . ربع الذكريات
انه مأوى ذئاب كدرت صفو حياتي

كان عشا للتناجي ، كان انسا ونعيما
ثم أمسى للرؤى الفضة نارا وجحيما

يا حبيبي . كم فرشنا الربع وردا وزهورا
كم بنينا من هوانا لامانينا قصورا

فتعالت صرخة الرعب باشباح المنايا
واستحال الورد شوكا ودماء وضحايا

يا حبيبي لم اخن عهدي ولا خنت هوايا
غير ان الحب امسى ثورة بين الحنايا

لك حبي فى ذرى (الاطلس) فى تلك الروابي
فهناك الافق الرحب لاحلام الشباب

لك حبي يوم تعلو بسمة النصر ثرانا
ويذيب الليل والالام فجر من دمانا

سوف القاك مع النصر ، وافراح البشائر
سوف نبني عشنا فى ظل تحرير الجزائر

القاهرة فى 20\4\1960

دعاء

للشاعر نيازي أحمد نديم

من الاعماق فى طهر
دعاء رحت ابعثه
لعل الله يرحمني
ويهديني مدى عمري

عبدت الله في النور
وفي الاقمار ان بزغت
وفي الافاق والنجمات
وما اسدت الى الدنيا

عبدت الله في الحسن
وفي الأعطاف والنحر
وفي اللالاء والفلك
وحيث الحب لا يخبو

عبدت الله في النشر
وما في الشاد من لحن
وفي آياته العظمى
بديع كل ما انشا

الهي . . انت ياربي
وتعلم ما بأطوائي
فرحت الى السماء ادعو
وارجو منك مغفرة

الهي . . كم انا خجل
وما لي ما اقدمه
الهي . . انت تعلم ما
الهي . . انني أدعو

اناادي منزل الامر
لرب الشمس والبدر
وينجيني من الضر
نعيم العيش واليسر

وفي الاشجار والزهر
وفي الاضواء والسحر
. . والافلاك . . والفجر
من الآمال . . والخير

وما في العين من قهر
وفي الخال . . وفي الثغر
ونور الكوكب الدري
بقلب حافظ السر

وفي الأوزان والشعر
وفي الالفاظ من در
وما قد دق عن فكري
ه ربي . . زاد عن حصر

علمت بكل ما يجري
وكل سريرة تسري
من الأعماق في طهر
اذا ما جئت في الحشر

لأنك زدت في أجري
سوى الواهي من العذر
خلقت . . ونحن لا ندري
فجنبني اذى الشر



قالوا : السلافة ، قلت : في موجاته ... والخلد ان سألوا فمن نفحاته
نهـر اذا الريح الجنوب غدت بـه ... خلت المباسم ما على صفحاته
وكأنما حصباؤه الحيرى بقايـ ... ـا أكؤس كسرت على ضفاته
الطافحات الفارغات فما يصـ ... ـن عطاءه المكنوز في دفقاته
سكن الربيع جباله وسهولـه ... سكنى الطيور قريرة دوحاته
يحكي خريره شدوها ورقيقها ... ولربما تحكيه في نغماته
ما ارضه الا ابتسامات الضحـ ... ـى او حلم طفل في ربيع حياته
ورؤى الاصيل تتيه سابغة الجمـ ... ـال فكلها شفق على لوحاته
فاذا نظرت فقصة في سندس ... واذا ارتشفت فكوثري لذاته
تجثو الخمائل ركعا بضفافه ... كالساقيات الماء من موجاته
وكأنما صفصافه خصلات شعـ ... ـر قد تراقص في حمى رباته
ما شابت الايام حوله لا ولا ... عمر الجبال اضيع في جنباته
فيه المشيب وقد تذوق ثغرها ... ماء الشباب ندى على زهراته
وبه المضيع وقد تفيأ جنة ... الله اقطعها رؤى جناته
متعطف في كل فاتحة الجوا ... نب بالشذى ، سكران من عبقاته
من نبعه حتى اتى (المحراب) جنـ ... ـب (العقبة الحمراء) في صلواته
فطلول (لكسوس) نهاية دربه ... فالبحر منحلا على عتباته

* * *

(لكسوس) يا بلد الخرائب والطلـ ... ـول على السفوح الخضر من ربواته
البوم ينعق في رحابك باكيا ... اعليك ام يبكي مصب حياته ؟
اني اراها ها هنا مطوية ... وغريقة في البحر في ظلماته

يا شعـرة بيضـاء فى راس الزمـــ ـــان تطل بين السود من شـراتـه
عجبـا يمزقـك البلـى انت التـي نهر الشباب ممرغا وجناتـه . . .
. . وشفاهه فى مهمه تعلوه بالقـــ ـــدمين دوم رواحـه وغداتـــه
ابنيت ثـم درست قبـل مسيلـه برحى اخيك الدهـر فى غمراتـه ؟
ومتـى عرفنـا الدهـر ظل مسالما ولـو ان من يغـزوه من اخواتـه ؟
لـو كنت جئت الارض بعد مجيئـه لسقاك مـاء الخلـد من موجاتـه

❊ ❊ ❊

نحس كبت بك عنـد وثبك للعـــلا ايـامـه ورمتـك ســود بنـاتـه
سوت ذراك مع الثرى صخرا واشـــلاء فانت اليـوم بعض شتاتـه
حتـى غـدوت مطيـــة مهتوكـــة نهب البلـى والرعـد فى صعقاتـه
الناظـرون يـرونهـا فى ربضهـــا والشلو يشكـو العـي تحت لداتـه
اسـا تبقـى من شوامخ عـــزة ذهب الزمـان بهـن فى كـراتـــه
والاس آخـر ما يـدوم من البنـــــاء وان يكن اولى مراس بناتـــه
واراهـا اسـا للجديد من الشـــــوامخ فى العلاء تتيه من نفحاتـه

❊ ❊ ❊

شبهتهـا قلبـي ذوت احـلامـــه الا بقـايـاهــن فى زفــراتـــه
ولكـم تحـن النفس احيانـا لمـن علاتهـــا قـد شابهت عـلاتـــه
لا فـرق اه انهـا خرست وبكـــــي قلبـي المافـول مــن نجماتـه
لا تعـذلـوه باكيـــا فلـرب بـــــاك دمعة تهـوى جبـال شكاتـه
ان الـذي جعـل الجـراح بليـــة لـم يحـرم المجروح من آهـاتـــه



جبال تطوان

للأستاذ : محمد الصباغ

اعتلي واشمخي ، وتسلقي جبال النجوم ، والمي على قممك خيال العلى ، وتغلغلي ، وفي طفولة الضوء امرحي وتمرغي .

سكناك قصر من ثلج وغمام ، وزوارق من ضوء واشفاق ، وأراجيح تطيش بالاسحار والامساء .

ملاعب أنت للالوان ، ومعادن الظلال ، ومناجم الصدى ، عليك تسمر النجوم وتضطجع .

في الصباح انت امواج من فل ورغى ، وفي الظهيرة براكين تقذف جمر القرنفل والورد ، وفي المساء قوافل من جمال تسير متجهة نحو الغروب ، وهي تجتر اعشاب النور .

كم من مرة وقفت امام قوافلك وهي تتحرك متئدة ، صابرة ، ومن حركاتها تتخذ اشكالا وصورا عديدة هي غاية في الروعة والجمال .

اشكال منها ما رق واستطال كأشباح الليل ، ومنها ما تضخم وتعملق ، ومنها ما ابيض وتناثر صخورا صخورا تحسبها حديقة تماثيل (*) ، او معرضا ضم نحوتا جميلة على شتى الاوضاع . فهناك ام ضمت بين ذراعيها بحنان دامع طفلتها ، وهناك نحوت تمثل طائفة من الغزلان تعدو شاردة في غير اتجاه وفي عدوها رقة وحنان ، وهناك مجموعة اخرى منها ما هو على شكل اشرعة ، ومنها ما هو على هياة قطيع من الحملان .

الف تمثال وتمثال تبهرك اوضاعها العديدة ، واشكالها المتنوعة ، ويؤسرك تنسيقها ، ويخلبك فنها الذي ما مسه ازميل ، ولا يد انسان . فسبح باسم المبدع الاكبر !

لو كان باستطاعتي ان ادعو جميع فناني العالم لمشاهدة هذا المعرض القائم في جبال بلادي تطوان ، لما ترددت دقيقة واحدة ، وانا شديد الايمان بانهم سيندهشون له معجبين ، وسيضربون حوله الخيام شهورا وشهورا ، منهم من سينقل قطعه الوانا على لوحاته ، ومنهم من سيبعثها لحونا من أوتار ربابه ، ونقرات عوده ، ومنهم من سيرسلها شعرا في ديوانه .

حسبي منك يا جبال تطوان ان احفر جمالك في اسطوانة ، فاختصر علاك ، وعمقك ، وصمودك ، وعرضك ، وعمرك ، وتاريخك ، وما في تاريخك من اساطير وقصص عن الاجيال الساحقة التي مررت بها ، والشموس والاقمار والافلاك التي تمنطقت بها ، والنجوم والدراري التي استضات بها .

(*) تكثر هذه التماثيل في حضن جبل المر ، الذي يبعد عن تطوان بنحو 3 كلم ـ

حسبي منك يا جبال تطوان ، ان افرغك بكل ما فيك فى اسطوانة ، فأحملك فى يدي ، وانت فى حجم انشوده، او موال، او قبلة حبيبة، فتعيشين معي فى بيتي، فى اعز مكان يعيش فيه احبائي : مع دواوين شعري ، ووصية والدي ، ورسائل حبي وصور حبيبتي ، واشباح ليالي ، وأحلامي الفوالي .

فطوبى لي بك يا جبال بلادي ، وانت فى بيتي . انام كل ليلة على اغرودة علاك وجمالك ، مستعرضا على ترنيمة اسطوانة تأريخك الذي هو تأريخي ، وتأريخ تطوان ، بل وتاريخ الوجود ، ومستمعا الى سكينتك الرمادية العالية ، وهمساتك المستنة ، واحاديث كهوفك واغوارك ، وما تسلقك، وجنح حولك، وخطا فوقك ، وبنى بيوته واعشاشه فيك من طيور ، ونسور ، وحيوانات ، وحشرات ، فأتخيلك تارة وانت منكمشة على نفسك ، خائفة من البروق والرعود التي تجري فوقك ، وتارة اخرى تمرحين وتداعبين الحجال والارانب ، وانت فى نشوة عارمة معها ، ومع باقي ناسك .

هكذا اختصرتك ، فحفرتك فى اسطوانة ، ليسهل على توزيع جمالك فى العالم بكل اللغات .

فلتعشي فى كل بيت لحنا ، صفيرا ، رقيقا ، مستديرا، يروي اساطير بلادي وجمالها، ونخوة علاها.

جمعية اصدقاء تطوان

تحت هذا الاسم تأسست فى تطوان جمعية تهتم بشؤون تطوان وتاريخها وتخليد مآثرها وعاداتها على غرار الجمعيات المؤسسة فى المدن والعواصم الاخرى .

ويتكون مجلسها الاداري ومستشاروها من شخصيات لامعة الاساتذة : الحاج محمد بنونة رئيسا ، والتهامي الوزاني وكيلا ، ومصطفى بن عبد الوهاب كاتبا عاما ، وعبد السلام الفاسي الفهري مساعدا له ، وعبد القادر الرزيني امينا ، وعبد السلام الصفار حافظا للوثائق .

اما المستشارون فهم الاساتذة : ح محمد داود ، وعبد السلام بناني ، ومحمد العلوي ، وعبد الكريم بنونة ، وعبد السلام المؤذن ، وستعمل جمعية اصدقاء تطوان الذين هم ابناؤها ! على تحقيق اهدافها بواسطة المحاضرات والترجمة والنشر والمعارض والمهرجانات والرحلات والزيارات ، فنرجو لها التوفيق والنشاط فى تحقيق اهداف مشرفة وتعاون مثمر مع باقي الجمعيات والهيئات حتى يزدهر الوطن بمجهودات ابنائه البارين .

قصة العدد

من أدبنا القديم

محنة غرام

في ادبنا القديم كثير من القصص تتضمن عناصر القصة الفنية والمغزى الاجتماعي الاصيل والمواقف الانفعالية التي تتاثر بها النفوس وتحس بدافع داخلي يدفعها لانقاذ الموقف فلو التفت هواة قراءة القصص من شبابنا واهتموا باخراج هذا الفن من ادبنا الصميم الى الوجود لاغناهم عن كثير من روايات السخافة التي تلعب بعقول الناشئة وتدفعهم الى الانحلال لما فيها من ميوعة وتهتك . ونحن نعرض في هذه الصفحة قصة من مرويات الاصمعي تتضمن غراما ومحاكمة وسجنا وتنتهي باتصال مشروع بين علي بد حاكم لبق ونرجو من المطلعين على ادبنا القديم ان يدلوا برايهم في هذا الموضوع توجيها لافكار الشباب وبحثا عن تراثنا الفكري وادبنا العربي الصميم .

حكى عن الاصمعي « قال دخلت البصرة وانا اريد بادية بني سعد وكان يومئذ واليا على البصرة خالد بن عبد الله القسري فدخلت عليه ذات يوم فرايت قوما متعلقين بشاب ذي جمال وكمال وادب ظاهر ووجه زاهر حسن الصورة طيب الرائحة جميل السيرة عليه سكينة ووقار فقدموه الى خالد فسألهم عن قصته فقالوا هذا لص اصبناه في منزلنا فنظر خالد الى الفتى فاعجبه حسن هيئته ونظافته فقال لهم خلوا عنه ثم ناداه وادناه منه فساله عن قصته فقال ان القول ما قالوه والامر على ما ذكروه فقال له وما حملك على ذلك وانت في هيئة جميلة وصورة حسنة قال حملني على ذلك الشره في الدنيا وكذا قضى الله سبحانه وتعالى فقال له ثكلتك امك اما كان لك في جمال وجهك وكمال عقلك وحسن ادبك زاجر عن السرقة فقال الفتى دع عنك هذا ايها الامير وانفذ ما امرك الله به فذاك بما كسبت يداي وما الله بظلام للعبيد فسكت خالد ساعة يفكر في امره ثم ادناه منه وقال له قد رابني اعترافك بالسرقة على رؤوس الاشهاد وما اظنك سارقا لكن لك قصة غير السرقة فاخبرني بها فقال ايها الامير لايقع في نفسك شيء غير ما اعترفت به عندك وليس لي قصة اشرحها سوى انني دخلت دار هؤلاء القوم فسرقت منها مالا وادركوني فاخذوه مني وحملوني اليك قال فأمر خالد بحبسه وامر مناديا ينادي في البصرة من احب ان ينظر الى فلان فليحضر غدا فلما استقر الفتى في السجن ووضع في رجله الحديد تنفس الصعداء ثم انشد يقول :

هددني خالد بقطع يدي
اذ لم ابح عنده بقصتها

فقلت هيهات ان ابوح بما
تضمن القلب من محبتها

قطع يدي بالذي اعترفت به
اهون عندي من فضيحتها

فسمعه الموكلون به فاتوا خالدا فاخبروه بذلك فلما جن الليل امر باحضاره اليه فلما حضر استنطقه فرآه اديبا عاقلا ظريفا لبيبا ماهرا فاعجبه منه ذلك وامر له بطعام فاكل وحادثه ساعة ثم قال قد علمت ان لك قصة غير السرقة وانت تخفيها وانا لا اكلفك اظهارها ولكن اذا كان غدا وحضر القاضي والشهود وسالتك عن السرقة فانكرها ولا تعترف بها وان كان لا بد لك من الاعتراف فاذكر شبهة تدرا عنك القطع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ادراوا الحدود بالشبهات ثم امر به فاعيد الى الحبس فلما اصبح الصباح لم يبق فى البصرة رجل ولا امراة الا حضر ليرى عقوبة ذلك الفتى ثم ركب خالد ومعه وجوه اهل البصرة من القضاة والعدول وغيرهم فاقامهم عن يمينه وشماله وجعل العامة بين يديه صفوفا وامر باحضار الفتى فاقبل يخطر فى قيوده فلما وقعت ابصار الناس عليه ارتفعت اصواتهم بالبكاء والنحيب على حسن شبابه ووقعت ضجة عظيمة بين الناس وبكى خالد ومن حضر من خواصه لبكاء الناس ثم امر بتسكيت الناس فلما سكتوا قال له خالد ان هؤلاء القوم يزعمون انك دخلت دارهم وسرقت مالهم فما تقول انت قال صدقوا ايها الامير فقال له خالد لعلك سرقت شيئا دون النصاب قال بل سرقت نصابا كاملا فقال له لعلك اخذته من غير حرز قال بل اخذت من حرز مثله فقال لعلك شريك القوم فى شيء منه قال بل هو جميعه لهم ولا حق لي فيه فغضب خالد وقام اليه بنفسه وضربه على وجهه بالسوط وقال متمثلا :

يريد المرء ان يعطى مناه
ويأبى الله الا ما يشاء

ثم دعا بالجلاد ليقطع يده فلما حضر الجلاد واخرج السكين وقد مد يده ووضع عليها السكين والناس يبكون وينتحبون بدرت جارية من صف النساء وعليها ازار وسخ وصرخت صرخة عظيمة ورمت نفسها عليه واسفرت عن وجه كانه القمر اذا ابدر ، والصبح اذا اسفر ، بطرف كحيل ، وخد اسيل ، وثغر افلج ، وحاجب ابلج ، وقد كالقضيب ، وردف كالكثيب ، فلما رآها الناس ارتفعت لهم ضجة عظيمة كاد ان يقع منها فتنة ثم نادت باعلى صوتها ناشدتك الله ايها الامير لاتعجل عليه حتى تقرا هذه القصة ثم دفعت اليه رقعة ففضها خالد فاذا فيها مكتوب

اخالد هذا مستهام متيم
رمته لحاظي عن قسي الحمالق

فاصناه سهم اللحظ مني فقلبه
حليف جوى من دائه ند فائق

اقر بما لم يقترفه لانه
راى ذلك خيرا من فضيحة عاشق

فمهلا عن الصب الكئيب لانه
كريم السجايا فى الهوى غير سارق

فانت الذي لايرتجى اليوم غيره
لدفع ملمات الخطوب الطوارق

فلما قرا خالد الابيات امر الناس بالتنحي من حوله ثم احضر المراة وسالها عن قصته فاخبرته ان هذا الفتى كان عاشقا لها وهي كذلك وانه رأى ان يعلمها بمكانه فرمى حصاة الى الدار فلما سمع ابوها واخوتها وقع الحصاة فى الدار قصدوا الغرفة فوجدوه فيها فلما احس بهم جمع قش البيت وجعله كارة وحمله على عاتقه فمسكوه وقالوا هذا لص ونزاوا به واصر على ذلك حتى لا يفضحني بينهم وهان عليه قطع يده لكي يستر على ولا يهتك لي سترا وانما فعل ذلك لكرمه وفتوته وغزارة مروءته فقال خالد انه لخليق بذلك ثم استدعاه اليه وقبل ما بين عينيه وامر باحضار ابى الجارية فلما حضر قال يا شيخ انا كنا قد عزمنا على انفاذ الحكم فى هذا الفتى بالقطع لكن الله تعالى عصمني من ذلك وقد امرت له بعشرة آلاف درهم لبذله يده وحفظه لعرضك وعرض ابنتك وصيانته لها من الفضيحة وقد امرت لك ايضا بعشرة آلاف درهم وانا اسالك ان تاذن لي فى تزويجها منه فقال الشيخ قد اذنت لك ايها الامير فى ذلك فامر خالد باحضار المال ثم انه خطب خطبة حسنة وقال للفتى زوجتك هذه الجارية باذنها واذن ابيها على هذا المال الحاضر فقال الفتى قبلت منك هذا التزويج ثم امر بحمل المال الى دار الفتى مرفوعا فى اطباق وانصرف الناس مسرورين ولم يبق فى سوق البصرة احد الا نثر عليهما الدراهم واللوز والسكر حين دخلا السوق مزفوفين » .



سوس العالمة

محمد المختار السوسي

السوسيون يكونون عنصرا حيا نشيطا الى اقصى حد فى حياة الشعب المغربي ، وقد انصرفوا فى العهود الاخيرة الى الحياة الاقتصادية فى البلاد ، حيث وقف الاستعمار حائلا بينهم وبين تأسيس المدارس بحرية فى صفوفهم المحبوب ، الا انهم بعد بزوغ فجر الاستقلال خاضوا بعزم ثابت ميدان التكوين العلمي ، فقامت جمعية علماء سوس بمجهود جبار لتربية الشباب والشعب السوسي ، واسندها التجار والفلاحون على السواء بالمال ومختلف الوسائل .

وكتاب « سوس العالمة » للاستاذ الاديب المؤرخ السيد محمد المختار السوسي ، هو حلقة لربط ماضي القطر السوسي بحاضره واعطاء فكرة تامة عن المدارس والمكاتب العلمية ، والمؤلفين والادباء فيه ، والاسر النبيلة التي تزعمت مواكب هذه العلوم .

وتعتبر مقدمة الكتاب التى تقدمها دعوة الحق لقرائها توجيها استنهاضيا للكتاب والباحثين ، لينظم كل فريق حلقة بحث فى ناحيته ، حتى يتكون من مجموعها تاريخ حافل لهذه البلاد المغربية العزيزة ، يزخر بالعظمة والمجد العلمي والادبي وينفي عنها ما الصق بها زمن الفتور من تهمة الضعف فى ميدان العلم والادب فنهنيء الاستاذ الكبير مؤلف سوس العالمة على مجهوده الكبير فى احياء مآثر سوس ونحض الشباب وسائر المثقفين على اقتناء هذه الطرفة الادبية التي تزيده استبصارا بعظمة بلاده .

فــي المغرب حواضر وبواد ، وتاريخه العلمي العام ، لا يمكن ان يتكون تكونا تاما الا من التواريــــخ الخاصة لكل حاضرة من تلك الحواضر ، ولكل بادية من هذه البوادي ، فاذا كان بعض الحواضر فازت بما يلقي على تاريخها العلمي بعض ضوء ينير الطريق للسالكين ، فان تلك البوادي المترامية لا تزال الى الآن داجية الآفاق فى انظار المتطلعين الباحثين ، فهذه تافيلالت ، ودرعــة والريف وجبالة ، والاطلس الكبير وتادلة ودكالة وامثالها ، قد كان لها ماض مجيد فى ميادين المعارف العربية ، فهل يمكن ان يجد الباحث اليوم ما يفتح امامه صفحاتها حتى يدرك ما كان فيها طوال قرون كثيرة من النشــــاط والاكباب والرحلة فى سبيل الثقافة ، فكم سجلماســي ودرعي وريفي وجبالي واطلسي وتادلي ودكالي وشاوي يمر باسمه المطالع اثناء الكتب ، وكم مدارس ، وزوايــا علمية ارشادية فى هذه البوادي لا تزال آثارها الى الآن ماثلة للعيون ، او لا تزال الاحاديث عنها يدوي طنينها فى النوادي ، فأين ما يبين كنه أعمالها ، وتضحيــــة اصحابها ، وما قاساه اساتذتها واشياخها فى تثقيــــف الشعب ، وتنوير ذهنه ، وتوجيهه التوجيه الاسلامي بنشر القرآن والحديث . وعلوم القرآن والحديث ، من اللغة والبيان والفقه وسيرة السلف الصالح لا افيمكن ان يتكون التاريخ العام للمغرب تاما غدا اذا لم يقم ابناء اليوم – والعهد لا يزال قريبا ، ولما تغمرنا امواج هــذه الحضارة الغربية الجارفة – التي تحاول منذ الآن افساد ماضينا بمابكتيه عنا بعض المغرضين من اهلها – بجمع كل ما يمكن جمعه ، وتنسيق ما لا يزال مبعثرا بيــــن الآثار ، ومنتشرا اثناء المسامرات ، فانه لو قام من كل ناحية رجال باحثون يبذل الجهود ، لتكونت بمـــــا

سيهيئونه من التاريخ الخاص لكل ناحية، مراجع عظيمة، سيتكىء عليها الذين سيتصدون للتاريخ العام المستوعب في العالم العربي المغربي غدا ، بله الحوادث والاطوار المتقلبة ، وما هذا الغد ببعيد ، وتباشير فجره تلوح الآن في الافق .

قد يخطر في بال بعض الناس القصيري النظر : ان السجلماسي او الدكالي ــ مثلا ــ اذا تصدى كل واحد منهما لمثل هذا البحث في ناحيته ، ان ذلك من العنصرية الممقوتة التي لا يزال المستعمرون امس يضربون في كل فرصة على وترها لجعل المغرب اشلاء ممزعة ، مع ان هذا العمل ليس من العنصرية في شيء ، فهل اذا توفر الطبيب للتخصص في بحث ما حول عضو من اعضاء الذات ، نلمزه بالعنصرية ازاء الاعضاء الاخرى؟ وهل اذا قام رب اسرة بكل ما تحتاج اليه اسرته بالانفاق عليها وحدها ، وبالدفاع عن حقوقها ، وتحديد املاكها الخاصة يلمز ايضا بالعنصرية ؟ او هل الذين كتبوا عن فاس ومراكش واسفي وطنجة وتيطاون والعدوتين، وخصصوا كل مدينة على حدة ، يلمزون بالعنصرية ؟ ان هذا لخطل في الراي ، وخطا في تقدير الاعمال ، وسد للابواب دون العاملين في ميدان خاص ، وتثبيط لاعمال المجتهدين .

ان لليوم غدا ، وان في الميدان لافراسا مطلقة ، وان ابواب العمل مفتوحة على مصاريعها امام كل من يريد ان يعمل في اي ميدان من الميادين . وقد زالت الاعذار بالاستقلال . وامكن لكل ذي عزيمة ان يعمل فهل للكسالى ان ينتفضوا فيدخلوا في غمار العاملين . عوض ان يملأوا الجواء بالنقد الزائف ، والاعذار الواهية . فعند الممات تظهر التركات ، وانما الاعمال بالنيات ، ومن ابطا به عمله ، فلا يلومن الا نفسه :

اقلوا عليهم لا ابا لابيكم

من اللوم او سدوا المكان الذي سدوا

هذا وانني ــ انا ذلك السوسي المولع بالتاريخ منذ نشاته ــ لابذل كل ما في امكاني للكتابة عن بادية سوس، منذ نفيت اليها في مختتم : 1355 هـ . الى ان افرج عني الافراج التام في مختتم : 1364 هـ . توفرت على ذلك ، وجمعت فيه جهودي ومن لم يتوفر على شيء ويجمع فيه جهوده ، فقلما يعطيه حقه من البحث ، فقد سودت في (الغ) مسقط راسي ، حيث الزمت العزلة عن الناس، اجزاء كثيرة تناهز خمسين جزءا في العلماء والادباء والرؤساء والاخبار والنوادر ، والهيأة الاجتماعية ، وما هذا الكتاب (سوس العالمة) الا واحد من تلك الاجزاء ، وكلها مقصورة على اداء الواجب علي ، من احياء تلك البادية التي سبق في الازل ان كنت ابنا من ابنائها، ويعلم الله انه لو قدر لي ان اكون ابن تافيلالت او درعة او الريف او جبالة او الاطلس او تادلة او دكالة ، لرايت الواجب علي ان اقوم بمثل هذا العمل نفسه ، لتلك الناحية التي تثبت نبعتي فيها ، لانني من الذين يرون المغرب جزءا لا يتجزا ، بل ارى العالم العربي كله ، من ضفاف الاطلسي الى ضفاف الرافدين وطنا واحدا ، بل ارى جميع بلاد الاسلام كتلة متراصة من غرب شمال افريقيا الى اندونيسية ، لا يدين بدين الاسلام الحق من يراها بعين الوطنية الضيقة التي هي من بقايا الاستعمار الغربي في الشرق ، بل لو شئت ان اقول ــ ويؤيدني ديني فيما اقول ــ : انني ارى الانسانية جمعاء اسرة واحدة ، لا فضل فيها لعربي على عجمي الا بالتقوى، والناس من آدم، وآدم من تراب (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم) .

ايه فهذه سوس وجدت من هذا السوسي من يبذل جهوده حول احياء تاريخ بعض رجالاتها ، فليت شعري هل تجد تلك البوادي الاخرى ، بل وبعض الحواضر التي لم يكتب عنها بعد اي شيء . من تثور فيه الحمية المحمودة ، ــ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ــ فيفتح لنا الابواب التي نراها لا تزال موصدة ؟ اننا ايها الفيلالي والدرعي والريفي والجبالي والاطلسي والتادلي والدكالي لمنتظرون . ام يذهب هذا النداء كصرخة الوادي بين ثنايا الصدى ؟

وبعد :

فان تاريخنا لم يكتب بعد كما ينبغي ، حتى في الحواضر التي كتب عنها كثيرون قديما وحديثا ، فهذه مراكش التي كتب عن رجالاتها الزائرين والساكنين شيخنا سيدي عباس ، لم تفز بعد بمن يكتب عن نواح شتى من ادوارها التي تقلبت فيها ، وقد كنت اجمع كتابا في ذلك سميته (مراكش في عصرها الذهبي) مشيت فيه خطوات ، ومقصودي اظهار مراكش كما هي سياسيا وعلميا وادبيا واجتماعيا في عصر المرابطين والموحدين ، وبينما انا مكب على جمع المواد ــ وما اكثرها ــ بمناسبة استيفاء مراكش اذ ذاك سنة1954 هـ تسعمائة سنة ، اذا بالنفي مختتم 1355 نادى مناديه ، فتركت على رغمي الكتابة حول مراكش الذهبية التي هي العاصمة العظيمة للمغرب ردحا من الزمان الى الكتابة حول تلكم القبائل التي تكانف هذه القرية الساذجة المغمورة (الغ) (ولو خيرت لاخترت) فقدر لبني هذه القرية ومجاوريهم ولاساتذتهم

ولتلاميذهم ولاصدقائهم كتاب (المعسول) الذي يصل الآن ــ وقد كاد يتم تخريجه ــ عشرين جزءا ، حوول فيه ان يكتب باسهاب كل ما امكن عن السوسيين بادنى مناسبة ، ثم ليس ذلك كله بالتاريخ المطلوب عن سوس، وانما المقصود جمع المواد لمن سيكتبون وينظمون غدا ، وهذا هو الواجب الآن علينا . واما ان ندعي اننا حقيقة نكتب التاريخ كما ينبغي ، فان ذلك افك صراح ، اولا ترى ان كل من عرف فاسا وما ادراك ما فاس ، واستحضر ما كتب حولها من القرن الرابع الى الآن كتابة ناقصة مجحفة ، وقد ادرك الدور العظيم الذي مثلته فاس لا في المغرب ولا في شمال افريقية وازاء الاندلس فحسب ، بل وفي العالم الاسلامي اجمع ــ يوقن ان تاريخها لم يكتب بعد كما يجب ان يكتب ، فكثيرا ما اقول لو تصدى باحث او باحثون لكتابة تاريخ فاس من نواحيها كلها ، لفتحوا صفحة عربية ذهبية وهاجة طافحة ، ربما تنسي كل ما كتب عن بغداد ودمشق والقاهرة. فهذا تاريخ تطوان لاخينا الاستاذ محمد داود المستوفي ثماني مجلدات ــ وهو التاريخ الوحيد المستوفي لكل جوانب التاريخ المطلوب عن احدى مدننا ــ قد كتب عن مدينة ربما كان جانب خاص من جوانب فاس اطفح واعظم من جميع جوانب تطوان في ادوار حياتها ، ولكن حسن التنسيق من المؤلف ، والاكباب على جمع النظائر ، وحسن الترتيب ، ومحاولة الاستيعاب، قد كست الكتاب حلة براقة اخاذة بابصار المطالعين ، ومن لنا بمثله عن فاس الماجدة العظيمة التي هي فاسنا كلنا لا فاس سكانها وحدهم ، لان فاس ، فاس العلم والفكر والحضارة ، لا فاس شيء آخر ، وان تاريخ المغرب الثقافي العام ليكاد كله يكون كجوانب الرحى حول قطب فاس ، فها انذا اعلن عن سوس هذه التي اولعت بها ، ان اول عالم سوسي عرفته سوس فيما نعلمه هو وجاك ، وهل هو الا تلميذ ابي عمران الفاسي ، وانا هذا الذي احس مني بهذه الهمة ، هل كنت الا تلميذ علماء آخرين واجلهم واكثرهم تاثيرا في حياتي الفكرية العلماء الفاسيون، وليت شعري كيف اكون لو لم اقض في فاس اربع سنوات قلبت حياتي وتفكيري ظهرا لبطن ، ثم لم افارقها الا وانا مجنون بالمعارف جنون قيس بن الملوح بليلاه ، حتى نسيت بها كل شيء .

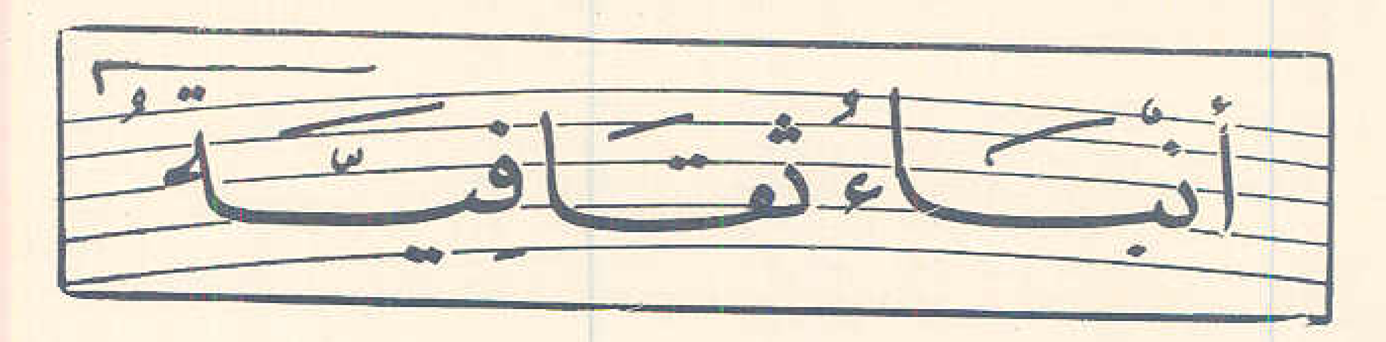
فهكذا فاس ، فهي الاستاذة امس واليوم ، وكل انحاء المغرب تلاميذ لها ، ولعل القارىء عرف ما ذكره المراكشي الصميم صاحب (المعجب) عن فاس في وقت ازدهار مراكش في عصرها الذهبي من الاشادة بها ، وتلك مزية كتبت لفاس من الازل ، فكانت احق بها واهلها ، افيجمل بمدينة مثل هذه تطفح بالشخصيات النادرة من العباقرة ما بين لغوي واديب وطبيب وفيلسوف ومشرع ومصلح وسياسي وصوفي ، زيادة عما مضى فيها من الحوادث التي كانت هي الحاسمة في كل ادوار الحوادث في المغرب كله ، ان تبقى بلا تاريخ مفصل منظم ، مع ان ذلك في دائرة الامكان ؟

وبعد فليسمع صوت هذا السوسي كل جوانب المغرب من اعظم حاضرة الى اصغر بادية ، فلعل من يصيخون يندفعون الى الميدان ، فنرى لكل ناحية سجلا يضبط حوادثها ، ويعرف برجالها ، ويستقصي عاداتها، فيكون ذلك ادعى الى وضع الاسس العامة امام من سيبحثون في المغرب العام غدا على منضدة التاريخ المغربي العام .

ثم اقول لاخواننا السوسيين من الشباب : لاتظنوا انني في كل ما سودته مما كتبته في مختلف تلك الاجزاء الخمسين مما خصص بالرجال او بالحوادث او بالرحلات اديت به حتى عشر المعشار من الواجب عن سوسهم ، فانني ما عدوت ان جمعت ما تيسر جمعا بسيطا كيفما اتفق ، بقلم متعثر ، واسلوب لا يزال يتتبع خطا اساليب القرون الوسطى ، الا انني لا انكر انني حاولت فتح الباب فبذلت جهدي ، وافرغت وسعي ، فكم غلط لابد ان يقع لي ، وكم من تحريف او تصحيف اسم لاجرم واقع فيه ، فعليهم ان يقوموا ليستتموا وليصححوا الاغلاط ، فهل من مجيب ؟

وبعد ، اليك ايها القارىء الكتاب الاول من تلك المجموعة التي تضم زهاء خمسين جزءا تحت اسماء مختلفة ، فادع الله ان ييسر موالاة نشر تلك الكتب كلها بفضله وكرمه . على انها لا تنشر الا بتنشيطك واقبالك عليها .

وقد كان ينبغي لهذا الجزء ان يخرج الى الوجود منذ جمع سنة 1358 هـ . ولكن تاخر خروجه فكان في تاخره فوائد منها تنقيحه والزيادة فيه بحسب الامكان، وها هوذا الآن وفق ما تيسر لا على حسب ما ينبغي من التحرير . فما كان فيه من فائدة جديدة في عالم التاريخ المغربي ففضل من الله على مغربي لا يطول اخوانه بزيادة علم او فضل ، وما كان فيه من تقصير ــ وهو لابد كائن ــ فان التقصير من لوازم البشر . واي عمل من اعمال البشر يسلم . فالله الموفق والستار للعيوب .



* مساء يوم الخميس 30 يونيه الماضي عقدت رابطة كتاب المغرب العربي الكبير اجتماعها العام بكلية الآداب بالرباط حضره عدد كبير من الادباء . وافتتح الجلسة الاولى الدكتور محمد عزيز الحبابي بعرض مسهب عن فكرة هذه الرابطة واهدافها في خلق دولة للفكر في المغرب العربي الكبير ، ثم تلاه محمد الصباغ بقراءة نصوص القانون العام الذي طرح من بعد للمناقشة التي دامت اكثر من ساعة ونصف ، واخيرا تأسست لجنة مكونة من 13 عضوا .

وصباح يوم الجمعة 1 يوليو انعقد في نفس المكان اجتماع آخر حضره هؤلاء الادباء: محمد عزيز الحبابي ، عبد الكريم غلاب ، محمد الصباغ ، محمد التازي ، محمد بن تاويت ، مولود المعمري ، ادريس السغروشني محمد شنهو ، بالاضافة الى مندوبين عن السفارة التونسية وهما صلاح عبد الله ، والهادي بن الحسين، ومندوب عن السفارة الليبية بالمغرب وهو السيد عبد الرزاق عمير . وبعد المداولات في شتى شؤون الرابطة انتخبت اربع لجان : لجنة المجلس الاداري ، ولجنة تحضير المؤتمر العام ، ولجنة الاتصال ، ولجنة القانون.

ويتركب المجلس الاداري من : محمد عزيز الحبابي ، مولود المعمري ، عبد الكريم غلاب ، محمد ديب ، محمد الصباغ ، احمد الصفريوي ، محمد بن شنهو .

ولجنة تحضير المؤتمر العام تتركب من : عبد الكريم غلاب ، محمد بن تاويت ، عبد الرحمن السائح ، احمد الصفريوي ، محمد الحبابي ، محمد الصباغ .

وتتركب لجنة الاتصال من : مولود المعمري ، صلاح الدين عبد الله ، الهادي بن الحسين، عبد الرزاق عمير ، ابراهيم الكتاني ، ادريس السغروشني .

ولجنة القانون تتركب من : احمد الصفريوي ، محمد بن شنهو ، بياض ، المهدي المنبهي .

* قام بتمثيل المغرب في اعمال اللجنة الدائمة للجامعة الدولية للشؤون الهندسية السيد الزاوي ، رئيس قسم المحافظة العقارية ومصلحة السياحة بالمغرب ، والسيد عبد اللطيف بن البشير . ودام هذا المؤتمر الذي عقد ببروكسيل من 23 الى 28 من الشهر الماضي .

* تنوي جريدة «العلم» الرباطية تاسيس مشروع لطبع كتاب في كل شهر .

* ستصدر للقاص المغربي عبد الجبار السحيمي مجموعة قصصية ، وذلك في فصل الخريف المقبل .

* سيقوم معهد مولاي الحسن بتطوان بطبع الجزء الثاني من كتاب « تاريخ تطوان » للاستاذ محمد داود.

* شارك المغرب في مؤتمر التعليم العمومي بجنيف الذي عقد في اوائل هذا الشهر . وكان الوفد المغربي متركبا من وزير التربية السيد عبدالكريم بنجلون الذي انتخب رئيسا للمؤتمر ، واحمد بن اليمني ، واحمد السالمي ، وعبد الحفيظ الادريسي . وقد اشتمل جدول اعمال هذا المؤتمر على النقط الاتية .

1 ــ برنامج التعليم الثانوي .

2 ــ تنظيم تعليم خاص بالاطفال غير العاديين .

3 ــ دراسة تقارير الوفود المشاركة حول النشاط التربوي في بلادهم خلال السنة المنصرمة .

* زار المغرب أخيرا وفد ثقافي تونسي يضم السيدين عبد العزيز ادريس، محافظ متحف «الباردو» بتونس والمهندس المعماري السيد يعقوب. وتدخل هذه الزيارة في نطاق برنامج المبادلات الثقافية بين المغرب وتونس .

※ عقد في الشهر الماضي مهرجان دولي للسينما ببرلين ، ومثل فيه المغرب السيد احمد بن الهاشمي مدير المركز السينمائي المغربي .

※ قرر مجلس امانة العاصمة العراقية اطلاق اسم « المغرب » على الشارع الذي تقع فيه السفارة المغربية ببغداد ، تقديرا للروابط الودية بين البلدين .

※ اسست جماعة من البرتغاليين جمعية باسم « اصدقاء المغرب » تهتم بعناية جميع المظاهر المغربية .

※ اصدرت مجلة « فوتوراكاونتي فسوى ستابوس » الاميريكية عددا خاصا عن المغرب ، ومظاهر الحياة فيه . كان له صدى كبير في نفوس القراء .

※ سيقوم خلال هذا الصيف فريق يتالف من سبعة طلاب من جامعة لندن بجولة دراسية في المغرب تستغرق شهرين .

※ تم اخيرا اتفاق ثقافي بين الاتحاد السوفياتي وغينيا . وبمقتضى هذا الاتفاق سيرسل الاتحاد السوفياتي الى غينيا اساتذة للتعليم الثانوي واطباء وطلابا ، كما تنص الاتفاقية على تبادل البرامج الاذاعية .

※ سيعقد في كاناكري بتاريخ 25 من هذا الشهر مؤتمر المعلمين العالمي .

※ يوجد تحت الطبع للاستاذ سليمان مصطفى زبيس – مفتش الآثار الاسلامية بتونس – كتابان احدهما عن النقوش بمدينة المنستير ، والثاني عن نقوش تونس العاصمة .

※ يقوم الشاعر الليبي على الرقيعي باعداد ديوانه الجديد للطبع .

※ اصدرت مكتبة الفرجاني بليبيا كتابا يتناول حياة البطل الشعبي غومة ، من تاليف الاستاذ مصطفى المصراطي .

※ يقوم وزير خارجية السودان السابق محمد احمد محجوب بترجمة اشعار الروائي والشاعر الروسي بوريس باسترناك .

※ صدر للدكتور احسان عباس ، الاستاذ بجامعة الخرطوم كتاب دراسي تاريخي بعنوان « العرب في صقلية » .

※ عثر العلماء الالمان خلال قيامهم بالحفريات في مدينة قديمة بالسودان على معهد يعود الى الفي سنة

※ فرغ الكاتب السوداني ابو بكر خالد من كتابة قصته « الاعواد الخضر » .

※ وقع العثور اخيرا على خمس قصائد لم تنشر للشاعر علي محمود طه .

※ سيعقد بالقاهرة في اواخر اكتوبر المقبل مؤتمر عربي للقانون والعلوم السياسية يدعى اليه اساتذة الجامعات ورجال القضاء ونقابات المحامين وغيرها . وسيبحث المؤتمر الملكية الادبية ، والفنية ، والملكية الصناعية ، والقضاء الاداري في الدول العربية ، والاتجاهات الحديثة في السياسة الدولية واثرها في العالم العربي . وتم تاليف لجنة لتنظيم المؤتمر من الدكاترة احمد سويلم العمري ، وخليل عثمان ، ورمزي سيف ، واحمد عز الدين ، وعدنان الخطيب .

※ قرر مجمع اللغة العربية بالقاهرة الاشتراك في مؤتمر المستشرقين الذي سيعقد في موسكو في 9 غشت المقبل . وسيمثل المجمع الدكتور ابراهيم بيومي مدكور .

※ سيقوم الدكتور باهور لبيب بالقاء سلسلة من المحاضرات في موضوع الآثار الفرعونية بالمانيا الغربية .

※ عين اخيرا مصطفى الشهابي ، ومحمود تيمور ، وفؤاد الشايب ، ومحمد سعيد العريان اعضاء بالمجلس الاعلى للفنون والآداب بالقاهرة .

※ يقوم الاستاذ فريد جبر بنقل كتاب « المنقذ من الضلال والموصل الى ذي العزة والجلال » للغزالي الى اللغة الفرنسية .

※ اجتمعت بالقاهرة اللجنة العليا للشؤون الدينية برئاسة احمد عبد الله طعيمة ، وزير الاوقاف لبحث مشروع الموسوعة الاسلامية ، التي سيشترك فيها 500 عالم من جميع انحاء العالم الاسلامي ، وستترجم الى جميع اللغات .

※ نعت الاسكندرية الدكتور مصطفى صفوت استاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية

※ بدات اذاعة القاهرة فى تسجيل « المصحف المرتل » على اسطوانات لحساب وزارة الاوقاف بها .

※ افتتح فى الاسكندرية مركز الدراسات اليونانية الهدف منه توثيق العلاقات الثقافية بين اليونان و ج . ع . م . وسينظم مركز دراسات فى اللغة والثقافة اليونانية .

※ تنتهي وزارة الثقافة والارشاد القومي من وضع اول مسرح عائم فى الشرق .

※ رسم الفنان الروسي حافظ محمدوف 50 لوحة تمثل احياء القاهرة ، وبور سعيد ، وقناة السويس . واقام معرضا لها فى أذربيجان ، وتحدثت الصحف السوفياتية طويلا عن هذا المعرض .

※ وافقت شعبة العلوم الاجتماعية بالقاهرة على عقد المؤتمر الدولي لدراسات الجغرافية فى آسيا وافريقيا فى ج . ع . م . وتقرر تخصيص مبلغ 12 الف جنيه لنفقات المؤتمر .

※ يعقد المؤتمر الثاني للكتاب الافريقيين والآسيويين بالقاهرة من 12 الى 20 دجمبر المقبل . وسيشترك فى هذا المؤتمر ادباء البلاد العربية ، والمتغربون العرب ، ومنظمة اليونسكو ، وسيكون الموضوع الرئيسي الذي يبحثه هو الادب والنهضات الحديثة فى آسيا وافريقيا ، ودور الترجمة فى التقارب الفكري والوجداني بين شعوب آسيا وافريقيا .

※ تعتزم الدكتوره سهير القلماوي جمع قصصها التي نشرتها فى المجلات والصحف المصرية منذ فترة طويلة فى كتاب مستقل .

※ « كتاب الذخائر والتحف » للقاضي الرشيد الزبير فى القرن الخامس الهجري ، حققه عن نسخة فريدة الدكتور محمد حميد الله، وراجعه الدكتور صلاح الدين المنجد .

※ حقق الاستاذ عبد الستار فراج معجم الشعراء للمرزباني ، وصدر اخيرا .

※ « قصص من دانتي » كتاب جديد من مجموعة الالف كتاب ، وهو من تاليف العالم بجوزر ، وترجمة الاستاذ امين حسن كامل .

※ الكتاب الجديد « لسارتر » نقد العقل الديالكتيكي صدر مؤخرا بالعربية فى القاهرة .

※ « المصابيح الزرق » عنوان قصة طويلة صدرت للاستاذ محمود تيمور .

※ « منادمة الادباء » كتاب جديد للاديب وديع فلسطين ، تناول فيه بالدراسة مجموعة من الادباء المعاصرين .

※ تقوم الفنانة شريفة فتحي باعداد ديوان شعري مصور بعنوان « الريشة تنثر الشعر » وهو اول ديوان شعري مصور .

فامام كل قصيدة لوحة فنية مصورة تصور القصيدة .

※ تقوم لجنة مشروع السنوات الخمس لاحياء التراث القومي بحصر المخطوطات العربية ، تمهيدا لاعداد وبيان ما ينبغي نشره من هذا التراث .

※ اصدر الدكتور يوسف محمود الشواربي كتابا بعنوان « الاسلام فى امريكا » ويتناول فيه انتشار الاسلام فى القارة الامريكية ، والمراحل التي مر بها ، وذلك كله فى اسلوب بديع .

※ اصدر الشاعر المصري عزيز اباظة مسرحية تمثيلية جديدة بعنوان « قيصر »

※ «مهرجان الشرق» اول ديوان للشاعر ابراهيم عبد عيسى يضم قصائد ترجمت الى الانجليزية والفرنسية والالمانية . وقد صدر فى الايام الاخيرة .

※ ستصدر دار جمعية الشبان المسيحية كتابا يتضمن انتاج شعراء العربية من اول هذه السنة الى يومنا هذا .

※ تقوم الصحفية اليوغسلافية نادية ارنسك التي زارت القاهرة اخيرا بترجمة بعض الكتب لطه حسين الى اللغة اليوغسلافية .

❊ اكتشف الدكتور محمد عبد القادر كبير مفتشي آثار مصر العليا بئرا أثرية ضخمة أثناء قيامه بتنظيف مقبرة « كيكي » التي ترجع الى عام 6000 ق . م . وترجع اهمية البئر الى ان احجارها الضخمة وجدت مرتبة بنفس الترتيب الذي يضعه الفراعنة ، مما يوحي بأن يدا لم تمسسها منذ بنائها . وينتظر ان توجد بها مومياء هامة تكشف الكثير من غوامض تاريخ هذه الحقبة من تاريخ الفكر الفراعني .

❊ مسرحية « اودلف الصغير او الخدمة الانسانية اقوى من الحب » «لايسن» قام بترجمتها الى العربية الدكتور عبد الله عبد الحافظ متولي .

❊ ترجم الاستاذ عبد الرشيد صادق كتاب « فلسفتي كيف تطورت » للعربية ، وهو من تاليف الفيلسوف البريطاني برتراند رسل .

❊ اعلن المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة عن مسابقة شعرية لنيل جائزة شوقي لعام 1960 .

❊ تصل في سبتمبر القادم بعثة من جامعتي برنستون وميتشجان للاشتراك مع جامعة الاسكندرية لاستئناف تصوير المخطوطات والصور المقدسة في دير سانت كاترين وتسجيلها ودراستها ، ويستغرق العمل هذه المرة ثلاثة اشهر . وقد بدىء به في ربيع 1958 . وقد سبق لجامعة الاسكندرية بالاشتراك مع الجامعتين تصوير 1700 مخطوط قديم في مكتبة الدير بواسطة الميكروفيلم في عام 1949 . وتوجد الآن نسخة من هذا الفيلم في مكتبة خاصة بكلية الهندسة بالاسكندرية .

❊ صدر 42 كتابا للاطفال باللغة العربية في الاشهر الثلاثة الاخيرة . تعتبر هذه النسبة العالية ، وثبة كبيرة اعقبت التنويه بأدب الاطفال الذي جاء بعد وفاة كامل كيلاني . تضم مكتبة الاطفال العربية اسماء مؤلفين كثيرين منهم : محمد احمد برانق، ومحمد عطية الابراشي ، وعبد العزيز عتيق ، وعبد اللطيف واكد ، ومحمد سعيد العريان .

❊ عثر علماء الآثار على تابوت يضم جثة طفل ملكي من ابناء الملكية الرابعة ، ومن المرجح ان يكون ابن الملك « خفرع » الذي بنى هرمه بـ 3166 سنة قبل العهد المسيحي .

❊ انجزت وزارة الثقافة بالقاهرة طبع ديوان بشر ابن ابي حازم الاسدي ، وقد اضيف الى الديوان فهرس الالفاظ اللغوية الواردة في شعره . وقد قام بتحقيق هذا الديوان عزت حسن .

❊ صدر الجزء الاول من القسم الثاني من كتاب « تجريد الاغاني » لابن واصل الحموي ويبدا باخبار معن ابن أوس وينتهي باخبار كعب ابن ابي زهير . وقد حققه الدكتور طه حسين ، والاستاذ ابراهيم الابياري .

❊ صدر في هذه الايام ديوان المرحوم خليل مردم، بمقدمة الدكتور جميل صليبا ، وتولى نشره المجمع العلمي العربي بدمشق .

❊ منع من الدخول الى الاقليم السوري كتاب « اللبن والعسل » من تاليف جورج ميكس .

❊ وجهت مديرية الآثار في دمشق حملة للبحث عن «سميرة». وسميرة مدينة ذات حضارة كانت في النصف الاخير من الالف الثاني قبل الميلاد مركزا للملاقات السورية المصرية ، وكان الفراعنة يزورونها ، ثم اختفت المدينة في العهد الروماني . وبدا التنقيب عنها منذ مدة قريبة .

❊ يحتفل المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب بدمشق ، بذكرى الشاعر ابي تمام ، وذلك عقب الانتهاء من مهرجان الشعر الدوري الذي سيقام بدمشق في هذا الشهر .

❊ انتخب الاستاذان امجد الطرابلسي ، وعدنان الخطيب للعضوية في المجمع العلمي العربي بدمشق .

❊ اعلن مدير الجامعات الشعبية بالاقليم السوري ان وزارة الثقافة والارشاد قررت افتتاح جامعة شعبية في كل محافظة من المحافظات في السنة الدراسية المقبلة.

❊ ستصدر قريبا طبعة ثانية لكتاب « شاعران معاصران » للدكتور عمر فروخ . والشاعران هما ابو القاسم الشابي ، وقدري طوقان المرحومان .

❊ منعت مجلة « العرفان » اللبنانية من الدخول الى الاقليم السوري .

✻ تصدر احدى دور النشر اللبنانية معجما للغة العربية ومشتقاتها يتألف من 19 مجلدا ، بكل مجلد الف صفحة ، وهو مزود بالشروح والرسوم الوافية .

✻ نشر معهد الدراسات الشرقية بالجامعة الاميركية ببيروت كتابا جديدا بعنوان « في نسب الخلفاء الفاطميين » وهو من تقديم حسين بن فيض الله الهمداني .

✻ رصدت وزارة التربية الوطنية اللبنانية مبلغ 36 الف ليرة لبنانية لتجهيز دار الكتب الوطنية ، وشراء كتب ومخطوطات والات لقراءة الافلام وتصويرها

✻ اجتمع في الايام الاخيرة لمدة طويلة اساتذة الادب من بعض جامعات العالم في الجامعة الاميركية ببيروت بقصد المناقشة في الابحاث التي ظهرت في مختلف فروع الادب العربي خلال المائة سنة الاخيرة .

✻ سيفتتح في منتصف هذا الشهر بلبنان مهرجان بعلبك للموسيقى . وستشارك فيه هذه السنة فرق موسيقية وتمثيلية فرنسية ، والمانية ، واميركية . وستخصص فيه حفلتان للفلكلور اللبناني .

✻ وقع العثور في الناحية الشرقية من بناية العازارية ببيروت على آثار رومانية ذات اهمية كبرى .

✻ عكف الاستاذ اديب مروة على كتابة مؤلف عن « فن الصحافة عند العرب » .

✻ نعت لبنان الاستاذ جورج عقل ، وزير التعليم بلبنان سابقا ، واحد رجاله اللامعين .

✻ عقدت هيئة الدراسات العربية في الجامعة الامركية ببيروت مؤتمرها السنوي العاشر . ودام من 16 الى 20 من هذا الشهر .

✻ « هارب من باريس » عنوان رواية طويلة صدرت للدكتور علي شلق .

✻ صدر في الايام الاخيرة كتاب بعنوان « خواطر متمرد » للاستاذ جميل جبر .

✻ « حقائق لبنانية » هو عنوان الجزء الاول من مذكرات الشيخ بشارة الخوري ، رئيس جمهورية لبنان السابق .

✻ صدر للاستاذ سمير شيخلي كتابان اولهما « دون خوان » وهو عبارة عن مجموعة اوبرات عالمية . والثاني مجموعة اقاصيص بعنوان « سهرة بوكير » .

✻ بدات بعثة اثرية برئاسة الدكتور اليجرو ، استاذ علم الآثار في جامعة مانشستر بالتنقيب عن كنوز ذهبية وفضية في خربة قمران الواقعة قرب البحر الميت ، حيث اكتشفت مخطوطات التوارة المنقوشة على لفائف النحاس قبل عشر سنوات .

✻ نشرت مديرية الفنون والثقافة الشعبية بالعراق مجموعة بحوث تاريخية باسم «الخليج العربي» من تاليف محمود علي الداود .

✻ بعد ما ظهر للشاعرة العراقية نازك الملائكة اللاجئة اليوم بلبنان ديوانها « قرارة الموجة » ظهر لها في الايام القريبة كتاب دراسي بعنوان « قضايا الشعر المعاصر » .

✻ تصدر دار الرسالة بالعراق قريبا مؤلفا بعنوان « نظرات في امارة الشعر العربي » لعبد الرحمن محمد علي محتويا على دراسة مستفيضة عن مفهوم امارة الشعر العربي مع استعراض دقيق لاراء كبار ادباء العرب .

✻ يصدر قريبا الاستاذ خضر الولي مجموعة ابحاث تتناول الجانب الفلسفي من تاريخ الامة العربية وتراثها الخالد بعنوان « روض الفلاسفة » .

✻ صدر للدكتور داود سلوم العراقي ديوان بعنوان « 24 ساعة وقصائد اخرى » .

✻ « طلائع الفجر » اسم ديوان جديد للدكتور علي جليل الوردي من بغداد .

✻ بتاريخ 23 يونيه المنصرم عقد المؤتمر الثاني لاتحاد الادباء العراقيين .

* عين من جديد الشاعر العراقي محمد المهدي الجواهري نقيبا للصحفيين العراقيين .

* عثر في منطقة مادبا بالاردن على قطعة من الفسيفساء الملونة التي يرجع تاريخها الى القرن السادس الميلادي . ولما بوشرت عمليات الحفر تكشفت جدران غرفة مستطيلة مزوقة بالفسيفساء الجميلة .

* صدرت بالاردن الكتب الآتية : « من زوايا العدم » لحامد الملكاوي « لظى وعبير » لخالد نصر « مع الشباب » لماجد الجاعوني .

* صدر اخيرا مجلة اردنية باسم « الفجر » تولى رئاسة تحريرها الاستاذ خليل محمود .

* « انتصار الحياة » مجموعة قصصية وفصول في النقد الاجتماعي اصدرها اخيرا الاستاذ مصطفى كتوعة السعودي .

* اصدرت مطبعة حكومة الكويت في ظرف العامين الماضيين 25 مليونا من المطبوعات .

* توفي بمدينة كابي باليابان الموسيقار الاسباني الكبير البرفسور بيدرو بيافردي عن 72 سنة .

* سيعقد المؤتمر الاسيوي الخامس للاذاعة في كولا لامبور عاصمة الملايو ، وذلك في سنة 1962 بعد ما رفض اعضاؤه عقده في تل ابيل السليبة .

* اكتشف الدكتور صلاح الدين المنجد ، مدير معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية 500 مخطوط نادر بايران والمخطوطات تتناول الرياضة ، والفلك ، والفلسفة عند العرب . ومعظم هذه المخطوطات يرجع الى القرنين الثالث والرابع الهجري . واهم المخطوطات مخطوطة « مسائل حنين بن اسحاق » وهي اقدم مخطوطة في العالم ، ومخطوطة لكتاب « العين » وهي اول معجم عربي لغوي . ومعظم المخطوطات وجدت مكتوبة بخط مؤلفيها انفسهم . وبذلك من الممكن تصحيح عدد كبير من الكتب العربية التي طبعت وبها اخطاء كثيرة . ومن المنتظر ان تلقى هذه الاكتشافات اضواء جديدة على تاريخ العلم عند العرب .

* صدرت في الايام الاخيرة باليونان الترجمة اليونانية لكتاب « الايام » لطه حسين .

* ظهرت اخيرا جزيرة بركانية جديدة في بحر قزوين ، يبلغ طولها 270 مترا ، وارتفاعها اربعة امتار . وقد حدث ذلك في مكان يبعد بن 175 كلم جنوب ميناء باكو اثر هيجان بركان بو .

* تقرر انشاء مجلس ثقافي اسلامي باليونان .

* « من الادب اليوغسلافي » مجموعة قصص يوغسلافية ظهرت اخيرا مترجمة الى العربية بقلم الاستاذ لمعي المطيعي .

* يعد الاستاذ محمد مويتس مدرس بكلية الالسن بيوغسلافيا اطروحة لنيل الدكتوراه عن مؤلفات الدكتور طه حسين .

* اتسعت حركة الاستعراب في الاتحاد السوفياتي فصدرت مؤلفات جديدة عن العربية وآدابها . ففي شهر يناير الماضي اصدرت منشورات الاداب الشرقية في موسكو كتاب « حركة الاستعراب في الاتحاد السوفياتي من 1917 الى 1959 » ويتضمن هذا المؤلف استعراضا تاريخيا حول دراسة اللغة والادب العربيين في الاتحاد السوفياتي ، ويضم الكتاب قسمين هما عبارة عن بحث تاريخي وفهرس باسماء الكتب والمصادر ويتحدث الكتاب عن دراسة الادب واللغة العربيين ، وعن عمل المترجمين والمدرسين المستعربين في موسكو ولينينغراد واوكرانيا وفي جمهوريات آسيا الوسطى وبلاد عبر القوقاز .

* ستنشر في الاتحاد السوفياتي في هذا العام كثير من المؤلفات الادبية العربية من الجمهورية العربية المتحدة ، والجزائر واتحاد جنوب افريقيا . ويحتل الادب الافريقي مكانة متزايدة الاهمية في مشاريع دور النشر في الاتحاد السوفياتي .

* يعد معهد الاستشراق باكاديمية العلوم السوفياتية كتابا عن حياة الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري .

* كانت دور النشر في امريكا قد اعدت كشوفا طويلة للشاعر والروائي الروسي بوريس باسترناك الراحل ، بما يستحقه من دولارات عن نشر وترجمة واقتباس مسرحياته وقصصه ومقالاته . وبلغ ما يستحقه باسترناك من امريكا وحدها نصف مليون

دولار . ومن فرنسا مائة الف جنيه ، ومن ايطاليا 90 الف جنيه ، ومن انجلترا 80 الف جنيه . كل هـــذه الاموال حولت الى روسيا قبل وفاة باستنراك بثلاثة ايام ، الا انه رفضها .

✻ صدرت فى موسكو مجموعة اقاصيص عربيــة مترجمة الى الروســية لكتاب لبنانيين وهم : اميـــن الريحاني ، وجبران ، وميخائل نعيمة ، وسلمى صائغ ، ومارون عبود ، ورئيف الخوري ، ورشاد دار غــوث ، وعمر دكروب ، وقدم لها كلافيديا بدراسة عن تطــور الادب اللبناني الحديث ، واثره فى نهضة الادب العربي.

✻ عقدت اخيرا ندوة بين شعراء الاتحـــــاد السوفياتي وشعراء ايطاليا بحثوا فيها الشعــر ودور الشعراء واهميتهم .

✻ عقد مؤتمر فى زوريخ ضد « الضجة » حضره ما ينيف عن 200 من كبار العلمـــاء والفيزائيـــن والبيولوجين والمربين وعلماء النفس درسوا فيه اسباب الضجة ، وطرق تلافيها .

✻ سيعقد فى السويد هذا الصيف مؤتمر عالمي لامراض الجهاز الهضمي ، وسيحضره حوالي الـــف طبيب عالمي .

✻ فى مطلع الشهر المنصرم احتفلت الاوســـاط الموسيقية الاسبانية ودول امريكا اللاتينية احتفـــالا كبيرا بذكرى مرور مائة سنة على ولادة الموسيقـــي الاسباني الكبير اسحاق البينث .

✻ ستفتح الجامعة العربية اول مكتب جديد لهـــا للدعاية فى مدريد .

✻ اقيم فى اواخر الشهر الماضي معرض الصـور الزيتية بمدينة برشلونة لفائدة منكوبي اكادير ، تحت اشراف اللجنة الوطنية لاعانة المنكوبين .

✻ طلبت جامعة مدريد من وزارة المعارف العراقية السماح لوفد من 24 طالبا وطالبة من كلية الفلسفـــة والآداب بزيارة العراق فى رحلة ثقافية للاطلاع .

✻ منحت جائزة « مؤسسة خوان مارش » للطب لسنة 1960 الى الدكتور كرلوس خيمنث دياث .

✻ ستصدر دار « اكيلار » للنشر والتوزيـــع بمدريد جميع دواوين الشاعر الاسباني الكبيـــر فثينطي الكسندري فى مجلد واحد .

✻ توفى مؤخرا بباريس الشاعر الفرنسي بيير رفيردي عن سبعين سنة .

✻ فقدت فرنســا شاعرها المبرز بول فور عن 88 سنة .

✻ اكتشف خبراء الآثار فى قبرص معبدا انشـأه اليونانيون لعبادة « افروديت » الهة العشق والجمال .

✻ عقد بمدينة « ريكيجيو » بشمال ايطاليا المؤتمر الاول الاوربي لتاريخ المستشفيات ، وذلك بتاريخ 13 يونيه المنصرم .

✻ فى انجلترا توجد جمعية الادباء الساخطيـــن يتزعمها المسرحي جون اوسبورون ، والكاتب الشاب كولن ويلسون مؤلف « الغريب ومكانة الانسان الغريب» وفى اميركا جمعية اخرى للادباء الساخطين واسمهـــا جمعية « الجيل المتمرد » او « المتمردون » او « المردة » ويتزعمها جاك كيرداك مؤلف قصة « الطريق الطويل » وانتشرت كتب هؤلاء الساخطين فى اوربا واميركا . وشعار هذه الجمعيات « انظر وراءك فى سخـــط » . وهذا الشعار هـــو اسم المسرحية التي الفها جـــون اسبورن ، ويترجمها حاليا الاستاذ جلال العشرى مـــن الاقليم المصري .

✻ اكتشفت اخيرا ورقة بخط الشاعر شكسبير، وتوجد اليوم تحت الدرس من طرف الباحثين .

✻ اخترع فريق من علماء بريطانيا عقلا الكترونيا لا يكتفي بحل المسائل التي تعرض عليه ، بـل يبحث لنفســه عن المزيد من المشاكل ليقوم بحلها .

✻ اثارت مجلة التايمز فى ملحقها الادبي نقاشـــا حول من هو صاحب الفضل فى دراسة العلوم الاجتماعية هل هو مونتيسكيو ام غيره من الفلاسفة ؟ وذكـــرت المجلة ان « روح القوانين » لمونتيسيكيو هو بداية علـم الاجتماع . لكن الاستاذ ليونارد بايجيل بجامعـــة امستردام ، رد على محرر التايمز قائلا : اقرا الطبعـة الانجليزية من المقدمة لعبد الرحمن ابن خلدون ، تعرف

ان هذا المفكر الشرقي العظيم هو اسبق الناس الى محاولة وضع القوانين لعلم التاريخ ، ومحاولة تفسير الظاهرات الاجتماعية .

* يقوم الكاتب الانجليزي سومرست موم فى الوقت الحاضر برحلة اطلق عليها « رحلة الوداع » بعد ان احتفل بعيد ميلاده السادس والثمانين . والجولة التي يقوم بها سومرست موم فى الشرق الاقصى يعتقد انها آخر جولة فى حياته .

* ستصدر مطبعة لندن مجلة عربية جديدة فصلية اسمها « الاصوات » ، وستوزع فى كافة انحاء الشرق الاوسط وبريطانيا . وسيظهر العدد الاول منها فى فصل الخريف المقبل . وقد قال محررها المستر دينس جونسون ديفيز ان مجلة « الاصوات » ستكون بمثابة منبر للكتاب البريطانيين والعرب وغيرهم من الذين يهتمون بالحركة الادبية الحديثة والفنون والثقافة . وستعنى هذه المجلة بالتطورات الاجتماعية والاقتصادية وتعالجها بطريقة غير سياسية ، كما ان قسما كبيرا منها سيكرس لمراجعة الكتب العربية والانجليزية الجديدة ، ودرسها دراسة عميقة بالاضافة الى المقالات الادبية العديدة .

* ظهرت فى اميركا الان كتب لها رائحة. فاذا كان الكتاب عن الجريمة كان للكتاب رائحة البارود . واذا كان عن رعاة البقر ، انبعثت منه رائحة الجلد . وكل قصص الحب ودواوين الشعر لها روائح عطرية .

* ارسل المؤتمر الاسلامي مجموعة من المصاحف الى بعض المساجد الاسلامية باميركا .

* ستعقد الدورة التاسعة لمؤتمر طلاب العرب بالولايات المتحدة فى 29 غشت الى غاية 3 سبتمبر . وسيضم ما يقرب عن 700 عضو . وسيشترك فيه 3800 من الطلاب الذين ينتمون الى مختلف البلاد العربية ، والذين يقيمون حاليا بالولايات المتحدة لمتابعة دراستهم .

* انتهى مؤلف « لوليتا » من كتابه مؤلف عن الشاعر الروسي بوشكين .

* آخر كتاب للقاص الاميركي ارنست هيمنجواي هو « ثلاثة رجال ونرد » .

* اعلن المكتب الفيدرالي للاحصاء ان عدد سكان الولايات المتحدة بلغ فى هذه السنة 179.500.000 نسمة اي انه ارتفع بنسبة 18 ونصف فى المائة منذ سنة 1950 . والجدير بالذكر ان عدد سكان الولايات المتحدة لم يكن يتعدى قبل عشر سنوات 152.000.000 نسمة .

* اتفقت الجالية الاسلامية فى الارجنتين مع الشيخ عبد الباسط عبد الصمد على السفر هناك ، لمدة 15 يوما ينزل فيها ضيفا على الجالية الاسلامية يرتل لهم القرآن الكريم .

* منحت جائزة الدولة التقديرية للاستاذ عباس محمود العقاد .

* يجري ترميم الجامع الازهر مع الاحتفاظ بطابعه العربي .

* قرر المجلس الاعلى للفنون والاداب بالقاهرة الاحتفال بذكرى رواد النهضة الثقافية بالاقليم المصري امثال حفني ناصف ، وعبد العزيز جاويش ، واحمد زكي ، ومحمد المويلي .

* مثل الدكتور طه حسين الجمهورية العربية المتحدة فى مؤتمر الحضارة المسيحية والسلام الذي عقد فى منتصف الشهر الماضي بفلورنسا .

* صدر قرار من رئاسة الجمهورية العربية المتحدة ينص على انه لا يجوز اصدار الصحف الا بترخيص كما انه لا يجوز لاي شخص ان ينتسب الى الصحافة الا اذا حصل على اذن خاص ، كما ينص القرار ايضا ان تؤول ملكية الصحف التي تصدرها دار الهلال ، واخبار اليوم ، وروز اليوسف وجميع ملحقاتها الى الاتحاد القومي . ويعتبر من ملحقات الصحف دور الصحف والالات ، والاجهزة المعدة لطبعها ، ومؤسسات الطباعة ، والاعلان ، والتوزيع ، وجاء فى المذكرة الايضاحية للقرار ان ملكية الشعب لوسائل التوجيه الاجتماعي والسياسي امر لا مناص منه فى مجتمع تحددت صورته .

* قام المجمع اللغوي بالقاهرة بترجمة 3000 من مصطلحات المؤتمرات الدولية ، وتعرض الآن على مجلس المجمع للموافقة عليها .

❊ انتهى الامير مصطفى الشهابي ، رئيس المجمع العلمي العربي من وضع معجم للالفاظ العسكرية ويضم المعجم 30 الف كلمة .

❊ اصدر الاستاذ محمد عزة دروزة كتابا بعنوان « العرب والعروبة » .

❊ قامت مديرية الفنون بدمشق باعداد تمثال لشاعر المعرة ابي العلاء المعري . وسيوضع في شارع الجلاء بدمشق .

❊ رفع المنع عن كتب ساطع الحصري من الدخول الى العراق .

❊ « اكادير » مجموعة شعرية للدكتور داود سلوم صدرت اخيرا بتقديم الاستاذ خضر الولي .

❊ تستعد العراق للقيام بحملة واسعة النطاق ضد الامية خلال هذا الصيف .

❊ توقفت عن الصدور مجلة « السلوى » الشهرية التي كانت تصدر في ديترويت ميشغين بالولايات المتحدة بعد أن قطعت خمس سنوات من عمرها .

❊ اقيمت في بروكلن حفلة اليوبيل الذهبي لجريدة « البيان » .

❊ « دار المغرب العربي للطباعة والنشر » اسم دار للطبع انشأت حديثا في بيروت لصاحبها جميل عويدات ، وستكون هذه الدار حلقة اتصال ثقافي لتعريف ادباء المغرب العربي لدى قراء العالم العربي .

❊ يصدر لمارون عبود قريبا كتاب يضم مذكراته عن ايام التدريس في الجامعة الوطنية بعالية التي كان يعمل فيها .

❊ قريبا يصدر في بيروت ديوان الشاعر يوسف غصوب ، ويشتمل مختارات من قصائده .

❊ نعت السويد الموسيقي السويدي الكبير هوغو الففين عن 88 سنة .

❊ اثارت المسرحية الجديدة التي وضعها الشاعر المعاصر رونالد دونكان « موت الشيطان » ضجة كبرى في الاوساط الادبية العالمية .

❊ نشر في موسكو باللغة الروسية المجلد الاول من كتاب « تاريخ الادب العربي » لمؤلفه حنا الفرخاوي .

❊ قرر الاتحاد العام لكلية الاداب بجامعة القاهرة انشاء صحيفة ادبية تعاونية لمساعدة الاساتذة والطلبة على نشر انتاجهم الادبي .

من تحضير اللجنة الوطنية المغربية لليونسكو

عقد المكتب الدائم للجنة الوطنية المغربية لليونسكو اجتماعا عشية يوم 27 – 7 – 1960 بوزارة التربية الوطنية تحت رئاسة الاستاذ عبد الكريم ابن جلون وقد كان مخصصا لاعداد الترتيبات اللازمة للمساهمة في المؤتمر الاقليمي للجان الوطنية للدول العربية الذي ينعقد ببيروت وقد استعرض المكتب المذكور مختلف نقاط جدول الاعمال الذي حضره مركز التنسيق ليعرض على انظار المؤتمرين ، وقد علمنا ان سائر الدول العربية ستشارك في المؤتمر الثاني من نوعه .

فهرس العدد العاشر - السنة الثالثة

الصفحة